جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ

السياسة الخارجية للمملكة اللاتينية في القسطنطينية

(١٢٠٤ ـ ١٢٦١ م)

رسالة ماجستير

إشراف

أ.د / حسنين محمد ربيع

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

مقدمة من الطالبة :

ليلى عبدالجواد إسماعيل

أغسطس ١٩٨٠ م

قائمة المحتويات

الصفحة

تابع / تابعة المحتويات

الصفحـــــة

تابع / قائمة المحتويات

* * *
*

المقدمة

موضوع السياسة الخارجية للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية من الموضوعات الهامة فى تاريخ العصور الوسطى بصفة عامة ، وفى تاريخ الحركة الصليبية والدولة البيزنطية بصفة خاصة . فالامبراطورية اللاتينية وليدة الحملة الصليبية الرابعة ، تلك الحملة التى جاءت لتقدم الدليل على أن الصليبيين اتخذوا من الدين ستارا لاخفاء ما لهم من مطامع وأهداف ومصالح دنيوية ، فبدلا من أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة نحو مصر كما كان مقررا لها ، اذا بالدوافع الشخصية والاقتصادية والسياسية تحول قادتها نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . ولم يكتف صليبيو الحملة الرابعة بالاستيلاء على تلك المدينة المسيحية بل اعملوا فيها السلب والنهب . حتى ان الكنائس والاديرة لم تسلم من أيديهم ، فقد انتهكوا حرمتها واستولوا على كنوزها ونفائسها . ثم شرع الصليبيون فى تقسيم القسطنطينية وبقية اجزاء الامبراطورية البيزنطية . وطاب لهم العيش فى مدينة القسطنطينية حيث الثراء والغنى ، وتناسوا انهم جاءوا الى الشرق من أجل استخلاص الاراضى المقدسة ومساعدة اخوانهم فى بلاد الشام ضد المسلمين . وبذلك كشف قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية عن هوية الحركة الصليبية وعن أهدافها التوسعية .

وأدى قيام الامبراطورية اللاتينية الى تفتيت وحدة العالم البيزنطى فبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية وحدة واحدة انقسمت الى العديد من الممالك بعضها لاتينية والبعض الاخر بيزنطية . فعلى انقاض الامبراطورية البيزنطية قامت بعض القوى البيزنطية فى المنفى من بينها امبراطورية نيقية فى آسيا الصغرى ، وامارة ابيروس فى شمال غرب البلقان ، وامبراطورية طرابيزون على ساحل البحر الاسود . وعلى الرغم من ان هذه القوى كانت تعكس الاتجاهات الانفصالية بين العائلات البيزنطية القوية ، الا أن قيامها برهن على رغبة البيزنطيين القوية فى مقاومة اللاتين ، ومحاولة التخلص منهم والعودة الى عاصمتهم .

وأحدث قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية صدى واسع النطاق فى أوربا . فالبابوية الداعية الى الحملة الصليبية الرابعة ، والتى نددت فى البداية باتجاهها نحو القسطنطينية باركت قيام الامبراطورية اللاتينية ، وأمدتها

بالمال والرجال ظناً منها بأن الامبراطورية الجديدة خطوة نحو تحقيق حلمها الاكبر وهو توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . والحق أن بابوات هذه الفترة (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) قاموا بمحاولات عديدة من أجل تحقيق هذا الهدف .

أما البنادقة فقد لعبوا دورا هاما فى قيام الامبراطورية اللاتينية ، وحصلوا من وراء قيامها على امتيازات اقتصادية كثيرة أكسبتهم السيطرة على التجارة الشرقية . ومن ثم كان من مصلحة البندقية الحفاظ على أمن وسلامة الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية من أجل رواج تجارتها . ولهذا قامت البندقية بدور الحامى والمدافع عن الامبراطورية اللاتينية حتى سعى بعض حكام البندقية الى نقل مركز جمهوريتهم الى مدينة القسطنطينية ذاتها .

واحتلت الامبراطورية اللاتينية جانبا من تفكير فردريك الثانى ، امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ونظر فردريك الثانى الى الامبراطورية اللاتينية من خلال عدائه للبابوية . ولما كانت البابوية مساندا قويا للامبراطورية اللاتينية فقد سعى فردريك الثانى للتحالف مع خصوم اللاتين من البيزنطيين سواء فى امبراطورية نيقية أم فى امارة ابيروس وذلك بهدف القضاء على الامبراطورية اللاتينية التى عولت عليها البابوية بشكل كبير .

وعلى عكس فردريك الثانى سعى الفونسو العاشر ملك أسبانيا الى التحالف مع اللاتين فى القسطنطينية ، ورأى فى هذا التحالف ما يساعده على تحقيق مشاريعه الامبراطورية . وساعدت فرنسا — ممثلة فى شخص امبراطورها لويس التاسع وأمه بلانش كاستيل — الامبراطورية اللاتينية ، تارة بتوجيه النصح والارشاد لأباطرة اللاتين ، وتارة أخرى بتقديم المساعدات المادية من أجل تقوية مركز اللاتين فى القسطنطينية . ولا غرابة فى ذلك فالاباطرة اللاتين تجرى فى عروقهم دماء فرنسية ، كما أن نظم الامبراطورية اللاتينية تأثرت الى حد كبير بالنظم الفرنسية .

على أن الامبراطورية اللاتينية لم تعمر طويلا ، وذلك لان هناك عدة عوامل عجلت بسقوطها ، من ذلك طبيعة نظم الحكم القائمة على النظم الاقطاعية الغربية ، والمنازعات الكثيرة بين الامراء اللاتين ، والتى كانت

تقضى على الامبراطورية فى أيامها الاولى ، هذا فضلا عن اخطار البلغار ، والجهود التى بذلتها امبراطورية نيقية حتى تحقق لها ما أرادت من استرداد القسطنطينية عام ١٢٦١م ٠

وفى ختام هذه المقدمة اتوجه بالشكر الى استاذى الفاضل الاستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ،أستاذ العصور الوسطى لتوجيهاته السديدة ، ولما احاطنى به من رعاية واهتمام وتشجيع رغم ضيق وقته وكثرة مشاغله ٠

وأتقدم بخالص شكرى وتقديرى الى استاذى الفاضل ، الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد ، فهو المشرف على هذه الرسالة ، ولم يبخل على طيلة مراحل البحث بعلمه وخبرته ، فضلا عن توجيهاته السديدة ، كما أنه أمدنى من مكتبته بمجموعة قيمة من البحوث العلمية المتعلقة بموضوع هذه الرسالة والتى كان لها دورا ملموسا فى انجاز هذا البحث ، فله منى تحية شكر وعرفان بالجميل ٠

وأتقدم أيضا بخالص شكرى وتقديرى الى استاذى الفاضل الاستاذ الدكتور محمد محمد أمين ، استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد ، لما بذله معى من مساعدات طيبة وتوجيهات سديدة ٠ فجزاه الله عنى خير الجزاء وأحسنه ٠

وأتقدم بالشكر الى كل من قدم لى يد المساعدة فى ترجمة النصوص اليونانية واللاتينية والفرنسية القديمة ، وأخص بالذكر الاستاذ الدكتور محمد حمدى ابراهيم ، الاستاذ المساعد بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية ، ومدام هيلين نيقولا مدرسة اللغة الانجليزية بالكلية ، ونيافة الاب منصور مستريح بمعهد الفرنسيسكان للدراسات الشرقية ، ونيافة الاب ديمسا بمعهد الدومنيكان للدراسات الشرقية ، والاستاذ بنيه خورى أمين مكتبة الجمعية التاريخية المصرية سابقا ٠ فجزاهم الله عنى كل خير ٠

وأتوجه بالشكر الى المسئولين والقائمين بمكتبات جامعة القاهرة ، والجمعية التاريخية المصرية ، ومعهد الفرنسيسكان للدراسات الشرقية ، ومعهد الدومنيكان للدراسات الشرقية ، ومعهد الاثار الفرنسى ، ومعهد الاثار الالمانى ، ودار الكتب المصرية ، ومكتبة البلدية بالاسكندرية لما قدموه لى من مساعدات قيمة ٠

والله ولى التوفيق ٠٠٠

دراسة نقدية لاهم مصادر البحث

تأتي المذكرات الخاصة في مقدمة المصادر الغربية لموضوع الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وهذه المذكرات الخاصة عني بتدوينها عادة نبيل أو فارس قدر له أن يشترك في الحملات والمعارك الحربية ، ورأى أن يسرد تفاصيلها ومثال ذلك مذكرات فيلهاردوان Villehardouin التي تعتبر مصدرا أساسيا لتاريخ الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ثم تليها في الاهمية مذكرات روبرت كلارى Robert Clari وهنرى فالنسيان Henri Valenciennes وجوانفيل Joinville .

وترجع أهمية مذكرات فيلهاردوان التي تحمل عنوان " فتح القسطنطينية La Conquête de Constantinople [1] الى أنها سجل لاحداث الحملة الصليبية الرابعة وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بقلم شاهد عيان ، عاش أحداث الحملة يوما بيوم كرجل من أهم رجالاتها وقائد من قادتها . ولمع فيلهاردوان ذروة الجاه والنفوذ في السنوات الاولى من عهد الامبراطورية اللاتينية الناشئة اذ اختاره الامبراطور بلدوين فلاندر Baudouin de Flander (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ م) مارشالا للامبراطورية اللاتينية [٢] . ومن ثم أصبح فيلهاردوان مسئولا عن معظم شئونها السياسية والعسكرية ، ويرجع اليه الفضل في انقاذ الجيش اللاتيني في أدريانوبل Andrinople عام ١٢٠٥ م ، وكذلك هو صاحب اليد الاولى في حل النزاع الذى نشب بين الامبراطور اللاتيني بلدوين فلاندر وبين المركيز بونيفاس مونتفرات Boniface Montferrat وأعاد بذلك الهدوء الى الامبراطورية اللاتينية بعد أن كاد هذا النزاع يفتك بها وهي لاتزال في المهد [٣] .

---

(١) (ed) Wailly, Paris 1882.

(٢) المارشال من كبار القادة العسكريين ، يتولى امور الجند المرتزقة ، ويفصل في المنازعات التي تقع بينهم ، وهو المسئول عن المراسيم والتشريفات في حفلات القصر ، انظر السيد الباز العريني ، الاقطاع الحربي عند الصليبيين ص ٢٢ ، حاشية ٢٠ ، وعن منصب المارشال في الامبراطورية اللاتينية انظر : Hendrickx, " Les institutions de l'empire latin de constantinople" in Byzantina (1977) pp.200-203.

(٣) Villehardouin, Conquête de Constantinople , pp.165-174
وانظر مايلي في الفصل الخامس ص ٢١١ـ٢١٢ ، ٢٢٢ .

ولمذكرات فيلهاردوان جانب آخر من الاهمية ، فهي أول مذكرات تاريخية بالنثر الفرنسي ، وهي تعد واحدة من تحف اللغة الفرنسية القديمة . واتصفت مذكرات فيلهاردوان بغزارة المعلومات ودقتها وصحتها وضبطها ، بالاضافة الى ما اتسمت به من سمات الكتابة التاريخية من الوضوح والاعتدال والترتيب مما جعل مذكرات فيلهاردوان تقف في مصاف روايات مشاهير الفرسان الذين رووا ما فعلوه امثال قيصر وغيره [1] .

ولكن يؤخذ على فيلهاردوان أنه لم يذكر شيئا عن العوامل التي ساهمت في تحول الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية ، وكأنما الحوادث وحدها هي التي وجهت خطى الصليبيين دون ارادة ودون تدبير . ومن الجدير بالذكر أن فيلهاردوان املى تاريخه ، وهو في الستين من عمره في مدينة القسطنطينية في سبتمبر عام ١٢٠٧م ، وكان موت المركيز بونيفاس مونتفرات — قائد الحملة الصليبية الرابعة وصديقه الحميم هو الحدث الذى انتهى به مذكراته [2] .

يلي مذكرات فيلهاردوان في الاهمية كتاب " فتح القسطنطينية Conquête de Constantinople [3] لمؤلفه روبرت كلارى Robert Clari ، وهو أيضا شاهد عيان لاحداث الحملة الصليبية الرابعة وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، شأنه في ذلك شأن فيلهاردوان . ولكن اذا كان فيلهاردوان أحد قادة الحملة ومؤرخيها الموثوقين فان روبرت كلارى كان فارسا عاديا من الفرسان ، ولم يكن من بين من عهد اليهم بمهام ضخمة في تلك الحملة ، ومن ثم فهو يعبر بمذكراته عن آراء عامة الجيش الصليبي في الحملة الصليبية الرابعة [4] .

---

1) Longnon, L'empire Latin de constantinople, pp.140-41.

2) Villehardouin, op. cit., p. 299; 301.

ولمزيد من التفاصيل عن فيلهاردوان ومذكراته وحياته انظر :

Longnon, Récherches sur la vie de Villehardouin, pp.96-104.,
Bédier, Histoire de Litterature, 2, pp. 77-78.

3) روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ترجمة من الفرنسية القديمة الى العربية حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٤ .

4) روبرت كلارى ، المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٢٨ .

كتب روبرت كلارى كتابه " فتح القسطنطينية " بعد عودته الى وطنه مباشرة وذلك فى ربيع عام ١٢٠٥م . ومما تجدر الاشارة اليه أن روبرت كلارى وصل فى تاريخه حتى عام ١٢١٦ م ، وهو العام الذى توفى فيه الامبراطور هنرى فلاندر Henri de Flandre ، ثانى امبراطور لاتينى يعتلى عرش القسطنطينية . على أنه يلاحظ أن الفترة الزمنية (١٢٠٥ — ١٢١٦م) لاتشغل من تاريخ روبرت كلارى سوى بضع صفحات قلائل ، ولعل هذا مايؤكد أنه عاد الى وطنه بعد أن تم الفتح اللاتينى للقسطنطينية ، وبالتالى يمكن الاعتماد على مذكرات روبرت كلارى حتى عام ١٢٠٥م اعتمادا كليا فحتى سنة ١٢٠٥م شاهد روبرت الاحداث بنفسه ، أما بعد ذلك وحتى عام ١٢١٦ م فيبدو أنه دونها مما سمعه من الذين عادوا بعده الى الغرب الاوربى (١) .

أما كتاب " تاريخ الامبراطور هنرى "Histoire de L'empereur Henri" لمؤلفه هنرى فالنسيان Henri Valenciennes (٢) فيعتبر من المصادر الهامة لموضوع البحث ، اذ يعد استمرارا لرواية فيلهاردوان " فتح القسطنطينية " بل وكملا لها اذ يبدأ تاريخ هنرى فالنسيان من ٢٥ مايو عام ١٢٠٨م (٣) .

ويروى فالنسيان فى كتابه الحوادث البارزة فى حكم الامبراطور هنرى (١٢٠٦ — ١٢١٦م) فى الفترة الواقعة بين ٢٥ مايو عام ١٢٠٨ وحوالى يوليو ١٢٠٩ م ، وعلى رأس هذه الحوادث حملة الامبراطور هنرى ضد القيصر البلغارى بوريل Boril ، وحرب الامبراطور مع اللمبارديين فى سالونيك ونجاحه فى اخضاعهم (٤) . كذلك تناول فالنسيان بالحديث تلك المعاهدات التى قدمها الامبراطور هنرى لداود David امبراطور طرابيزون Trabizond

---

١) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٢٨ — ٢٩ ،
Mencal E.H. (ed) The conquest of Constantinople, p.13.

٢) (ed) Wailly, Paris . 1882.

٣) Willehardouin, op. cit., pp.299-301., Valenciennes, Histoire de l'empereur Henri, pp.305-307, Longnon, "Le Chroniqueur Henri de Valenciennes" dans Journal des Savants (1945) p. 144.

٤) Valenciennes, op. cit., pp. 307-27, pp. 341-417.

٥) وانظر مايلى فى الفصل الثانى ص ، ١١٠ — ١١٢ .
Ibid, p. 335 .

ثم تتوقف رواية فالنسيان فجأة عند مفاوضات الامبراطور هنري مع ميخائيـــــل انجيلوس Michael Angelos أمير ابيروس (1) .

وترجع قيمة كتابات فالنسيان الى أنه كان شاهد عيان لهذه الحوادث ، ومن ثم فهي مصدر تاريخي أصيل ، ولعل ما يؤكد صدق فالنسيان في رواية هـــذه الحوادث أن حوليات المؤرخ البيزنطي جورج أكروبوليتا George Acropolitae تؤكد مايرويه (2) . غير أنه يؤخذ على هنري فالنسيان الاسهاب ، فقد أثقـل كتاباته بالمواعظ والخطب التي تقطع الحدث ، ولم يصل الى درجة فيلهاردوان من حيث ابراز الخطوط العريضة للحوادث ، ومعلوماتنا عن حياة فالنسيان قليلـة ، وجل ما وصلنا عنه أنه كان شاعرا مشهورا بمهارته الابداعية ، ثم أصبح مـــــن رجال الدين ، ثم التحق بخدمة الامبراطور هنري فلاندر الذي منحه اقطاعات بصفة خاصة مثل فيلهاردوان (3) .

وأفاد البحث كذلك من مذكرات جوانفيل Joinville عن "تاريـــخ القديس لويس" (4) خاصة فيما يتعلق بعلاقة القديس لويس التاسع ملك فرنسا بالامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ومحاولاته ازالة العداء بين البيزنطيين في آسيا الصغرى وبين اللاتين . والقى جوانفيل الضوء كذلك على دور القديس لويس في حث امبراطورية طرابيزون على الوقوف الى جوار الامبراطورية اللاتينيـــة ضد امبراطورية نيقية (5). وقدمت مذكرات جوانفيل للبحث معلومات طيبـــة

---

(1) Valenciennes, op. cit., pp. 411-19.

(2) Ibid, pp. 331-37, Acropolitae, Annales, in C.S.H.B., p.42.

(3) لمزيد من التفاصيل عن حياة فالنسيان انظر :
Longnon, Le chroniqueur, pp.134-37.

(4) جوانفيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ .

(5) جوانفيل ، نفس المصدر ، ص ٨٦ ، ٢٥٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٢ .

أيضا عن جماعات الكومان [1] وعاداتهم ، تلك الجماعات التي طالما أرقت مضاجع اللاتين في القسطنطينية [2] .

ومن المصادر اللاتينية التي اعتمد عليها البحث الخطابات المكتوبة باللغة اللاتينية ، والتي بعث بها قادة الحملة الصليبية الرابعة والاباطرة اللاتين بلدوين وهنري وغيرهما للبابا انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ـ ١٢١٦م) ولجموع المسيحيين ولزملائهم في الغرب الاوربي ، لكي يطلعوهم على احوال الامبراطورية اللاتينية وليطلبوا منهم المساعدات اللازمة لهم .

ومن أهم هذه الخطابات التي استفاد منها البحث خطاب الامبراطور بلدوين فلاندر (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥م) الذي أرسله للبابا انوسنت الثالث فور تتويجه امبراطورا في مايو عام ١٢٠٤م [3] . وقد جمع هذا الخطاب بين ثناياه من الاسانيد ما جعل البابا انوسنت الثالث يبارك الفتح اللاتيني للقسطنطينية ، ويعترف بالامبراطورية اللاتينية ، ويعتبر بلدوين نصلا وتابعا له ، وبعد وصول هذا الخطاب طلب البابا انوسنت من سائر رجال الدين ان يمدوا يد العون والمساعدة لبلدوين . ومن ثم فقد القى هذا الخطاب الضوء على جانب من علاقة البابا انوسنت الثالث بالامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية [4]

---

١) الكومان قبائل وثنية همجية كثيرة الترحال ، بارعة في حرب المناجزة والمناوشات وفدوا من مناطق الاستبس ، واسم الكومان مشتق من المقاطعة المسماه كومانيا Cumania الواقعة بالقرب من بحر قزوين ، وكان الكومان الاداة التي استخدمها البلغار في حرب اللاتين في القسطنطينية . ولمزيد من التفاصيل عن الكومان انظر : جوانفيل ، نفس المصدر ، ص ٢٢٠ ، روبرت كلارى نفس المصدر ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥

Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p24.,
Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occi, 2, p. 280., note.A.

٢) انظر ما يلي في الفصل الخامس ص ٢١٨ـ ٢٢٢ .

٣) انظر نص الخطاب في :

Patrologia Latina, T.215, Cols. 447-454.,
DuFournet, Les écrivains de la IV croisade , 2, pp. 430-40.

٤) عن مجموعة خطابات الامبراطور بلدوين انظر :

Hendrickx, " Les Chartes de Baudouin de Flandre Comme Source pour L'histoire de Byzance" dans Byzantina (1969) pp. 61-64.

ومن أهم الخطابات التى أمدت البحث بمادة علمية لم تكن لتتوافر له من سواها ، خطابات الامبراطور هنرى فلاندر (١٢٠٦ ــ ١٢١٦م) وعددها خمسة خطابات أولها مؤرخ فى يونيه عام ١٢٠٥ م فى قصر البلاشيران بالقسطنطينية ، ويروى الامبراطور هنرى فى هذا الخطاب احداث معركة أدريانوبل عام ١٢٠٥م ، وأسر أخيه الامبراطور بلدوين على ايدى البلغار فى هذه المعركة . ويمثل هذا الخطاب فى الحقيقة تقريرا عن الحالة العسكرية فى الامبراطورية اللاتينية (١) .

أما الخطاب الثانى فقد كتب فى أوائل عام ١٢٠٦م وتحدث فيه الامبراطور هنرى أيضا عن أسر أخيه بلدوين وعن انتخابه وصيا على الامبراطورية اللاتينية بواسطة البارونات . وهذا الخطاب منشور فى سجلات البابا انوسنت الثالث (٢) والخطاب الثالث من مجموعة خطابات الامبراطور هنرى مؤرخ فى سبتمبر عام ١٢٠٦م فى أدريانوبل وقد أرسله الامبراطور هنرى الى أخيه جوفرى Geoffroy طالبا المساعدة من مواطنيه فى فلاندر وهينوت Hainaut وشرح الامبراطور هنرى فى هذا الخطاب كيف تمكن من انقاذ أدريانوبل وديديموتيخوس Didymotichos فى تراقيا جنوب أدريانوبل ــ من أيدى البلغار ، وفى نهاية الخطاب يقص الامبراطور هنرى على أخيه قصة تتويجه كامبراطور على ايدى البطريرك اللاتينى فى القسطنطينية عام ١٢٠٦م (٣) .

والخطاب الرابع من مجموعة خطابات الامبراطور هنرى مؤرخ فى سبتمبر عام ١٢٠٨م فى بامفليا Pamphile فى تراقيا ، وأرسله الامبراطور هنرى للبابا انوسنت الثالث ، ليخبره بقصة انتصاره على القيصر البلغارى بوريل

---

١) انظر فى الخطاب فى :
Patrologia Latina, T.215, Cols.706-710.

٢) Ibid., T.214, Ch. 106I, Hendrickx, " Récherches sur les documents diplomatiques non conservés, Consernant La IV Croisade et l'empire latin Pendant les Prèmiere années de son existence 1200-1206" dans Byzantina (1970) pp. 143-44 No.26.

٣) Lauer , " Une Lettre indite d'Henri I[er] d'Angre empereur de Constantinople , aux prélats Italiens" dans Mélanges Schlumberger (1924), p. 193.

Boril في ٣١ يوليو عام ١٢٠٨م بالقرب من مدينة فيليبوبوليس Philippopolis (١) .

أما الخطاب الخامس فهو أهم هذه الخطابات جميعا من حيث الاستفادة بها في موضوع البحث ، وهو محرر في برجامون Pergamun — في آسيا الصغرى — في ١٣ يناير عام ١٢١٢م . وترجع أهمية هذا الخطاب الى أنه النص الوحيد الذى يخبرنا بصراع الامبراطور هنرى ضد أعدائه الاربعة مجتمعين وهم ثيودور لاسكاريس (١٢٠٤ — ١٢٢٢م) امبراطور نيقية ، وميخائيل انجيلوس (١٢٠٤ — ١٢١٥م) أمير ابيروس ، وبوريل وستريز Striz القياصرة البلغار . كما ينفرد هذا الخطاب بذكر التحالف الذى تم بين الامبراطور هنرى فلاندر وبين غياث الدين كيخسرو سلطان قونية السلجوقى ضد ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه (٢) . وتجدر الاشارة الى أنه اذا كان تاريخ هنرى فالنسيان عن الامبراطور هنرى قد انتهى عند مفاوضات الامبراطور هنرى مع ميخائيل انجيلوس أمير ابيروس في صيف عام ١٢٠٩م ، فان هذا الخطاب يعتبر المصدر الرئيسى الذى يغطى الفترة من ١٢٠٩ — ١٢١٢م (٣) .

ومن المصادر الهامة لموضوع البحث أيضا مجموعة خطابات البابوات وعلى رأسها خطابات البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦م) والبابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧م) والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١م) وتشغل خطابات البابا انوسنت الثالث ثلاثة مجلدات من مجموعة الباترولوجيا لاتينا Patrologia Latina وهى على التوالى (٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦) . والواقع أن هذه المجلدات الثلاثة لاتحتوى فقط على الخطابات المرسلة من البابا انوسنت الثالث للأباطرة اللاتين والبطريرك اللاتينى في القسطنطينية وحسب بل

---

١) انظر نص الخطاب في
Patrologia Latina, T.215, Cols. 1522-23.

٢) انظر مايلى في الفصل الثاني ص ٧٠ .

٣) انظر نص الخطاب باللاتينية في :
Prinzing," Der brief Kaiser Heinrichs Konstentinople von 13 Januar 1212". In Byzantion (1973) pp. 414-18.

والعربية في ملاحق الرسالة .

وتشمل أيضا خطابات الاباطرة اللاتين للبابا وخاصة خطابات الامبراطور بلدوين فلاندر وهنرى فلاندر [(١)] .

ومن خطابات البابا انوسنت الثالث التى استفاد منها البحث ذلك الخطاب الذى أرسله البابا رداً على خطاب بلدوين فلاندر المؤرخ فى مايو ١٢٠٤م . ودعا البابا أنوسنت ــ فى هذا الخطاب ــ رجال الدين والامراء والكونتات بل وكل الشعوب ان يمدوا يد المساعدة للامبراطور بلدوين . ويأمر البابــــا الصليبيين الموجودين فى القسطنطينية فـــى هذا الخطاب أيضا بـــأن يحافظوا عن الامبراطورية اللاتينية كخطوة أولى الى فتح الاراضى المقدســة . ويحتوى هذا الخطاب كذلك على معلومات طيبة عن علاقة البابوية بالامبراطوريـــة اللاتينية فى القسطنطينية . ومن الجدير بالذكر أن هذا الخطاب مؤرخ فـــى كنيسة القديس بطرس فى روما فى ٧ نوفمبر عام ١٢٠٤م [(٢)] .

وعند الحديث عن علاقة البابا انوسنت الثالث بالبطريركية اللاتينية فـــى القسطنطينية اعتمد البحث على خطاب البابا انوسنت الثالث الخاص بالتصديـــق على انتخاب توماس موروسينى Thomas Morosini أول بطريرك لاتينـــى لكنيسة القديسة صوفيا . وكذلك عول البحث على خطاب البابا انوسنت الثالـــث الخاص بترسيم نفس هذا البطريرك . وأوضح هذا الخطاب الاخير المزايـــا التى خلعها البابا على البطريرك الجديد توماس موروسينى [(٣)] .

ومن الخطابات الهامة التى أرسلها البابا انوسنت الثالث لتوماس موروسينى (١٢٠٤ ــ ١٢١١م) بطريرك القسطنطينية اللاتينى والتى أفاد منهـــا البحث ، خطاب مؤرخ فى ديسمبر عام ١٢١١م فى قصر اللاتيران ، ويروى فيه البابا انوسنت للبطريرك توماس ما قام به ميخائيل انجيلوس أمـــير

---

(١) Patrologia Latina, T. 214, 15, 16, in Patrologia Cursus Completus, (éd) J.P. Migne 1855.

(٢) وانظر مايلى فى الفصل الثالث ص ١١٩ ــ ١٢٠
Patrologia Latina, T.215, Cols. 454-55.,

(٣) انظر نص هذه الخطابات فى :
Ibid, Cols. 517-76.
وانظر أيضا ما يلى فى الفصل الثالث ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

أبيروس من الحنث فى يمينه عدة مرات مع الامبراطور هنرى فلاندر ، وكيف أنه اعتدى على كند سطبل [1] الامبراطورية اللاتينية ومن كانوا بصحبته من جنود ، فقتل بعضهم وجلد البعض الآخر ، وصلب الكندسطبل وثلاثة آخرين ، وفوق ذلك أحرق المدن والقرى وقطع رؤوس القساوسة [2] . وعلى هذا النحو يقدم لنا هذا الخطاب مادة علمية طيبة أفادت الدراسة فيما يتعلق بعلاقة الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية بأمراء ابيروس وخاصة ميخائيل انجيلوس (١٢٠٤ – ١٢١٥م) [3] .

واستمرارا لدور البابوية فى تقديم العون والمساعدة للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية أفاد البحث من خطاب للبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م) وهو مؤرخ فى ١٣ ديسمبر عام ١٢٢٩م ومنشور باللاتينية فى " مجلة الشرق اللاتينى " ، ويحتوى هذا الخطاب على نص صريح من البابا جريجورى التاسع بضرورة مد يد العون للامبراطورية اللاتينية ، فبدون مساعدتها فان استعادة الاراضى المقدسة سيصبح أمرا ميئوسا منه ، ويتحدث البابا جريجورى فى هذا الخطاب أيضا عن أسباب اختيار حنا برين Jean Brienne ملك بيت المقدس السابق – امبراطورا للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، ويختم البابا خطابه هذا بمناشدة جميع اللاتين بالانضمام الى حنا برين لمساعدة الامبراطورية اللاتينية واعدا كل من يظل الى جواره لمدة عام – بالعفو والغفران الذى يمنح لمن يقاتل من أجل انقاذ الاراضى المقدسة [4] .

1) الكندسطبل هو قائد الجيش ، ويعتبر بحكم وظيفته من رجال الدولة الاقوياء ، فهو الذى يقود الجند فى الميدان فى حالة غياب الامبراطور ، ويحمل لوائه فى حفل تتويجه ، وكان يقوم بدور القاضى ليفصل فى القضايا بين الفرسان أثناء المعارك والحروب . انظر : السيد الباز العرينى ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ، حاشية ٢٠ ، عبدالحفيظ محمد على ، النظم السياسية والاجتماعية رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٤٣ وعن منصب الكند سطبل خلال فترة الامبراطورية اللاتينية انظر :
Hendrickx, Les institutions de l'empire latin de Constantinople , pp. 198-200.

2) انظر مايلى فى الفصل الثانى ص ٩٤

3) انظر نص الخطاب فى :
Patrologia Latina, T.216, Cols. 353-54.

4) Van Den Gheyn, " Lettre de Grégoire IX Concernant L'empire Latin de Constantinople " , Dans Revue de l'Orient Latin, T. IX (1902) pp.230-34.

وهناك خطاب آخر للبابا جريجورى التاسع مكتوب باللاتينية أيضا محرر فى ٢١ مايو عام ١٢٣٨م . وقد أرسل البابا جريجورى خطابه هذا لحنا فاتاتزيس Jean Vatatzes (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) امبراطور نيقية خصم الامبراطورية اللاتينية وعدوها اللدود ، يحذره فيه بارسال عدد لايحصى من المحاربين للدفاع عن الامبراطورية اللاتينية واغاثتها حتى تنعم بالسلام المنشود . ويأمر البابا جريجورى حنا فاتاتزيس فى هذا الخطاب بالا يهاجم الامبراطورية اللاتينية ، والا يسبب للامبراطور اللاتينى حنا برين ولذويه أى ازعاج أو مضايقة (١) .

واستفاد البحث أيضا من " تاريخ الامبراطور هرقل Estoire de Eracles Empereur وهو منشور فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخين الغربيين — الجزء الثانى) . وتاريخ الامبراطور هرقل مكتوب بالفرنسية القديمة ، وهو مكمل لتاريخ وليم الصورى ؛ ولم يعرف مؤلفه على وجه التأكيد قيل ان أحد رجال الملك الفرنسى لويس التاسع قام فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بترجمة كتاب وليم الصورى ، وأضاف عليه ذيلا تناول الفترة من (١١٨٤ — ١٢٧٧م) وسماه باسم تاريخ هرقل لان أول كلمة افتتح بها الكتاب هى اسم الامبراطور هرقل (٢) .

ويطلق على تاريخ الامبراطور هرقل تسميات أخرى من بينها " كتاب الفتح Livre du Conquest " وتاريخ ما وراء البحر L'Estoire d'Outre Mer ويبدو فى الواقع أن تاريخ هرقل أقرب الى تاريخ أرنول Ernoul متولى الخزانة هذا ان لم يكن هو بعينه (٣) .

اعتمد البحث على " تاريخ الامبراطور هرقل " فيما يتعلق ببنود الاتفاق الذى يقال أن العادل سلطان مصر قد عقده مع البنادقة عام ١٢٠٢م من أجل

(١ Grumel, " L'authenticité de la Lettre de Jean Vatatzes, empereur de Nicée, au pape Grégoire IX" dans Échos d'Orient (1930) , pp. 455-56.

٢) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ هرقل انظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٨٠٢ — ٨٠٣ .

٣) Bédier , op. cit., 2, p. 81.

أن يساهموا في تحويل الحملة الصليبية الرابعة عن بلاده . وأمد تاريخ هرقل البحث بمعلومات طيبة عن دور الامبراطور هنري فلاندر في مواجهة البلغار وكذلك عن أسر الامبراطور اللاتيني بطرس الكورتناي Pierre de Courtenay على يد ثيودور انجيلوس (١٢١٥ – ١٢٣٠م) أمير ابيروس [١] .

ومن مصادر البحث الهامة كذلك حولية " تاريخ المورة "Chronique de Morée وهي مجهولة المؤلف ، ويعتقد البعض أن أصل هذه الحولية كتب بالفرنسية القديمة ، بينما يعتقد البعض الاخر أن النسخة الاصلية باليونانية كتبها رجل فرنجي ، وعلى أية حال فقد عول البحث على الاصل الفرنسي لهذه الحولية وهو الذي تيسر الحصول عليه [٢] .

وعلى الرغم من أن حولية " تاريخ المورة " تكتنفها بعض الاخطاء الا انها تنفرد ببعض المعلومات التي لاتتوفر في غيرها ، فهي من المصادر الهامة التي تناولت بالحديث فتح المورة على ايدي جوفري فيلهاردوان Geoffrey Villehardouin – ابن أخ المؤرخ فيلهاردوان – ووليم شامبليت William Champlitte . ثم تروي الحولية قيام امارة المورة (البيلوبونيز) وحوليتها اثينا . كما أفادت هذه الحولية البحث عند دراسة علاقة جوفري فيلهاردوان امير المورة بميخائيل امير ابيروس ، ودور الاول في معركة بيلاجونيا عام ١٢٥٩م [٣] .

أما أهم المصادر اليونانية فيأتي في مقدمتها وفقا للتسلسل التاريخي كتاب المؤرخ نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates بعنوان "التاريخ" "Histoire" وهو منشور في مجموعة :

---

١) Estoire de Eracles empereur, dans Recueil Historiens des croisades, Historiens Occidentaux, T.2, Paris (1859).

وانظر مايلي الفصل الاول ص ١٨ – ١٩ ، والفصل الثاني ص ٩٩–١٠٠

٢) انظر النص الاصلي لحولية المورة بالفرنسية القديمة وترجمته بالفرنسية الحديثة :
Chronique de Morée aux XIII et XIV siécle, (éd) Alfred Morel Fation, Géneve 1885.

٣) انظر مايلي في الفصل الاول ص ٤٣ – ٤٤ ، والفصل الخامس ص ٢٣٩–٢٤٢ .

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C.S.H.B.)
Bonnae 1835 .

وقد تحدث نيقتاس في كتابه بمزيد من التفصيل عن حوادث الفترة التاريخية المخلفة من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٠٦م وأفرد لها فصلين من مؤلفه • ويحول البحث على هذين الفصلين فيما يتعلق بالحملة الصليبية الرابعة واحتلال اللاتين للقسطنطينية عام ١٢٠٤م • وعمليات التخريب والتدمير التى قام بها اللاتين عقب الفتح وان كان نيقتاس قد بالغ فى وصفها (١) • واعتمد البحث كذلك على كتاب نيقتاس عند دراسة اختيار اللاتين لاول امبراطور لاتينى • وفى النزاع بين بلدوين فلاندر والمركيز بونيفاس مونتفرات • وكذلك فى الحديث عن اختيار توماس موروسينى أول بطريرك لاتينى يحتل عرش كنيسة القديسة صوفيا والصفات التى اتصف بها هذا البطريرك الجديد (٢) •

وترجع أهمية كتابات نيقتاس خونياتس الى انه مؤرخ معاصر للاحداث وشاهد عيان لها • فقد ولد فى خونا Chonae فى مقاطعة فريجيا بآسيا الصغرى فى أواسط القرن الثانى عشر حوالى عام ١١٥٠م • وارتحل الى القسطنطينية حيث تلقى تعليمه تحت رعاية شقيقه الاكبر ميخائيل رئيس اساقفة اثينا • وتقلد نيقتاس العديد من الوظائف كان آخرها ولاية اقليم فيليبوبوليس عام ١١٨٩م • وعاد بعدها الى القسطنطينية قبيل سقوطها • وعندما سقطت تلك المدينة فى ايدى اللاتين عام ١٢٠٤م خرج منها هو وأسرته والتجأ الى نيقيه حيث عاش هناك فى بلاط ثيودور لاسكاريس حاكمها حتى وافته المنية عام ١٢١٣م (٣) •

---

١) انظر مايلى فى الفصل الاول
٢) انظر مايلى فى الفصل الثالث ص ١٢٣ • حاشية ٢ •
٣) لمزيد من التفاصيل عن نيقتاس خونياتس انظر

Grecu, " Nicetas Choniates" dans Revue des Études Byzantines (1949) , pp. 194-98., Michaud, Histoire des croisades, 3, pp. 331- 334.

هسى • العالم البيزنطى • الترجمة العربية • ص ١٩٠ — ١٩١ حاشية (٢)
عادل زيتون • العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة • رسالة ماجستير غير منشورة • آداب القاهرة (١٩٧٥) ص ٥ — ٧

حقيقة أن أسلوب نيقتاس في كتاباته يتميز بالتعقيد الا أنه التزم الصدق والدقة ، واتسم كذلك بالاعتدال ، هذا وان كانت روايته تمتلىء بالمغالاة والمبالغة بعض الشيء ، فقد تردد كثيرا في أن يلفظ باسم اللاتين ، وعندما وصف النكبات والمصائب التي حلت بالامبراطورية البيزنطية على أيديهم لم يعرف سوى الحزن [(1)] . ومهما يكن من أمر فان تاريخ نيقتاس خونياتس يعد مصدرا ممتازا بالنسبة لسقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م على أيدى اللاتين وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية اذ أنه يمثل وجهة النظر البيزنطية في هذه الاحداث .

ومن المصادر اليونانية الهامة كذلك حوليات مؤرخ نيقية "جورج اكروبوليتا Acropolitas المسماة Annales (١٢٠٤ — ١٢٦١م) . وعالج جورج اكروبوليتا في حولياته تاريخ امبراطورية نيقية ودورها في استرداد القسطنطينية عام ١٢٦١م [(2)] .

عرض اكروبوليتا في بداية مؤلفه عرضا سريعا للحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤م على ايدى اللاتين الذين أطلق عليهم اسم الايطاليين . ثم ركز حديثه عن دور ثيودور لاسكاريس أول أباطرة نيقية في تأسيس امبراطورية المنفى أي امبراطورية نيقية وتتويجه امبراطورا لها . وشرح اكروبوليتا علاقات ثيودور لاسكاريس باللاتين في آسيا الصغرى وميخائيل دوقاس امير ابيروس في شمال غرب اليونان . كما تحدث عن علاقة حنا فاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) امبراطور نيقية بالامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ومحاولاته استعادة القسطنطينية بالتحالف مع البلغار وأبرز دور البلغار في التحالف مع اللاتين في القسطنطينية ضد امبراطورية نيقية . وأفاض اكروبوليتا كذلك في شرح دور ميخائيل باليولوجوس في استرداد القسطنطينية عام ١٢٦١م [(3)] .

(1) Nicetas, Historia, in C.S.H.B., p. 763.

(2) Acropolitas, Annales, in C.S.H.B., Bonnae (1837).

(3) انظر مايلي في الفصل الثاني ص ٦١ — ٨٨ . والفصل الخامس ص ٢٣٠ .

أما عن جورج اكروبوليتا كاتب هذه الحوليات ، فقد ولد عام ١٢١٧م ، وتحدث عن طرف من سيرة حياته فى ثنايا مؤلفه ، فيذكر أنه كان محبا للعلم والتعلم ، فتعلم مثل سائر الاطفال على يد رجل يدعى ثيودور اكسابترجوس Theodore Exaptergus ، ثم وفد الى نيقيه عام ١٢٣٣م حيث واصل تعليمه فى قصر الامبراطور حنا فاتاتزيس امبراطور نيقية ومع ابنه ثيودور لاسكاريس الثانى Theodore Lascaris II على يد استاذ الفلسفة نيقفور بلاميدس Nicephore Blemmides ، ويذكر اكروبوليتا فى حولياته أيضا أنه خدم فى الجيش ، ونظرا لما كان يتمتع به استاذه بلاميدس من مكانة مرموقة سامية فى امبراطورية نيقية ، اذ كان يلى الامبراطور فى المنزلة ، فقد ترك اكروبوليتا الجيش وعمل مدرسا وهو لا يناهز السابعة عشرة من عمره ، والتحق بخدمة الدولة ، ووصل الى أعلى المراتب (١) .

يتضح مما سبق أن حوليات اكروبوليتا من الاهمية بمكان للبحث فهى تمثل وجهة النظر البيزنطية من ناحية ومن ناحية أخرى فان مؤلفها شاهد عيان لما روى من حوادث بل وشارك فى بعضها ، هذا وان كان قد استمد معلوماته من الفترة السابقة لميلاده (١٢٠٤ ـ ١٢١٧م) من المعاصرين لها .

واعتمد البحث أيضا على مؤلف جريجوراس Gregoras وهو بعنوان (التاريخ البيزنطى) الذى يقع فى ثلاثة مجلدات (٢) عند دراسة تاريخ امبراطورية نيقية وامارة ابيروس فى الفترة من سنة (١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١م) . وعلى الرغم من أن جريجوراس عرض عرضا سريعا بعض القضايا لهذه الفترة الا أنه فسر وشرح بعض الحوادث ومن بينها معركة أدريانوبل عام ١٢٠٥م وآثارها السيئة على الامبراطورية اللاتينية ، واستنجاد الخوة الامبراطور ثيودور لاسكاريس بالامبراطور اللاتينى روبرت الكورتناى Robert Courtenay ليساعدهما فى استرداد العرش من امبراطور نيقية حنا فاتاتزيس

(١ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.53-54.

(٢ Gregoras, N, Byzantinae Historiae, Vol.I, in C.S.H.B., Bonnae 1829.

خليفة لاسكاريس وزوج ابنته ، ومن هنا تظهر أهمية مؤلف جريجوراس عند الحديث عن الامبراطورية اللاتينية وعلاقتها بالقوى البيزنطية (١) .

ومن المصادر اليونانية الهامة كذلك والتى أفاد منها البحث كتابات جورج باخيمير G.Pachymeres عن عصرى ميخائيل واندرونيق باليولوجوس (٢) . وامدت كتابات باخيمير البحث بمادة علمية طيبة وغزيرة عن حياة ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologis وجهوده حتى اعتلائه عرش امبراطورية نيقية ، ثم ما قام به من مجهودات حتى استرد العاصمة البيزنطية وتوج امبراطورا فى كنيسة القديسة صوفيا عام ١٢٦١م ، وانهى بذلك الوجود اللاتينى فى القسطنطينية (٣) .

تحدث باخيمير عن حياته فى فقرات قليلة فى بداية مؤلفه ، فذكر أنه ولد فى عام ١٢٤٢م فى مدينة نيقية وتربى بها ، وعندما استرد البيزنطيون عاصمتهم ذهب الى القسطنطينية وكان فى ذلك الوقت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وفى عهد ميخائيل باليولوجوس ارتقى باخيمير العديد من المناصب الهامة واحتل مكانة مرموقة (٤) .

أما أهم المصادر العربية التى استفاد منها البحث ، فيأتى فى مقدمتها كتاب ابن الاثير (الكامل فى التاريخ) (٥) ، وترجع أهمية كتابات ابن الاثير بالنسبة للبحث الى أن ما جاء به من معلومات اتفقت الى حد كبير مع ما جاء فى المصادر اللاتينية واليونانية المعاصرة ، وهذا ان دل على شئ فانما يدل على مدى سعة أفق ابن الاثير ، ومن العلمه بما جرى من حوادث جسام فى الدولة البيزنطية ، وعلى سبيل المثال فقد ذكر ابن الاثير فى حوادث عام (٦٠٠هـ / ١٢٠٤م) الحوادث الهامة التى تعرضت لها الامبراطورية

---

١) انظر ماياتى فى الفصل الثانى ص ٧٧ — ٧٨ .
٢) Pachymeres.G., Michaele et Andronico Palaeologis, Vol.I, in C.S.H.B., Bonnae 1835.

٣) انظر مايلى فى الفصل الخامس ص ٢٣٦—٢٤٩ .
٤) Pachymeres, op. cit., in C.S.H.B., p. 11.
٥) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء (القاهرة ١٣٠١ هـ) .

البيزنطية فى هذا العام ، ومنها حصار الفرنج (اللاتين) للعاصمة البيزنطية القسطنطينية ، واختيارهم (كندافلند أى بلدوين فلاندر) كأول امبراطور لاتينى يعتلى عرش القسطنطينية . كما ذكر ابن الاثير ما قام به الفرنج من تقسيم لاراضى الامبراطورية البيزنطية فيما بينهم (١) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن كثيرا من المؤرخين المسلمين نقلوا عن ابن الاثير فيما يتعلق بحوادث عام (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) ومن هؤلاء ابن خلدون ، وابن كثير ، وابن العاصى وغيرهم (٢) .

أما كتاب أبى شامة (الذيل على الروضتين) فقد أفاد البحث عند دراسة دور البندقية فى عمليات السلب والنهب التى قام بها اللاتين فى القسطنطينية عقب استيلائهم عليها عام (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) وكيف باع البنادقة تحفيو ذخائر القسطنطينية فى أسواق مصر والشام وخاصة الرخام . (٣)

وترجع أهمية كتاب ابن واصل (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) الى أنه ذكر الى جانب نبأ سقوط القسطنطينية على أيدى الفرنج عام ٦٠٠ هـ الهدنة التى وقعها الفرنج فى بلاد الشام مع العادل سلطان مصر ، بعد أن فقدوا الامل فى وصول صليبى الحملة الرابعة لنجدتهم ومساعدتهم (٤) .

* * *

---

١) ابن الاثير ، نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٨٨ — ٨٩ .
٢) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٥ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ،
ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣٦ — ٣٧ ،
ابن العاصى ، الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .
٣) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٥٢ (القاهرة ١٩٧٤ م) .
٤) ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٣ ، تحقيق جمال الدين الشيال (١٩٦٠) ص ١٦٠ — ١٦١ .

الفصل الاول

قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينيـــــة

- احوال الدولة البيزنطية قبيل قيام الحملة الصليبيـــــة الرابعـــــة .
- تحول الحملة الصليبيـــــة الرابعة نحو القسطنطينية .
- سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين عام ١٢٠٤م .
- اختيار الكونت بلدوين فلاندر أول امبراطور لاتينـــــى للقسطنطينية . وتتويجه (مايو ١٢٠٤م) .
- تقسيم الامبراطورية البيزنطية وتوزيع الاقطاعات بيـــــن اللاتيـــن .
- قيام امارتى المورة واثينا .
- اثر قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية على : الدولـــة البيزنطيـــــة — والحركـــة الصليبيـــــة والشرق الاسلامـــــى .

* * *

يعزو المؤرخ الفرنسي هالفن Halphen السهولة التي تم بها سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين عام ١٢٠٤م الى انحلال الدولة البيزنطية وفسادها بعد موت الامبراطور مانويل كومنين .(١)

ولاشك ان أحوال الدولة البيزنطية الداخلية وسياستها الخارجية ساءت بدرجة كبيرة فيما بين عامي (١١٨٥-١٢٠٤م) اذ شغل العرش البيزنطي خلال تلك السنوات أباطرة غير أكفاء من أسرة انجيلوس وهم : اسحق الثاني (١١٨٥ - ١١٩٥م) والكسيوس الثالث (١١٩٥ - ١٢٠٣م) اللذين انغمسا في اللهو والترف ، مما أتاح لرجال البلاط الامبراطوري فرصة التدخل في كافة شئون الامبراطورية لخدمة مصالحهم واغراضهم الذاتية دون رقابة أو اهتمام أي من الامبراطورين بما يجري من أمور ، اذ أسرف كل منهما في الانفاق على ملذاته وشهواته ، فتجاوز الحدود المعقولة للانفاق ، وكانت النتيجة زيادة في الضرائب، واصدار سكة ناقصة العيار ، بل والاستيلاء على كنوز الكنائس .(٢)

ومن مظاهر الفساد في هذا العصر انتشار الرشوة ، لدرجة أن الوظائف الحكومية أصبحت سلعا تباع وتشترى ، وتسند لمن يدفع أكثر في سبيل الحصول عليها دون النظر الى الكفاءة والمقدرة ، ويصور المؤرخ البيزنطي نيقتاس خونياتس ذلك بقوله : " كانت المناصب والوظائف الحكومية تباع في عهد الامبراطور اسحق الثاني كما تباع الخضروات في السوق ".(٣)

(١ Halphen, " Le rôle des Latins". dans Mélanges Ch. Diehl, Vol. I (1930), p. 141.

(٢ لمزيد من التفاصيل Nicetas Choniates, Historia, in C.S.H.B., pp. 579-600.,
انظر : أومان ، الامبراطورية البيزنطية ص ٢١٣ ,
Lebeau, Histoire du Bas -Empire, T.16, pp. 380-81.,
اسمت غيم ، الحملة الصليبية الرابعة ص ٣١-٣٢ .
Finlay, History of Greece, Vol. 3, pp. 219-22;

(٣ Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p.584.; Ostrogorsky, History of the Byzantine state, p. 356.

وأدى الفساد الادارى والمالى الى نشر الجوع والخراب فى الريف نظـــرا لازدياد الضرائب ، التى كثيرا ماكانت تجبى أكثر من مرة فى العام الواحد وذلـك لمواجهة نفقات البلاط ، ودفع الأموال لأعداء الامبراطورية لشراء السلام معهم. ورغم تناقص مساحة أراضى الامبراطورية نتيجة للغزو الخارجى تضاعف عـــــدد مقاطعتها ، وأصبحت الامبراطورية تتكون من وحدات ادارية صغيرة ، فى الوقـت الذى نمت فيه الاقطاعات الخاصة ، مما أدى الى ازدياد نفوذ كبار ملاك الأراضى على حساب نفوذ رجال الحكومة فى المقاطعات ، حتى أصبح المالك الاقطاعى هو الحاكم الادارى الفعلى فى مقاطعته ، وأدى ذلك الى ظهور نوع من الامـارات المستقلة عن الحكومة المركزية.(١)

عانت الدولة البيزنطية كذلك خلال حكم آل انجيلوس من ضعف قوتهـــا العسكرية ، فقد أصبح الجيش والأسطول ـ اللذين كانا مثار فخر البيزنطيـــين فى العهود السابقة ـ على درجة من الاضطراب والضعف ، ويرجع السبب فـى ذلك الى أن أباطرة هذا العهد ركنوا الى حياة الدعة والترف ، وابتعدوا عن ميادين القتال وعهدوا بقيادة جيوشهم الى المرتزقة الذين عجزت الامبراطورية عن دفع رواتبهم فتمردوا عليها بعد أن كانوا أداتها فى الحرب والقتال.(٢)

وكان الأسطول بدوره على درجة من الضعف لاتسمح له باحراز أى نصر بحرى لذلك لجأ الأباطرة البيزنطيون الى الاستعانة بأساطيل المدن البحرية الايطالية وخاصة أسطول البندقية للدفاع عن سواحل الامبراطورية ، ومن العجـــيب أن أسطول البندقية ذاته هو الذى تولى عملية الهجوم على العاصمة البيزنطية عـــام ١٢٠٤م.(٣)

---

١) انظر أيضا مايلى ص ٦ عاعلان اسحق كومنين استقلاله بقبرص. Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine, T.2, pp. 142-43., Finlay, op. cit., 3, p. 219.,

٢) لمزيد من التفاصيل انظر: Cam. Med. Hist, Vol.4, pp.737-40., Frances, " Sur la conquête de Constantinople" dans Byzantino Slavica, T.XV (1959), pp.21-22., اسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص٢١ـ٢٥

٣) عن انحطاط الأسطول فى عصر آل انجيلوس انظر: Ahrweiler, Byzance et la mer, pp.288-92.

ترنح الاقتصاد البيزنطي في عهد آل انجيلوس تحت وطأة الامتيازات التجارية التي منحها أباطرة هذه الأسرة للمدن البحرية التجارية الايطالية وخاصة البندقية ولم تتمتع هذه المدن بالامتيازات التجارية في العاصمة فحسب ، بل وفي عدد كبير من مدن الامبراطورية وجزرها ،وقد ساهمت هذه الامتيازات في اضمحلال التجـارة البيزنطية ، اذ جعلت من التجار الايطاليين منافسين خطرين للتجار البيزنطييـن انفسهم ، وفتحت الأسواق البيزنطية على مصراعيها أمام الايطاليين عامة والبنادقة خاصة ، مما أتاح لهم فرصة السيطرة على تجارة الامبراطورية كلها ، بل واحتكار جميع الأعمال التجارية في سائر الأقاليم التابعة للامبراطورية البيزنطية".(١)

وكان على أباطرة أسرة انجيلوس مواجهة مشكلات عدة ، وعلى رأسها تمـــرد بلغاريا ، وانفصال جزيرة قبرص وضياعها نهائيا من أيدى البيزنطيين .

أعلن البلغار تمردهم على الامبراطورية في عام ١١٨٥م ، وذلك بعد أن ظلت بلغاريا خاضعة للحكم البيزنطي مايقرب من قرنين من الزمان ، أي منـــذ فتحها باسيل الثاني Basil II عام ١٠١٨م . ويرجع هذا التمرد الـى سخط البلغار على السيطرة البيزنطية التي لم تمنحهم هبات معينة عرفت باســم " البرونويا Pronoia ".(٢) ، بل وسلبت دوابهم وماشيتهم من أجل الاحتفال بزواج الامبراطور اسحق الثاني من ابنة ملك المجر ، هذا فضلا عن رغبتهم فـــى الحصول على الاستقلال .(٣)

---

(١) Vasiliev, op. cit., 2, pp. 143-45., Francoe, Sur La Conquête, pp.22-23.,

عادل زيتون ، العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة في القرن ١٢م ، رسالـة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة (١٩٧٥) ص ٤١٠ـ٤١١ .

٢) البرونويا هبة تمنح لقاء الخدمة العسكرية ،وهي لاتباع ولاتورث ولا توهـــب وتمنح بواسطة الأباطرة أنفسهم أوعن طريق وزرائهم . ولمزيد من التفاصيـــل انظر:

Vasiliev, "On the question of Byzantine feudalism.", in Byzantion, Vol. 8 (1933) pp. 590-9?

السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ج٢ ، ص ٨٢ ، شارع ، العالم البيزنطي ، ص ١٨٣ـ١٨٤ .

Ostrogorsky, op. cit., p. 358.

٣) عن أسباب تمرد البلغار انظر :

Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p.481., Vasiliev, op. cit., 2, p.87., Ostrogorsky, op. cit., p.358.

استغل البلغار ضعف الدولة البيزنطية ، وفتنة داخلية قام بها القائد الكسيوس براناس Alexius Branas ، ونجحوا بمساعدة عناصر الكومان في احراز عدة انتصارات على جيوش الامبراطورية ، فسقطت في أيديهم مدن نيسوس Naissus ، وصوفيه Sophia ، وفارنا Varna (١).
واتخذ البلغار من ترنوفو Trnovo عاصمة لهم ، وتوجوا آسن Asen امبراطورا لبلغاريا عام ١١٨٧م ، على يد أسقف ترنوفو ، وبذا أصبحت لبلغاريا كنيستها المستقلة ودولتها المستقلة عن بيزنطة . (٢)

وسرعان ما قوى نفوذ البلغار عما كان عليه من قبل ، فبعد وفاة آسن اعتلى العرش البلغاري شقيقه الأصغر كالوجان Kalojen ، الذي وجدت فيه الامبراطورية البيزنطية منافسا جديدا وقويا لها في شبه جزيرة البلقان ، اذ مالبث أن تتوج كالوجان ملكا على يد مندوب البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) . (٣)

وفي عهد آل انجيلوس فقدت الدولة البيزنطية جزيرة قبرص ، ففي عام ١١٨٤م عين الامبراطور اندرونيق كومنين (١١٨٢ ـ ١١٨٥م) قريبه اسحق كومنين حاكما على جزيرة قبرص ، وذلك نظرا لما كانت تتعرض له هذه الجزيرة من أخطار من قبل كل من الصليبيين والمسلمين ، واستبد اسحق كومنين بالأمور في قبرص ، وقطع صلته بالعاصمة القسطنطينية ، وتلقب بلقب امبراطور قبرص ، وهزم الأسطول الذي أرسله الامبراطور اسحق الثاني انجيلوس الى قبرص لاخراجه منها ، وذلك بمساعدة حليفه وصهره ملك الصقليين وليم النورماني . (٤)

---

١) أومان ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .
٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

Wolff, " The second Bulgarian Empire " in Speculum (1949) pp. 167-203., Ostrogorsky, op. cit., p. 360., Vasiliev, op. cit., 2,p.88

٣) Patrologia Latina, T. 215, Cols. 277-280.

٤) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٤ .

كان انفصال جزيرة قبرص عن الدولة البيزنطية ضربة قاسية حلت بها اذ كانت هذه الجزيرة نقطة استراتيجية وتجارية هامة ، جلبت لخزانة الامبراطورية الأموال الكثيرة بسبب رواج تجارتها مع الامارات الصليبية في الشرق .[١] ثم ما لبث ريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا أن استولى على تلك الجزيرة من اسحق كومنين وبذلك انتقلت من أيدى البيزنطيين الى قبضة اللاتين [٢]

وكان على بيزنطة بما تعانيه من وهن وضعف في الداخل والخارج أن تواجه في عام ١١٨٩م مجئ الحملة الصليبية الثالثة التي تم الاعداد لها عقب سقوط بيت المقدس في أيدى صلاح الدين عام ١١٨٧م ، تلك الحملة التي حمل لواءها ثلاثة من ملوك أوربا هم : ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وفردريك بربروسا امبراطور ألمانيا .

كتب فردريك بربروسا عام ١١٨٨م الى الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني انجيلوس يخبره بأنه سيتخذ الطريق البرى الى الشام مارا بأراضيه ، فرد الامبراطور البيزنطي بارسال سفارة من قبله الى ألمانيا لاعداد التدابير اللازمة لمرور الصليبيين في أراضي الامبراطورية .[٣]

وتم الاتفاق في نورمبرج Nuremberg بألمانيا ، على تنظيم عبور الجيش الالماني داخل أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وتأمين هذا الجيش وامداده بالمؤن والعتاد اللازم .[٤] ولعل مسلك اسحق هذا نابع من خوفه من أن تساور

---

١) سعيد عاشور ، نفس المرجع ، ص ٢٥ ،
Vasiliev, op. cit., 2, 82.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر : سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦-٢١ ،
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ١٢-١٥ .
Ostrogorsky, op. cit., pp. 361-62,

٣) Brand, "The Byzantines and Saladin" in Speculum, Vol. 37 (1962), p. 173.
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٣ ،
Setton, History of the Crusades, 2, p.47.

٤) حامد زيان ، فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ص ٢٣ ،
Ostrogorsky, op. cit., p. 360.

فردريك بربروسافكرة السيطرة على العاصمة البيزنطية .(١)

وماكادت جيوش فردريك بربروسا تصل الى حدود الامبراطورية البيزنطية حتى تغير موقف اسحق الثانى ، وبدأ الشك يتسرب اليه خوفا من نوايا الجيش الالمانى وقائده فردريك الأول ، ولاسيما بعد أن التمس الاخير صداقة اعداء بيزنطـــة والمتمردين عليها ، فتعهد له كل من ستيفن امير الصرب ، وحنا آسن واخيـــه بطرس زعيما البلغار ، بتقديم العون والمساعدة له ضد الامبراطور البيزنطى .(٢)

وكان الامبراطور فردريك الأول قد عقد معاهدة صداقة مع سلطان سلاجقة الروم عز الدين قلج ارسلان الثانى فى عام ١١٦٧م ضد بيزنطة ، هذا فضلا عـــن الاتفاق الذى تم بين بربروسا وبين وليم الثانى النورمانى ملك الصقليتين عـــام ١١٨٤م على زواج ابن الأول وهو هنرى السادس من ابنة الثانى الأميرة كونستانس والمعروف أن النورمان هم الأعداء التقليديين للامبراطورية البيزنطية منذ زمن بعيـــد .(٣)

لذلك بدأ موقف الامبراطور اسحق الثانى يتغير تجاه فردريك بربروساوجيشه وبدأ يتنصل من اتفاق نورمبرج عام ١١٨٨م ، وأكثر من ذلك سعى الى محالفة صلاح الدين ضد بربروسا والصليبيين ، وقد تم هذا التحالف بالفعل عام (٥٨٠هـ - ١١٨٩م) ، فيذكر ابن شداد "انه كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينيـــة

---

١) صحب بربروسا عمه كونراد الثالث امبراطور المانيا فى الحملة الصليبية الثانية التى اتخذت الطريق البرى الى بلاد الشام ، وعندما وصل الصليبيون الالمان الى أسوار القسطنطينية ساءت العلاقات بينهم وبين البيزنطيين ، ولهـــذا أسرع الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى عقد صلح مع سلطان سلاجقة قونيه ، الذى أوشك الصليبيون أن يسلكوا أراضيه الى الشام ، وكانـــت النتيجة أن هلك معظم الجيش الالمانى ، ولهذا حقد فردريك بربروســا على بيزنطه وفكر فى غزوها . ولمزيد من التفاصيل انظر :
سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٢٤-٦٢٦ ،حامد زيـــان المرجع السابق ، ص ٢٠-٢١ .

٢) Vasiliev, op. cit., 2, p. 88., Bréhier, Vie et Mort de Byzance, I , p. 353.

٣) حامد زيان ، المرجع السابق ، ص ٢٨-٢٩ .
Vasiliev, op. cit., T.2, p. 92.

مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول الى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان انفذه السلطان اليه ، بعقد تقرير القواعد واقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ".(١)

ونتيجة لهذا التحالف أرسل الامبراطور اسحق الثاني عام (٥٨٦هـ ـ ١١٨٩م) الى صلاح الدين يخبره بقدوم بربروسا على رأس حملة صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، ويذكر له المتاعب التي حلت بفردريك بربروسا ورجاله داخل أراضي الامبراطورية ، وجهوده في انهاك قوى الحملة الالمانية قبل وصولها الى اراضيه بقوله : " انه قد سار في بلادى الالمان ... ولو تشتهي أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادى ، وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرجل والرجال ، ومات منهم كثير .. وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلوا الى بلادك ، وان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كثيرة ...".(٢)

أثار سلوك اسحق الثاني هذا ثائرة فردريك بربروسا ، فبعد أن ضرب تراقيا واستولى على ادريانوبل Adronople وفيليبوبوليس Philippopolis وأصبح على وشك الاقتراب من القسطنطينية ، أرسل الى ابنه هنرى يأمره باعداد اسطول لمهاجمة القسطنطينية ، بل ويطلب من البابا الدعوة لحملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . وبالفعل شرع هنرى في نوفمبر عام ١١٨٩م في المفاوضات مع المدن التجارية الايطالية (جنوه وبيزا والبندقية) وعرض عليهم رغبته في أن يزوده بأسطول لغزو القسطنطينية خلال شهر مارس من العام التالي (١١٩٠م) ، في الوقت الذى يقوم فيه بربروسا بالهجوم على المدينة من البر.(٣)

---

١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ، سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٤ .

٢) ابن شداد ، النوادر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

٣) Brand , The Byzantines and Saladin, , pp.175-76.
Heyd, Histoire du Commerce, Vol. I, p. 264.,
Setton, op. cit., 2, p. 148.

عندئذ رأى الامبراطور اسحق الثانى انه من الضرورى أن يخلص الصلح مـــع الامبراطور فردريك بربروسا ، وأرسل اليه فى طلب الصلح ، وتعهد لقاء ذلك أن يقدم للجيش الالمانى مايحتاجه من مؤن وعتاد طالما بقى فى أراضى الامبراطوريـــة البيزنطية ، وتعهد أيضا بأن يزودهم بالسفن اللازمة لنقلهم من ميناء غاليبولـــى Galliopoli على بحر مرمرة الى آسيا الصغرى ، ومنها يمكنه الوصول الـــى الأراضى المقدسة التى كان يأمل الذهاب اليها ، كما تعهد اسحق الثانى بـــالا يتعرض بسوء لكل من مد يد المساعدة للالمان ، وبأن يطلق سراح الأســـــرى الألمان الذين وقعوا فى يده .(١)

تمكن اسحق انجيلوس بهذا الصلح (١١٩٠م) من انقاذ عاصمته من خطر محقق ولكن جاءت حملة ريتشارد قلب الأسد هى الأخرى لتهدد كيان جزيرة قبرص ، فقـــد نجح ريتشارد فى انتزاع هذه الجزيرة من أيدى اسحق كومنين وبذلك انتقلت قبرص من أيدى البيزنطيين الى أيدى اللاتين .(٢)

واذا كانت حملة بربروسا قد عمقت الهوة بين الامبراطوريتين الالمانيـــة والبيزنطية ، وأوضحت للسلطات المسئولة فى غرب أوربا أن الدولة البيزنطيـــة أصبحت عقبة رئيسية فى طريق الصليبيين الى الأراضى المقدسة ، فان غزو جزيرة قبرص على يد الصليبيين جاء برهانا على أطماع الصليبيين فى ولايات الامبراطوريـــة البيزنطية ، ورغبتهم فى الاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية ، وكانت هذه هـــى الفكرة المسيطرة على هنرى السادس ، ابن فردريك بربروسا وخليفته على عـــرش الامبراطورية الرومانية المقدسة وملك صقلية عن طريق زواجه من كونستانس ابنة وليم الثانى والوريثة الشرعية لمملكة الصقليتين .

---

(١) Edgar, The Crusades of Frederick Barbarossa and Henri VI, pp.107-108.,
Brand , The Byzantines, pp. 174-75., Vasilier, op. cit., 2, p. 93., Ostrogorsky, op.cit., p.361.
حامد زيان ، المرجع السابق ، ص ٣٣ـ٣٤ ، اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٢٦١ـ٢٦٢ .

(٢) انظر ماسبق ص ٧ .

ففي عام ١١٩٥م بعث هنري السادس سفارة الى القسطنطينية يطلب من اسحق انجيلوس تسليمه الأراضي الممتدة من دورازو — على الشاطئ الشرقي للادرياتيك — حتى سالونيك ، مع دفع التعويضات اللازمة عن الأضرار التي لحقت بحملة والده بربروسا الصليبية أثناء عبوره الأراضي البيزنطية عام ١١٨٩م ، وتقديم الدعم البحري اللازم للحملة الصليبية التي يعتزم هنري السادس القيام بها الى الشام .(١)

غير أن القدر لم يمهل اسحق الثاني انجيلوس للرد على مطالب هنري السادس ، اذ سرعان ماوقع انقلاب في القسطنطينية اطاح باسحق انجيلوس واعتلى العرش اخيه الكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣م) فما كان من هنري الا أن بعث سفارة ثانية الى الكسيوس في عام ١١٩٦م ، أشبه بتلك التي سبق أن أرسلها الى الامبراطور اسحق ، يطلب من الكسيوس طلبين أولهما : الحصول على مبلغ كبير من المال ، لقاء تنازله عن المطالب السابقة التي حددها في سفارته الى اسحق ، وثانيهما : التلميح بالتهديد وامكانية توجيه حملة صليبية ، والتي كانت قد أعدت وقتئذ بشكل كامل — الى القسطنطينية لدعم حقوق اسحق في العرش البيزنطي اذا لم يدفع هذه الأموال .(٢)

اضطر الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث أن يشتري السلام ، وان يدفع لهنري السادس ماأراده من أموال ، بأن فرض على البيزنطيين في سائر الامبراطورية ضريبة عرفت باسم "ضريبة الالمان".(٣) وقد انهك الامبراطور البلاد وحملها فوق طاقتها من أجل جمع هذه الضريبة ، التي لم تتخلص منها الامبراطورية الا بوفاة

(١ Edgar, op. cit., p. 118., Vasiliev, op.cit.2., p.94., Ostrogorsky , op. cit., pp. 365-66.

(٢ Edgar, op. cit., p. 119, Setton, op. cit., 2, p.149.

(٣ Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp.631-32., Vasiliev, op. cit., 2, p. 95.,
Ostrogorsky, op. cit., p. 366., Finlay, op. cit., 3, p. 251.

هنرى السادس فى سبتمبرعام ١١٩٧م ، وبذلك استراحت بيزنطة من كابـــوس ثقيل طالما أرقها ، ولكن الى حين ، فموت هنرى السادس لم ينقذ بيزنطة الـــى الأبد وخاصة بعد أن أصبحت " خطة فتح الامبراطورية البيزنطية عائمة فى الغرب ، بل ان فكرة تنفيذ مشروعات هنرى السادس أصبحت تجد لها صدى فى النفـــوس"(١) ، وبالتالى ظهرت فكرة الحملة الصليبية الرابعة .

اعتلى البابا انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨–١٢١٦م) العرش البابوى فى يناير عام ١١٦٨م ، ووضع هذا البابا لنفسه وللكنيسة وللبابوية برنامجا ضخما ، يتضمن تقوية البابوية ومحو نتائج حروب صلاح الدين فى الشرق واسترداد بيت المقدس مرة أخرى من المسلمين ، وهذا لايتحقق الا بحملة صليبية يكون له – وهو خليفة المسيح على الأرض – الفضل كل الفضل فى توجيهها .(٢)

أبدى البابا أنوسنت الثالث نشاطا كبيرا ومهارة غيرعادية فى الاعداد وفى الدعوة للحملة الصليبية المعروفة باسم " الحملة الصليبية الرابعة " ، وكـــان ساعده فى ذلك جماعة من المتحمسين والدعاة ، لعل من أشهرهم قسيس يدعو فولك نيللى Foulque Neuilli(٣) ، ورفقته المندوب البابوى بطرس مـــن كابوانو Peter Capuano الذى أخذ يعلن باسم البابا أنوسنت الثالـــث الغفران لكل من يشترك فى هذه الحملة .(٤)

---

١) Bréhier, L'Eglise et L'Orient au moyen age. Les croisades, p. 152.

٢) سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٢٩ ؛ فهر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

٣) فولك نيللى هو أحد دعاة الحملة الصليبية الرابعة ، درس اللاهوت فى باريس ، وسرعان ماذاعت شهرته فيها بعد أن تتلمذ على يد المعلم بطرس لى شانتر الذى قربه منه وكلفه بالتبشير بالحملة الصليبية نيابة عنه . انظر : اسحق عبيـــد ، روما وبيزنطة ، ص ٢١٧ .

Villehardouin, La Conquête de Constantinople, pp. 3, 5.

٤) Ibid.

وكانت النتيجة أن لبى النداء عدد كبير من رجال الدين وبين الفرسان والبارونات وعلى رأسهم تيبوت الثالث Thibaut III كونت شمبانيا الذى انتخب فيما بعد قائدا للحملة ، وبلدوين كونت فلاندر وهينوت Baudouin Flandre et Hainaut وأخوه هنرى ، ولويس بلوا Louis Blois والمؤرخ فيلهاردوان Villehardouin ، وبونيفاس مونتفرات Boniface Montferrat وغيرهم كثيرون .(١)

بعد أن اختير تيبوت كونت شمبانيا قائدا للحملة ، كانت الخطوة التالية هى الى اين تتجه تلك الحملة ؟ الحق أن مصر كانت هدفا للحملة الصليبية منذ البداية .(٢) ويروى شهود العيان — روبرت كلارى وفيلهاردوان — ان البارونات عندما سئلوا عن البلد الذى يريدون الذهاب اليه اجابوا : " انهم لا يريدون الذهاب الى بلاد الشام ، لانهم لن يكونوا قادرين اذ ذاك على انجاز شىء ما هناك ، ولكنهم يفكرون فى الذهاب الى بابليون (القاهرة) أو الاسكندرية فيما قبل الأحداث ".(٣)

اتفق على أن تتخذ الحملة الطريق البحرى لمهاجمة مصر وذلك حتى يستطيع الفرسان الوصول الى هدفهم دون مشقة ، ولما كانت الحملة الصليبية الرابعة حملة بحرية فكان من الضرورى توفير السفن التى يتم نقل الصليبيين عليها الى مصر.

---

١) أورد كل من فيلهاردوان وروبرت كلارى قائمة بأسماء المشتركين فى الحملة :
روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ٣٣ـ٣٦ .
Villehardouin, op. cit., pp.5, 7, 9.

٢) عن الأسباب التى من أجلها اختار البارونات مصر وجهة للحملة انظر :
Grousset, Histoire des Croisades , 3; p. 171.
سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ١٣١ ، ارنست باركر ، تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٤م .

٣) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٣٩ .
Villehardouin, op. cit., p. 55.

وهنا فوض قادة الحملة وعلى رأسهم تيبوت كونت شمبانيا ستة من فرسانهم للسفر الى أى من المدن التجارية الايطالية لعقد اتفاق معها لنقل رجال الحملة على أسطولها.(١)

ذهب الرسل الى البندقية لفتح باب المفاوضات مع دوجها هنرى داندولو Enrico Dandolo بشأن استخدام أسطول بلاده فى نقل رجال الحملة الصليبية الرابعة الى مصر ، ووصل الرسل الى البندقية فى فبراير عام ١٢٠١م، وبعد عدة مناقشات ومفاوضات دارت بين الدوج والرسل الستة ـ أورد تفاصيلها فيلهاردوان ـ سجل مارشال شمبانيا وكان أحد هؤلاء الرسل الستة اتفاقية نصت على : أن تقدم البندقية السفن اللازمة لنقل ٤٫٥٠٠ من الفرسان بما يلزمهم من جياد ، ٩٫٠٠٠ من حملة الدروع ٢٠٫٠٠٠ من المشاة ، وان تمدهم البندقية بالمؤن لمدة تسعة أشهر ، وان تلتزم ببنود الاتفاق لمدة سنة كاملة من بدء تاريخ مغادرتهم لميناء البندقية ، وتعهدت البندقية أيضا بتزويد الحملة بخمسين سفينة حربية بحرية مسلحة على حسابها . ومقابل ذلك يدفع الصليبيون ٨٥ ألف مارك من الفضة ، وأن يكون للبندقية نصف ما تفتحه الحملة من أراض سواء فى البر أم فى البحر.(٢)

وافق الصليبيون والبنادقة على هذه الاتفاقية ، وبعدها أرسلت الى روما ليوافق عليها البابا بعد تردد ، وبعد أن اشترط وجود نائب عنه فى الحملة، وان لاتشهر سيفا فى وجه أية فئة مسيحية كاثوليكية كانت أم ارثوذكسية .(٣)

---

١) عن أسماء الرسل الستة أنظر :

Villehardouin, op. cit., pp. 9, 11.

٢) Villehardouin, op. cit., p. 15.

٣) روبرت كلارى ،نفس المصدر ، ص ٤٢ ، اسحق عبيد ، روما وبيزنطه ، ص ٣٢١ .

عاد الرسل الى بلادهم بعد أن انتهت مهمتهم ، وبعد وصولهم تروييس Troyes ـ في شمبانيا ـ بقليل وفي مايو ١٢٠١م توفي الكونت تيبوت قائد الحملة ، فأشار فيلهاردوان على البارونات باختيار بونيفاس مونتفرات قائدا للحملة بعد وفاة تيبوت ، وبذلك تحولت قيادة الحملة من امير فرنسي الى آخر ايطالي[١] .

بدأت جموع الصليبيين تتوافد على البندقية استعدادا للخروج الى الشرق وعندئذ طلب منهم دوج البندقية وأهلها سداد ثمن السفن التي أعدوها لنقلهم ، وعجز الصليبيون عن السداد ، وأصر البنادقة على عدم مغادرة الصليبيين البندقية قبل سدادهم ـ أربعة وثلاثين ألف مارك ـ باقي المبلغ المتفق عليه . واستغل الدوج عجز الصليبيين واقترح عليهم أن يساعدوه في استرداد مدينة زارا Zara[٢] التي انتزعها منهم ملك المجر ، مقابل اعطائهم مهلة يستطيعون خلالها تدبير ما عليهم من مال .[٣] هذا في حين يذكر روبرت كلاري أن الصليبيين سوف يدفعون باقي المبلغ من الغنائم التي سوف يحصلون عليها . أما الهجوم على زارا فقد جاء نتيجة لتحريض دوق البندقية داندولو للصليبيين واغرائهم بثراء المدينة وغناها .[٤]

---

١) Villehardouin , op. cit., pp. 23, 25.
يبدو أن فيلهاردوان رشح بونيفاس لقيادة الحملة لأنه كان من سلالة الأبطال الذين لعبوا دورا كبيرا في الشرق . فوليم والد بونيفاس مات في الشرق وهو بارون فلسطيني ، فضلا عن أن شقيقه كونراد كان ينشط الفكرة الاستيلاء على سوريا ، وهو الذي انقذ صور وأضحى ملكا على الارض المقدسة ووالد وريثتها . انظر :
رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ و
Grousset, op. cit., 3, p. 170.

٢) زارا تقع على ساحل دالماشيا المقابل للادرياتيك ، وكانت من المراكز الحيوية والاقتصادية الهامة بالنسبة للبندقية ، وقد استولت عليها المجر عام ١١٨٦م ، وحاول البنادقة عبثا استعادتها منذ هذا التاريخ . انظر :
عبدالقادر أحمد اليوسف ، الدولة البيزنطية ، ص ١٥٢ .

٣) Villehardouin, op. cit., p. 37., Chronique de Morée, p. 8.

٤) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٤٥ـ٤٦ .

وافق الصليبيون على اقتراح الدوج ورحبوا به ، ووضعوا جيشهم تحت تصرفه وتصرف البنادقة متناسين أن زارا مدينة مسيحية ، وانهم جاءوا الى البندقية للابحار الى مصر ، والعمل على استرداد الأراضي المقدسة ، وتوفير الأمن والطمأنينـــــة للمسيحيين هناك .

اتجه الصليبيون الى زارا ، وضربوا عليها الحصار ، وسمع البابا بذلك فغضب وثار وهدد الصليبيين باصدار قرار الحرمان الكنسي ضدهم ، فلم يعبأ الصليبيون والبنادقة بذلك ، وهاجموا المدينة فاضطر أهلها للتسليم بلا قيد أو شرط .(١)

برزت شخصية جديدة على مسرح حوادث الحملة الصليبية الرابعة في لحظة حصار زارا وهي شخصية الأمير البيزنطي الكسيوس بن اسحق انجيلوس ، الذي التجأ الى صهره فيليب السوابي Philippe de Souabe امبراطور المانيا ، طالبا عونه ومساعدته في استرداد عرش أبيه المغتصب ، فما كان من فيليب الا أن أرسل وفــدا من لدنه الى الصليبيين في زارا ، يدعوهم للابحار الى بيزنطه لمساعدة الكسيوس في استرجاع عرش أبيه . وعرض الوفد لقاء ذلك بأن يتعهد لهم الكسيوس بوضــع الامبراطورية البيزنطية برمتها تحت سيادة كنيسة روما ، وبأن يدفع لهم مبلــغ مائتي ألف مارك من الفضة ، وبأن يمد قوات الحملة بالمؤن اللازمة لمدة عــام ، وأن يرافق الصليبيين الى بابليون (القاهرة) بنفسه ومعه عشرة آلاف جندي ، بل ويجهز فرقة مكونة من خمسمائة فارس للعمل كحرس دائم في الأراضي المقدسة .(٢)

---

١) لمزيد من التفاصيل عن حصار زارا وموقف أهلها من ذلك انظر:
روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٤٨ .

Ville-hardouin, op. cit., pp. 43, 45, 47.
Chronique de Morée , pp. 9-10., Queller and Others, " The Fourth crusade: The neglected Majority" in Speculum (1974) , pp. 450 -54.

٢) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٦٧ .

Villehardouin, op. cit., p. 53.

انقسم الصليبيون ازاء هذا العرض فريقين أحدهما يؤيده ويقبله ، والآخر يعارضه ويرفضه ، اذ وجد الفريق الأول انه من العار عليهم أن يرفضوا فكرة الذهاب الى القسطنطينية لأنه لاقاعدة يرجى تحقيقها من وراء الذهاب الى مصر ، فليس لديهم من الذخيرة أو المال ما يمكنهم من الذهاب اليها . أما الفريق الثانى فقد أعرب عن رغبته فى الذهاب الى مصر وعدم الاتجاه نحو القسطنطينية لأنه لا يجوز أن يغمسوا أيديهم مرة أخرى فى دم اخوانهم المسيحيين .(١)

تحمس دوج البندقية داندولو تحمسا منقطع النظير لقضية الأمير البيزنطى ، وأوصى بها خيرا وتحت ضغط والحاح البنادقة وبونيفاس مونتفرات قائد الحملة ـ الذى قبل العرض ـ قرر البارونات الموافقة على العرض وقبوله . وربما صادف هذا العرض أيضا هوى فى نفس البابا انوسنت الثالث ، ولاسيما أنه كان يسعى على خضوع كنيسة القسطنطينية وامبراطوريتها لكنيسة روما . وهذا ما تمناه البابا وعمل من أجله .(٢) كانت هذه الموافقة الاجماعية من البنادقة والصليبيين وربما من البابا نفسه أكبر دليل على انحراف الحملة الصليبية الرابعة وتحولها صوب القسطنطينية من ناحية ، وتحقيقا لجزء من مشاريع فيليب السوابى من ناحية أخرى .(٣)

---

١) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٦٧ـ٦٨ ،
Villehardouin, op. cit., p. 55.

جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ج ٣ ص ٢٢٣ .
٢) سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ١٣٣ و
Thiriet, La romanie Ventienne au moyen age, pp. 65, 70., Cam . Med. Hist, Vol. 4, p.418.
٣) Riant, " Innocent III, Philippe de Souabe, Boniface de Montferrat " dans Revue des Questions Historiques, Vol. 18 (1875) p. 24.

لم يكن عرض الكسيوس هو الدافع الوحيد وان كان السبب المباشر في تحويـــل الحـملة عن مسارها الأول ، فقد انقسم المؤرخون حول مسألة تحول الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها الأولى ـ فريقين أحدهما : يرى تحول الحملة على انـــه نتيجة لظروف عرضية طارئة ، ويعرف هؤلاء بأتباع نظرية العمل الطارئ، واعتقد هذا الفريق في صحة ماقاله فيلهاردوان ـ شاهد عيان الحملة الصليبية الرابعة ـ والذى عرض الحوادث وكأنها وقعت بطريق الصدفة وحدها ، ولم يشر اطلاقـــا الى أى خطة مرسومة أو متعمدة من جانب البنادقة أو الصليبيين أو البابوية . (١)

أما الفريق الثانى فيرى عكس مايراه الفريق الأول من أن تحول الحملة قد تـــم وفقا لخطة مرتبة وموضوعة منذ البداية ، ويعرف هؤلاء بأتباع الخطة الموضوعة . (٢) غير اننا لانستطيع أن نحكم على مدى صحة كلام فيلهاردوان أو غيره الا بعد مناقشـة دوافع المشتركين فى الحملة والأهداف التى كان يصبوا اليها كل منهم .

أما بالنسبة للبندقية فقد اتهم العالم الفرنسى ماس لاترى Mas Latrie البندقية التى كانت لها مصالح تجارية فى مصر ـ بأنها وقعت اتفاقية مع سلطان مصر وعلى اثر هذه الاتفاقية ضغطت على الصليبيين لتغيير وجهة الحملة ، وتوجيهـــا نحو القسطنطينية . (٣) أما عن تفاصيل هذه الاتفاقية فقد أوردها " تاريخ هرقـــل "

(١ Vasiliev, op. cit., 2, p. 104, Faral, " Geoffroy de Villehardouim . La Question de sa sincérite" dans Revue Historique , Vol. 177 (1936) pp. 530-31.

(٢ Grégoire, " The Question of diversion of the fourth Crusade". in Byzantion, Vol. 15(1904-41)p. 158., Vasiliev, op. cit., 2, p. 104., Frolow, " La déviation de de la 4 me Croisade vers Constantinople"., dans Revue de l' histoire des religions (1945) pp. 168-73.

(٣ Mas Latrie, Histoire de L'Ile de Chypre, Vol. I, . . pp. 162-63., Vasiliev , op. cit., 2, p. 105.

الذى يذكر أن الملك العادل — سلطان مصر — عندما علم بأن الصليبيين أعدوا حملة صليبية للاتجاه نحو الشرق ، أرسل رسله الى دوق البندقية داندولو يطلب منه تحويل أنظار هذه الحملة عن مصر . وماكان من الدوق الا أن أرسل رسله الى مصر فى ١٣ مايو عام ١٢٠٢ م ، وعقدوا اتفاقا مع سلطانها ، تعهدوا فيه بعدم تقديم المساعدة والعون لأى مشروع صليبى ضد مصر . وفى مقابل ذلك منحهم الملك العادل امتيازات تجارية واسعة .(١)

على أن تاريخ هرقل ليس مصدرا موثوقا فيه لأن المؤرخين المعاصرين للحملة الرابعة لم يذكروا شيئا عن هذا الاتفاق . غير أنه من الثابت أن السلطان العادل أضفى على البنادقة امتيازات تجارية جديدة فى مصر عام ١٢٠٢ م ، وخفف عنهم الضرائب وسمح لهم باقامة فندق آخر بالاسكندرية .(٢) ومن ثم لم يكن من صالح البنادقة بأى حال التضحية بمصالحهم التجارية فى مصر ، واثارة القطيعة مع السلطان العادل فى سبيل ارضاء الصليبيين ، لهذا عزموا على ابعاد الحرب عن مصر ، وتحويلها ضد عدو آخر من العالم المسيحى ولو يكن مدينة القسطنطينية .

ولكن اذا كان ماس لاترى قد اتهم البنادقة بتحويل الحملة دفاعا عن مصالحهم التجارية فى مصر ، فان مؤرخا آخر وهو هانوتو Hanotaux يذكر أن دافع البنادقة من وراء هذا التحول انما هو تحقيق مصالحهم التجارية فى الامبراطورية البيزنطية . ومن ثم فان دراسة علاقة البندقية التجارية بالامبراطورية البيزنطية قد توضح دوافعها لتحويل الحملة .(٣)

---

(١) Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occident-aux, 2, pp. 251-52, Grousset, op. cit., 3, p. 172.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص٩ـ١٠ عفاف صبرى ، علاقة البندقية بمصر والشام ، دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٦ـ٣٧ .

(٣) Hanotaux, "Les Venitians ont -ils trahi la chretienté en 1202" dans Revue histori-ques (1887) pp. 74-102, Riant, " Le changement de direction de la IV Croisade"., dans Revue des Questions Histori-ques (1878) pp. 89-94.

منحت الامبراطورية البيزنطية جمهورية البندقية امتيازات تجارية عديدة منـذ عهد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١ـ١١١٨م)، ووافق على هذه الامتيازات بل وزاد عليها خليفتاه حنا ومانويل كومنين[1] ولكن سرعان مانظرت بيزنطة الى البندقية بعين الحقد لنمو تجارتها نموا سريعا ومربحا، وتبلور هذا الحقد فيما وقع بين عامى ١١٧١م و١١٨٢م من اعتقالات ومذابح وقع ضحيتها عدد كبير من البنادقـة المقيمين فى القسطنطينية. ومن ثم أمسى مركز البندقية فى القسطنطينية فى نهاية القرن الثانى عشر حرجا مهددا بالزوال.[2]

وقبيل قيام الحملة الصليبية الرابعة ساءت العلاقات بين البندقية والامبراطورية البيزنطية، اذ أن حكومة الامبراطورية فى عهد الكسيوس الثالث ـ تجاهلت الحقـوق التى منحت للبنادقة بموجب المعاهدات المعقودة بين بيزنطة والبندقية، هـذا فى حين كانت هذه الحكومة توسع الامتيازات الممنوحة لكل من جمهوريتى بيزا وجنوه بقصد كسر شوكة البنادقة. ولهذا نظر البنادقة الذين اعتادوا منذ وقت طويـل أن تكون لهم اليد العليا فى أسواق الامبراطورية بعين ملؤها الحقد والغيرة للامتيازات المتزايدة التى يحصل عليها منافسوهم الجنوية والبيازنة، وتطلعوا الى "فتـح القسطنطينية وتأسيس امبراطورية البندقية على أنقاضها".[3]

---

١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الامتيازات انظر: عادل زيتون، المرجع السابق ٣٩٥ـ٤٠٣.

٢) لمزيد من التفاصيل عن حوادث عامى ١١٧١، ١١٨٢ انظر: عادل زيتـون، نفس المرجع، ص ٢٥٩ـ٢٦٥، ٤٢٨ـ٤٢٩، شارل ديل، البندقيـة، ص ٣٧.

Brown, " The venetians and the venetian quarter " in the Journal of Hellenic studies, Vol. XL (1920), pp. 85-86.

٣) ديل، المرجع السابق، ص ٣٨.

Cam. Med. Hist., Vol. 4, p. 416., Ostrogorsky, op. cit., p. 367.

وعلى هذا تكون مصلحة البندقية في تحويل الحملة الصليبية الرابعة قد وجهت للاعتبارات السابقة مثلة في رغبة البندقية في الحفاظ على مصالحها التجارية مع سلطان مصر من ناحية ، واستعادة مركزها وامتيازاتها في العاصمة البيزنطية — تلك الامتيازات التي حرمها منها الامبراطور الكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣ م) من ناحية أخرى بالاضافة الى رغبتها في تأمين تجارتها الخاصة مدفوعة بعامل الغيرة من نشاط المدن التجارية الايطالية المنافسة لها في الشرق .

أما عن فيليب السوابي ودوافعه لتحويل الحملة ، فقد ألقى المؤرخ الفرنسي الكونت ريان Riant مسئولية تحول الحملة الصليبية الرابعة ليس على عاتق دوق البندقية داندولو بل على عاتق الامبراطور الالماني فيليب السوابي ، اذ يرى أن تحول الحملة ماهو الا مظهر من مظاهر الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، وربما أمل فيليب في أن نجاح الحملة سوف يمكنه من الانتصار على البابا من ناحية ، وعلى منافسه على العرش الالماني أوتو الثاني برونزويك Otton II Brunswick من ناحية أخرى . (١)

ويساير الأستاذ بريه Bréhier الكونت ريان في رأيه هذا ، اذ يرى أن فيليب السوابي هو صاحب الفكرة الحديثة لمشروع الهجوم على الامبراطورية البيزنطية رغبة منه في اتمام خطط أخيه هنري السادس . (٢)

فكان فيليب من سلالة الهوهنشتاوفن تلك الأسرة الالمانية ذات الاطماع

---

(١) Riant, " Innocent III, Philippe de Souape " dans revue des Questions Historiques. , T. 17, pp.332-74, T.18, pp. 5-24., Riant, Le changement, pp. 106-108., Vasiliev op. cit., 2, p. 106.,

اسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص ١١—١٣ .

(٢) Brehier, vie et Mort. I, p. 365.

الواضحة تجاه القسطنطينية والتي تمثلت في محاولات كل من فردريك بربروسا وهنري السادس الهجوم على الدولة البيزنطية .(١) وما لبث أن قام فيليب السوابي محاولا تحقيق حلم أسرته في الشرق ، وواتته الفرصة حينما جاءه الأمير البيزنطي الكسيوس ابن اسحق طالبا العون والمساعدة في استرداد عرش أبيه المغتصب وكان من الطبيعي أن ينهض فيليب لمساعدة الكسيوس فهو شقيق زوجته ، فضلا عن أنه يعتبر نفسه وزوجته ورثة للامبراطورية البيزنطية بناء على اعتراف حميه اسحق الثاني انجيلوس بذلك عام ١١٦٩م .(٢)

سعى فيليب الى تقديم المساعدة لشقيق زوجته ، وانتهز فرصة وجود المركيز بونيفاس مونتفرات ـ قائد الحملة الصليبية الرابعة ـ في بلاط ألمانيا ، وتحدث معه عن أوضاع الدولة البيزنطية وامكانية استخدام الجيش الصليبي لمساعدة الأمير البيزنطي الكسيوس ، وبذلك يمكنه أن يحقق أحلام أسرته في الشرق ، ومساعدة شقيق زوجته والمحافظة على حقوقه كوريث للامبراطورية البيزنطية .(٣)

أما عن المركيز بونيفاس مونتفرات قائد الحملة الرابعة ، فقد حاول بعض الباحثين أن يثبت أن بونيفاس مونتفرات هو المسئول عن تحول الحملة الى القسطنطينية ، وذلك بالتعاون مع ابن عمه فيليب السوابي ، وانه كان منذ البداية يخطط للذهاب الى القسطنطينية .(٤)

واعتمد هؤلاء الباحثون على ما يرويه المؤرخ المعاصر روبرت كلارى ، الذي

---

١) لمزيد من التفاصيل عن تلك المحاولات انظر ما سبق ص ص١٢ .

٢) Faral, Greffroy Villehardouin , p. 555.

٣) Queller and Others, The Fourth crusade, pp. 444-45., Cam. Med. Hist, 4, p. 416, Bréhier, op. cit., I, p.365.

٤) Grégoire. H, The question, p. 158., Dufournet, Les écrivaines de IV Croisade Vol. I, p.98.

أبرزبوضوح دوربونيفاس في تحول الحملة ، فيذكر روبرت كلاري أن دوج البندقية داندولو عرض على الصليبيين فكرة الاتجاه نحو القسطنطينية ، نظرا لثرائهـا وغناها وامكانية الحصول منها على مايحتاجون اليه من الأموال والذخيرة ، وأخذ الدوج يفكر في ايجاد سبب أو حجة للذهاب الى القسطنطينية . وهنا ظهر دوربونيفاس في تحويل الحملة ، اذ أخبر الصليبيين انه قابل في بلاط الامبراطور الالمانـي فيليب السوابي الأمير البيزنطي الكسيوس صاحب الحق الشرعي في العرش البيزنطي ، وانهم اذا تمكنوا من الاستحواذ على هذا الأمير واستمالته ، يجدوا المبرر والحجـة للانطلاق نحو القسطنطينية .(١)

ويعلل روبرت كلارى حماس بونيفاس مونتفرات للذهاب الى القسطنطينيـة الى انه " كان يريد الانتقام لنفسه لاهانة كان قد الحقها به البطريرك اذ ذاك على عرش القسطنطينية ".(٢)

كذلك يجب ألا ننسى العلاقات القديمة التى كانت تربط آل مونتفرات ببيزنطة كذلك المصالح السياسية التى كانت لهذه العائلة في الامبراطورية البيزنطية وفـي الشرق عموما .(٣) هذا فضلا عن ارتباط بونيفاس مونتفرات بالأباطرة الالمـان فقد كان آل مونتفرات حلفاء طبيعيين لهم وذلك بسبب صراعاتهم المستمرة مـع المقاطعات المستقلة في لمبارديا .(٤)

---

١) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٥٠ـ٥١ .
٢) روبرت كلارى ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .
٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه العلاقات انظر :

Bréhier, " Boniface de Montferrat" dans dict. d'Hist et de Geographie ecclesiastiques, IX, p. 958, Halphen, Le rôle, p. 144., Dufournet, op. cit., I, pp. 96-97., Frolow, la déviation, pp. 173-74., Grégoire, The question, p. 166.

٤) Bréhier, Boniface, p. 958., Frolow , La déviation, p. 174, note. 5, Dufournet, op. cit., I, p.97.

أما عن دور البابوية ، فيظهر من خلال نقطتين هامتين وهما عجز البابا عن حسم مسألة زارا ، وموقف البابوية من عرش الكسيوس بن اسحق . فعندما علم البابا باستيلاء الصليبيين والبنادقة على مدينة زارا عام ١٢٠٢م ثار ، واسفرت ثورته عن اصداره قرار الحرمان ضد الصليبيين والبنادقة على السواء ، ولكنه مالبث ان الغى قرار الحرمان استجابة لتوسلات الصليبيين والحاحهم ، وأصدر قراره بالعفو عنهم دون البنادقة .(١) ولاريب أن اصدار البابا لقرار العفو عن الصليبيين كان يحمل بين طياته تشجيع الصليبيين على المضى فى طريقهم ، والهجوم على أى بلد مسيحى آخر حتى ولو كان القسطنطينية ذاتها .

وبالنسبة لموقف البابوية ومندوبيها من عرش الكسيوس بن اسحق ، فهذه النقطة موضوع خلاف بين المؤرخين ، فيذكر فيلهاردوان أن البابا عندما سمع بنية الصليبيين والبنادقة فى توجيه الحملة نحو القسطنطينية ندد — على لسان مندوبه — بهذا المشروع . هذا فى حين أن روبرت كلارى يخبرنا بأن الأساقفة المرافقين للحملة افتوا بشرعية الذهاب الى القسطنطينية لاعادة حقوق الكسيوس بن اسحق فى العرش البيزنطى .(٢)

وهناك رواية أخرى يطالعنا بها المؤلف المجهول لتاريخ المورة Chronique de Morée ، وهى ان الامبراطور فيليب السوابى كتب للبابا انوسنت الثالث يخبره بأمر الأمير البيزنطى الكسيوس ، وما آل اليه مصيره ، ويرجوه مساعدته ويذكر أن البابا رد عليه بالموافقة على ذلك ، وانه قد كتب للصليبيين يطلب منهم التوجه الى القسطنطينية لاعادة الأمير البيزنطى ، ووعدا اياهم أن كل من يموت فى هذه الحملة يعتبر شهيدا ، وتغفر له ذنوبه وخطاياه .(٣)

---

١) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٤٦—٥٠ ،
Villehardouin, op. cit., pp. 59, 61.

٢) روبرت كلارى ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

٣) Villehardouin , p.55.
Chronique de Morée, Publiée par Fation, p.10.

ويتعارض مع هذه الرواية خطاب أرسله البابا أنوسنت الثالث الى الصليبيين في زارا ، وقد احتوى هذا الخطاب على أمر رسمي من البابا بألا يهاجم الصليبيون البيزنطيين ، الا في حالة واحدة فقط وهي رفضهم امداد الحملة بالمؤن والزاد .(١) وسواء قبلت البابوية عرض الكسيوس أو لم تقبله فان البابا كان يأمل أن يخضع الكنيسة الشرقية لسيادة كنيسة روما ، وهذا ما تضمنه عرض الكسيوس ومن ثم فمن الطبيعي أن يجد هذا العرض قبولا لديه .(٢)

يتضح من العرض السابق لدوافع المشتركين في الحملة الصليبية الرابعة ، أن تحول الحملة الى زارا أولا ثم الى القسطنطينية ، ربما لم يكن بطريق الصدفة وحدها أو لظروف عرضية طارئة ، وربما كان وفقا لخطة مرسومة أطرافها البندقية وفيليب السوابي وبونيفاس مونتفرات والبابا ذاته . ولعل ما ساعد على تنفيذ هذه الخطة وجعلها ميسورة سهولة أحوال بيزنطة وما آلت اليه من ضعف وتمزق في شتى المجالات ، تلك الأحوال التي دعت الأمير البيزنطي الكسيوس بن اسحق يأتي الى الغرب طالبا العون والمساعدة لاسترداد عرش أبيه ، ودعته أيضا للمساهمة في تحويل الحملة الصليبية الرابعة نحو بلاده .

أبحرت الحملة الصليبية الرابعة وفي صحبتها الأمير البيزنطي الكسيوس من زارا الى القسطنطينية ، وحين وصلت العاصمة البيزنطية في ٢٤ يونيه ١٢٠٣م ، ضربت عليها الحصار ، وعجز الامبراطور الكسيوس الثالث — المتربع على عرش

---

١) اسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

٢) عن مبررات البابا ورجال الدين لغزو القسطنطينية أنظر : اسحق عبيد ، روما وبيزنطه ، ص ٢٢٦ — ٢٤٠ .

Ishak Ebeid, " Was pope Innocent III an accom - plice in the diversion of the fourth crusade " in Egyptian Historical review, Vol. , 15 (1969) , pp. 12-13.

بيزنطة آنذاك ـ من التصدى لهجمات الصليبيين فقرر الهرب من المدينـــة • وعندما علم أهالى القسطنطينية بفراره ، أسرعوا الى الامبراطور اسحق الثانى وأخرجوه من سجنه الذى وضعه فيه أخيه الكسيوس الثالث ، واجلسوه على عرش القسطنطينية • وبمجرد عودة اسحق الى عرشه ، أرسل الى جيش الصليبيين يخبرهم بذلــــك، وتعهد لهم بتنفيذ البنود التى جاءت فى عرض الكسيوس ـ السالف الذكر ـ وعندئذ سمحوا للأمير الكسيوس بدخول عاصمته ، وفى أغسطس عام ١٢٠٣م ، توج الكسيوس الرابع شريكا فى الحكم مع والده اسحق الثانى انجيلوس فى كنيسة القديسة صوفيا •(١)

ولكى يفى الكسيوس الرابع وأبيه بعهودهما للصليبيين اثقلوا الوطأة على أهالى القسطنطينية وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها ، وأخذوا أموال الكنائس وما فيهـــا من ذهب وفضة ، ونهبوا ذلك حتى ولو كانت على الصلبان أو الاناجيل •(٢)

ساء أهالى القسطنطينية ماقام به الكسيوس الرابع من فرض أعباء مالية جديدة عليهم من أجل أن يفى بعهوده للاتين ، لهذا قاموا بالانقلاب فى يناير ١٢٠٤م تزعمه أحدهم ويدعى مورزفلوس(٣) Mourzouphlos ، الذى تمكن من التخلص من الكسيوس الرابع ، هذا فى حين مات والده الامبراطور اسحق حزنا وكمدا عليه(٤) وبعـــد

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر:

Nicetas, op. cit., in C.S.H.B, pp. 716-25., Villehardouin, op. cit., pp. 63- 115., A cropolitae, Annales, in C.S.H.B., pp.6-8.

روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ٦٦ـ٩١ ، ابن الاثير ، الكامل فى التاريـــخ ، ج ١٢ ، ص ٨٨ •

٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٨ ، زينى دحلان ، الفتوحات الاسلاميـــة ، ج ١ ، ص ٤١٦ـ٤١٧ •

٣) هو لقب مأخوذ من الحواجب البارزة الثقيلة التى كانت من أهم معالم وجـــه مورزفلوس ومعناه الاقرن • انظر : أومان ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ •

٤) عن الطريقة التى تم بها التخلص من الكسيوس الرابع انظر :

روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٠١ •

Villehardouin, op. cit., p. 129.

الشاطئ من آل انجيلوس تودى بوروزيفلوس امبراطورا ، وتوج فى كنيسة القديسة صوفيا ، وعرف باسم الكسيوس الخامس ، وهكذا اعتلى الكسيوس الخامس المرتزوفلوس العرش واللاتين على الأبواب ، فكان عليه مواجهتهم فى ظروف قاسية اذ كانت الامبراطورية بلا جيش ولا أسطول .

أبلغ الكسيوس الخامس على الفور رسالة الى بارونات الحملة ، يأمرهم فيها بالرحيل عن بلاده ، ويتوعدهم بأنه سوف يفتك بهم جميعا ان لم يرحلوا فى مدى أسبوع من يومهم هذا ، غير أن الصليبيين ردوا عليه فى تحد اذ أبلغوه انهم لن يرفعوا الحصار عن المدينة حتى يثأروا لالكسيوس الرابع وينالوا ماوعدهم به من وعود سخية .(١)

عندئذ أصدر الكسيوس الخامس قرارا بطرد جميع اللاتين المقيمين في القسطنطينية بحجة منعهم من التآمر مع الصليبيين المعسكرين أسفل الأسوار.(٢) وان كان من المستحيل أن يكون قد طرد سائر اللاتين بل لعله طرد بعضهم ، اذ أن اللاتين لم يتركوا القسطنطينية أبدا بطريقة جماعية فقد ظل هناك دائما بعض البنادقة قاموا بدور فى الأوقات الحرجة .(٣)

عقد الصليبيون والبنادقة – فى مارس عام ١٢٠٤م – اجتماعا حضره من الجانب الأول بونيفاس مونتفرات وبلدوين فلاندر ولويس كونت بلوا وهنرى سانت بول ، ومن الجانب الثانى حضره الدوج داندولو.(٤) وكان الغرض الأول من هذا الاجتماع ، اعداد العدة للاستيلاء على القسطنطينية وتوزيع غنائمها وأسلابها

---

١) روبرت كلارى ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .
٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 8-9.
٣) Heyd, Histoire du Commerce, I, p. 268.
٤) Michaud, Histoire des Croisades, 3, p. 595.

فيما بينهم ، وبين أبناء جنسهم إسس قيام امبراطورية لاتينية جديدة تحل محل الامبراطورية البيزنطية وتم الاتفاق في هذا الاجتماع على أنه في حالة سقوط العاصمة البيزنطية تقسم الغنائم بالتساوي بين الفرنسيين والبنادقة ، وأن يعهد باختيار امبراطور جديد الى اثنى عشر ناخبا ، ستة من الفرنسيين ومثلهم من البنادقة ، ويقسم هؤلاء على أن يعينوا شخصا من قادة الجيش ، يرون انه أكفأ القوم في العمل على " اعلاء كلمة الله وشرف كنيسة روما " .(١) ويختار البطريرك من الفريق الذي لم يختار منه الامبراطور ، وسوف يكون له الحق في الحصول على كنيسة القديسة صوفيا ، ويعين اثنا عشر وكيلا من الصليبيين والبنادقة يشكلون لجنة مختلطة لتوزيع المناصب الشرفية والاقطاعات وتحديد الخدمات التي سوف يؤديها الحائزون على الاقطاعات للامبراطور ، مع اعفاء دوق البندقية من تقديم الولاء والطاعة للامبراطور عن أي أرض يحوزها ، كذلك لا يجوز السماح لأي مواطن بالدخول الى الامبراطورية الجديدة اذ كانت حكومته في حالة حرب مع البندقية ، ولاشك أن هذا البند كان موجها أساسا ضد الجنوية والبيازنة منافسي البندقية .(٢)

وجاء في الاتفاق أيضا انه على الفريقين أي الصليبيين والبنادقة أن يبذلوا أقصى جهدهم لاقناع البابا بأن يصدق على هذا الاتفاق ، وأن يصدر قرار الحرمان على كل من سيرفض تنفيذ بنوده ، وانه في حالة ادخال أي تعديل على الاتفاق السابق ، فهذا ممكن — بلا قيد ولا شرط — بتفويض الدوق داندولو والمركيز بونيفاس مونتفرات مع مجموعة من المستشارين لعمل التغيير اللازم أو المطلوب .(٣)

---

١) روبرت كلاري ، نفس المصدر ، ص ١٠٩ ؛
Villehardouin; op., cit., p. 137.

٢) Villehardouin, op. cit., p. 137., Michaud, op. cit., 3, pp. 597-98., Setton, op. cit., 2, pp. 181-82., Hazlitt, The Venetian Republic, I, p. 297., Finlay, op. cit., 3, p. 266.

٣) Villehardouin, op. cit., p. 137., Michaud, op. cit., 3, p.598., Setton, op. cit., 2, p. 183.

تلك كانت البنود الرئيسية للاتفاق المبرم بين داندولو والبارونات الصليبيين في معسكر جالاتا في مارس ١٢٠٤م . وقد حددت تلك البنود صورة اقامة امبراطورية لاتينية على أنقاض القسطنطينية ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الاتفاق من الأهمية بمكان نظرا لأن بنوده تشكل الأسس التي ستقوم عليها الامبراطورية الجديدة .

وبعد الاتفاق السابق تقرر الهجوم على العاصمة من الميناء ، فرتب الصليبيون سفنهم في مجموعات حملوها فوق ماتحتمل من آلات حربية ومعدات وجنود ، وكان الامبراطور الكسيوس الخامس يتوقع ذلك فاستعد هو ورجاله لاستقبال الأسطول اللاتيني من أبراجهم وأسوارهم . وبدأ الهجوم من جانب اللاتين في صباح الجمعة الموافق التاسع من ابريل ١٢٠٤م ، ولكنه كان هجوما فاشلا ، اذ لم يستطع اللاتين الوصول الى الأسوار والأبراج لشدة ارتفاعها ، ومن ثم لم يتمكنوا من الحاق شيء ما بها أو بالمدينة في ذلك اليوم ، وانسحبوا في النهاية بعد أن لحقت بهم خسائر فادحة . وبهذا فشل الهجوم الأول على القسطنطينية من جانب اللاتين .(١) ونتيجة لهذا الفشل فكر بعض الصليبيين في العودة ، وظنوا أن هزيمتهم هذه كانت جزاء وفاقا لتحويل أسلحتهم وحرابهم ضد مدينة مسيحية وأرادوا أن يبحروا الى الأرض المقدسة .(٢) .

---

١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الهجوم انظر : روبرت كلارى ، نفس المصدر ص ١١١-١١٢ .

Villehardouin, op. cit., pp. 139-141.

وانظر أيضا خطاب بلدوين فلاندر للبابا الذي نشره

Dufournet, op. cit , 2 pp. 434-45.

٢) أومان ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .

Queller and others, The fourth crusade, p. 461.

واذا كان الهجوم الأول الذى شنه اللاتين على القسطنطينية قد انتهى بالفشل ، فان الهجوم الثانى الذى بدأ يوم الاثنين الموافق ١٢ أبريل ـ أى بعد الهجوم الأول بأربعة أيام ـ قد أصابه كثيرا من النجاح . وفى هذا الهجوم ربط الصليبيون سفنهم بالحبال أزواج أزواج لضمان رسوخها وثباتها ، وقامت السفينتان الصليبيتان وتسمى أحدهما (الحاج Pelerine) والأخرى (الفردوس Parvis) بهجوم مركز على أحد أبراج المدينة ، وتمكن البنادقة من دخول هذا البرج مع أحد الفرسان الفرنجة ويدعى أندريه أوربويس André d'Urboise ، وتبعهم كثير من الصليبيين الذين انقضوا على الحامية التى كانت تقوم بمهمة الدفاع عن سور المدينة.(١) ثم شرعوا فى الهجوم العنيف وقذف الأحجار ورمى الأسوار بالنار الاغريقية التى لم تستطع الفهوت عليها ، بل أخذت فى التدحرج بفضل الجلد المدبوغ الذى كانت الأسوار مغطاة به.(٢)

لعب سكان القسطنطينية من اللاتين دورا كبيرا فى هذا الهجوم ، وكان عددهم حوالى ثلاثين ألفا " ولمعظم البلاد لايظهر أمرهم " ، وانتهز هؤلاء فرصة انشغال البيزنطيين بقتال أصحابهم ، وأضرموا النار فى المدينة ، فأحرقوا نحو ربعها ، وانشغل البيزنطيون بهذا الحريق ، فتقدم اللاتين وسيطروا على الزاوية الشمالية الشرقية من القسطنطينية وهى ناحية قصر بلاشران . (٣)

ويشهد المؤرخون اللاتين من شهود العيان ومن بينهم روبرت كلارى أن أهل المدينة من البيزنطيين دافعوا عن أنفسهم وعنها دفاعا مجيدا ، وان الكسيوس الخامس كان من ورائهم يبث فيهم الحماس ويشجعهم على ذلك.(٤) وتشير

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 141, 43., Dufournet, op. cit., 2, p. 435.

(٢) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١١٣ـ١١٤ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٩ ،
Villehardouin, op. cit., p. 145.
ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢١٠ ، زينى دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

(٤) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١١٤ .

المصادر العربية دون غيرها من المصادر اللاتينية الى أن البيزنطيين حاولوا الاستنجاد وطلب المساعدة من سلطان قونية ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان ، غير أن سلطان قونية لم يلب النداء .(١)

لم يستطع الكسيوس الخامس الصمود بعد ذلك ، ولم يطق المدافعون عن الاسوار والابراج البقاء بعد أن شاهدوا الفرنسيين يستولون على جزء من المدينة ، ولم يجدوا سبيلا سوى الفرار ما وسعهم الجهد ، ولم يجد الامبراطور البيزنطي الكسيوس الخامس بدوره من سبيل سوى الهرب ، بعد أن سقط " كقطعة من الحلوى في فم اللاتين ".(٢) وما ان أوشك الليل على الانتصاف حتى " فر الملك هاربا "(٣) عن طريق ميناء دورازو على الساحل الشرقي للادرياتيك ، حاملا معه كل ما هو نفيس وغال في قصر بوكليون (فم الاسد) واصطحب معه افروسين Euphrosyne زوجة الكسيوس الثالث وابنته أيودوسيا Eudocia .(٤)

دخل اللاتين القسطنطينية في ١٢ ابريل ١٢٠٤م ، تلك المدينة التي ظلت صامدة قوية أمام العرب والآفار والبلغار ، ومن ثم يعتبر المؤرخون دخول اللاتين القسطنطينية الحدث الأول من نوعه في تاريخها منذ تأسيسها على يد قسطنطين العظيم عام ٣٣٠م .(٥)

---

١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢١٠ ، زيني دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

٢) Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p. 755., Vasiliev, op. cit., 2, p. 101.

٣) ابن الملطي ، الجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ١٢٣ .

٤) روبرت كلاري ، نفس المصدر ، ص ١٢٠ـ١٢١ ، Villehardouin, op. cit., p. 145.

٥) نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣١ ، Ostrogorsky, op. cit., p. 370.

ونظرا لأهمية سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م على أيدى اللاتين، وما كان لهذا السقوط من نتائج خطيرة فقد تحدثت عنه المصادر العربية، من ذلك ما يذكره ابن الأثير في حوادث سنة ستمائة بقوله: "ولم تزل مدينة قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان حتى سنة ستمائة، وفي هذه السنة خرجت الفرنج من بلادهم إليها في جموع عظيمة وأناخوا عليها فملكوها وأزالوا أيدى الروم عنها".(١)

وفي صباح ١٣ أبريل عام ١٢٠٤م، خضع لبونيفاس مونتفرات — القائد العام للصليبيين — بقية الجنود البيزنطيين، بل ورجال الدين، وجمهور العامة في الشوارع وحيوا المركيز بونيفاس على أنه امبراطورهم الجديد بالكلمات التالية: "Hagios Vasiliess marchiō".(٢)

وبعد أن انتصر اللاتين في العاصمة البيزنطية، شرعوا في نهب المدينة فلم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها، ولم يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا أفسدوه، حتى شبع منهم من كان جائعا، واغتنى من كان فقيرا.(٣) ويشهد فيلهاردوان على ذلك بقوله: "قطن كل صليبي المسكن الذى يرضى هواه ويشبع نزوته، وتبدل حالهم فبعد أن كانوا في فقر مدقع قبل اليوم، وجدوا أنفسهم فجأة يمتلكون ثروة ويعيشون في رغد".(٤)

---

١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٨٨، وانظر أيضا: أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١١٠–١١١، ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٦٠، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م ٥، ج ١، ص ١٢، المقريزي، السلوك، م ١، ق ١، ص ١٦٤، الذهبي، دول الإسلام، ج ٢، ص ٨٠، العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٢، ص ٥٠.

٢) Cam. Med. Hist, Vol. 4, Part.I, (1966), p. 286.

٣) سعيد عاشور، الحركة، ج ٢، ص ٩٢٥، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٤٥٦–٤٥٧.

٤) Villehardouin, op. cit., p. 147.

أدرك البنادقة قيمة ثروات القسطنطينية ، فالكنوز التى استولوا عليها نقلوها الى مدينتهم فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور . ومن الغريب مايرويه أبو شامة[1] من أن البنادقة باعوا للمسلمين فى مصر والشام بعض المنهوبات التى استولوا عليها من القسطنطينية ، ولاسيما الرخام فاستخدمه بعض الأفراد فى تعمير دورهم . ومن الغريب كذلك مايرويه ابن ايبك الدوادارى من أن البنادقة وصلوا الى الاسكندرية بأموال القسطنطينية وجواهرها ، وماكان فى كنيستها من "عجائب المصاغات وغرائب الصناعات — وأبيع عليهم ".(٢)

واذا كان هذا مسلك البنادقة فان الفرنسيين تسلطت عليهم شهوة التدمير والتخريب فاندفعوا كالرعاع المسعورة فى الشوارع يقتحمون الدور ، وينتزعون كل مايخلو ويلمع بها ، ويتحرشون فى أهلها كما يشاءون ، يقتلون الأطفال ، ويغتصبون النساء ، وينتهكون الحرمات . ولعل هذا ما دعا البابا انوسنت الثالث الى أن يتهم الحجاج بأنهم لم يحترموا فى نزواتهم السن أو الجنس أو الدين .(٣)

لم تسلم الكنائس والأديرة من السلب والنهب ، ويكفى للتدليل على ذلك مافعله الصليبيون بكنيسة القديسة صوفيا ، فقد مزقوا النقاب المرصع الذى يغطى المذبح ، بل وحطموا المذبح ذاته وكسروه الى قطع صغيرة ووزعوها فيما بينهم ، وداس العساكر السكارى بأقدامهم الكتب المقدسة ، وحولوا الايقونات الى مناضد للقمار ، وتناولوا الشراب فى آنية المذبح ، ووضع هؤلاء الجنود السكارى احدى العاهرات على كرسى البطريرك فى كنيسة القديسة صوفيا ، وأمروها أن تغنى أغانى فرنسية بذيئة ، وترقص رقصات خليعة أمام المذبح العالى ، وقد نعتهما المؤرخ البيزنطى نيقتاس ، "بخادمة الجن والشيطان ووزيرة الفساد ".(٤)

---

١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ٥٢ .
٢) ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٧ (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) ، ص ٥٨ .
٣) انظر نص خطاب البابا انوسنت الثالث بالعربية فى : أسمت غنيم ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ــ١٠١ .
٤) Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp.757-63., Ashour & Rabie, Fifty documents, p.96., Cam. Med. Hist, 4, part I, p. 287., Finlay, op. cit., 3, p. 270.,
رنسيمان ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٢ ، جيبون ، المرجع السابق ، جـ ٣ ص ٢٤٨ .

واذا كان هذا هو شأن الصليبيين مع الكنائس فليس بغريب أن يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين فى القسطنطينية وهو الجامع القديم الذى بنى فى عهد بنى أمية والذى سمح الامبراطور البيزنطى اسحق الثانى باقامة الخطبة فيه عام ٥٨٥هـ ـ ١١٨٩م عندما تحسنت العلاقة بينه وبين صلاح الدين. (١) وعندما أشعل الصليبيون النار فى هذا الجامع عام ١٢٠٤م، امتدت ألسنة النيران الى المناطق المجاورة وهددت كنيسة القديسة صوفيا ذاتها، ولم تخمد النيران الا بعد يومين من اشتعالها. (٢)

وهنا تمنى البيزنطيون لو أن القسطنطينية سقطت فى أيدى اللاتين، وتذكروا أن المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت المسيحية مثلما فعل الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها فقد كان المسلمون أكثر منهم رحمة. (٣)

وكان على اللاتين بعد أن توقف السلب والنهب، أن يسلموا كل ما سلبوه من غنائم الى الخزانة العامة تحت طائلة الحرمان من الكنيسة أو الاعدام، ثم ما لبث أن وقع اختيارهم على ثلاث كنائس لايداع الأسلاب بها الى أن تتم عملية توزيعها، واختاروا عشرة من فرسان اللاتين ومثلهم من البنادقة ممن توسموا فيهم الامانة وأقاموهم حراسا على هذه الغنائم. (٤)

ويؤكد شهود العيان ضخامة الغنائم التى جمعها الصليبيون فيذكر فيلهاردوان " انه ليس بوسع أحد أن يحصى الذهب والفضة والاحجار الكريمة والملابس الحريرية

---

١) انظر ما سبق ص ٩.
٢) سعيد عاشور، الحركة، جـ ٢، ص ٩٣٦، أسمت غنيم، المرجع السابق ص ٨٩.
٣) Iorga, Bréve Histoire des croisades, p. 146.
Vasiliev , op. cit., 2, p. 111., Ostrogorsky, op. cit., vol.4, p. 90.,
رنسيمان، المرجع السابق، جـ ٢، ص ٢٢٣، سعيد عاشور، الحركة، جـ ٢، ص ٩٢٥.
٤) روبرت كلارى، نفس المصدر، ص ١٢٢،
Villehardouin, op. cit., p. 147.

واقراء الثمين ، وكل ما تحتويه الأنفس من ثمين ونادر على وجه البسيطة " . أما روبرت كلارى فيذكر : " انه لم يحدث أن رأت العين وقع فى مثل هذه الغنيمة العظيمة بين الاسكندر أو شارلمان ولاقبلهما أو بعدهما " . (١)

شرع الصليبيون بعد جمع الغنائم الى اقامة نظام سياسى جديد ، واتفق فى البداية على ضرورة تنصيب امبراطور جديد واختيار الناخبين الاثنى عشر ـ ستة من الفرنسيين ومثلهم من البنادقة ـ وفقا لما جاء فى اتفاق مارس ١٢٠٤م (٢) . واستقر رأى البارونات الصليبيين على أن يكون الناخبون من بين رجال الدين فى الحملة بين الأساقفة ورؤساء الأديرة ، فلابد أن طابع هؤلاء الدينى سيضمن حكما منزها بعيدا عن الهوى ، وهؤلاء هم رؤساء أساقفة سواسون Soissons ، وترويس Troyes وبيت لحم وعكا ، ورئيس لوس L'abbé de Los وهلبر ستادت Halber-Stadt . (٣)

أما الناخبون الذين اختارتهم دوق البندقية فهم ، بانتالون باربو Pantaleone Barbo ، وفيتالى داندولو Vitali Dandolo ، وأوتون كويرينى Ottone Quirini ، وبرتوس كونتارينى Bertucci Contarini ونيكولو نافاجيرو Nicolo Navagiero وجيوفانى ميخائيل Gioranni Michieli . (٤)

وبعد أن تم اختيار الناخبين حدد يوما لاختيار الامبراطور الجديد وهو التاسع

---

١) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٢٣ ،
Villehardouin, op. cit., pp. 147-49.
وانظر أيضا خطاب بلدوين فلاندر للبابا فى :
Dufournet, op. cit., 2, p. 436.

٢) انظر بنود اتفاق مارس ص ٢٨ .

٣) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ ،
Michaud, op. cit., 3, p. 277-, note. I.
Dufournet, op. cit., 2, p. 436. , Longnon, L'empire latine, pp. 49-50.

٤) Hazlitt, op. cit., I, p. 306., Lebeau, op. cit., 17, p. 157.

من مايو عام ١٢٠٤م . وفى هذا اليوم حصر الناخبون اختيارهم فى ثلاثة من قادة الحملة الصليبية الرابعة وهم : دوج البندقية هنرى داندولو ، والمركيز بونيفاس مونتفرات والكونت بلدوين فلاندر ، فقد لمع داندولو فى أخريات حياته كواحد من أبرز الشخصيات فى عصره ، فرغم أنه اعتلى عرش البندقية وهو فى الثمانين من عمره ، الا أنه كان طموحا يصبو الى المجد ويطمع فيه لوطنه أكثر مما يطمع فيه لشخصه ، وكان رجلا حكيما شجاعا حذرا [1] مع أنه شيخ أعمى "تقاد فرسه ولا يمشى ولا يركب الا بقائد ".(٢)

أما بونيفاس مونتفرات ــ قائد الحملة الرابعة ــ فقد بدا للوهلة الأولى ، أنه سيختار للتاج ، فقد تولى قيادة الجيوش وأدار المفاوضات ، وصاحب الامير البيزنطى الكسيوس بن اسحق الثانى فى رحلته وفى تجواله ، وظهرت شجاعته فى العديد من المعارك ، هذا فضلا عن أن البيزنطيين أنفسهم اعترفوا به كسيد لهم ، فهو معروف لديهم لصلاته بالعائلة البيزنطية لانه كان عازما على الزواج من مرجريت أرملة اسحق الثانى ، كما كان بونيفاس معروفا عند اللمبارديين لجنسيته ، وعند الالمان لصلة القرابة التى تربطه بفيليب السوابى . ولهذا فقد رغب هؤلاء جميعا فى ترشيحه لمنصب الامبراطور.(٣)

ولم يكن بلدوين فلاندر أقل حظوظا فى التاج الامبراطورى من منافسيه ، فقد كان

Villehardouin, op. cit., p. 151. , 11, Nicetas, op.cit(١ in C.S.H.B., p. 789., Ashour and Rabie, op. cit., p.100.

٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٨١ ، ابن العاص ، الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص ١٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٣٧ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٦٧ .

Michaud, op. cit., 3., p. 277.,Longnon, op. cit., p. 49., (٣

Iorga, " Les Francais à Constantinople" dans Revue Historique Sud- Est Européen (1935) p. 183., Diehl, Dans L'Orient Byzantin, pp. 171-72.

ينتمي الى أسرة عريقة النسب وفيرة الثراء ، وبيت يصلة قرابة لمعظم ملوك الغرب وذوى السلطان والنفوذ . لم يفوقه أحد من الأمراء الصليبيين في شجاعته العربية ، ولم يدانيه شخص في فضائله الكريمة ، ومن أجل ذلك استحق احترام البيزنطيين بل واحترام اللاتين من رجال الدين والعلمانيين ونال اعجابهم .(١)

على أن كفة الميزان مالت أولا لصالح الدوق هنرى داندولو ، اذ وقع اختيار الناخبين عليه ، غير أن بانتالون باربو البندقي الغيور على وطنه — وهو أحد الناخبين — اعترض على هذا الاختيار الذى قد يترتب عليه أن تصبح جمهوريته تحت ثقل الامبراطورية الجديدة ، أو أن تنقل مقرها الى القسطنطينية ، أو أن تصبح مجرد ولاية تابعة لهذه الامبراطورية ، وأشار على الناخبين أن يتدبروا أمرهم ثانية ، وأن يحصروا الخيار بين المركيز بونيفاس والكونت بلدوين فلاندر فكلاهما جدير به .(٢)

وعرض عليهم باربو أن يتنازل من سيكون له شرف الحصول على أصواتهم للمرشح الآخر عن شرط الطاعة والولاء ، وعن السيطرة على جزيرة كريت ، وعن كل ما تمتلكه الامبراطورية فيما وراء البسفور ، وبهذا يمكنهم أن يربطوا كلاهما بالآخر بروابط الصداقة والود .(٣)

---

١) لمزيد من التفاصيل عن بلدوين فلاندر أنظر :

Wolff, " Baldwin of Flanders and Hainuit" in Speculum Vol. 27 (1952) , pp. 281-83.,
Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p. 790., Michaud, op. cit., 3, p. 278.,
Longnon, op. cit., pp. 66-67., Lebeau, op. cit., 17 , p. 165.

٢) Hazlitt, op. cit., I, pp. 307-309., Lebeau, op. cit., 17, pp. 159-161., Michaud, op. cit., 3, pp. 278-79.

٣) Hazlitt, op. cit., I, p. 309., Lebeau, op. cit., 17, p. 161.

وانحصر الاختيار بالفصل بين المركيز بونيفاس مونتفرات والكونت بلدوين فلاندره بين القائد العام للجيوش الصليبية وبين من يعمل تحت لواءه خيرة الفرسان والجنود ، ومن ثم كان الاختيار بينهما صعبا . غير أن ممثلى البندقية ودوجها حسموا الاختيار لصالح الكونت بلدوين فلاندر ، فقد خشى الدوج داندولو أن تتحول الامبراطورية اللاتينية الجديدة فى القسطنطينية فى ظل بونيفاس مونتفرات الى قوة كبرى ربما تتعارض مصالحها مع مصالح البندقية ، هذا فى حين كان بلدوين أضعف من أن يقاوم نفوذها ، فضلا عن أنه كان أكثر لينا وانقيادا من بونيفاس .(١) وكانت ممتلكات بونيفاس فى لمبارديا قريبة جدا من البندقية مما يسهل عليه غزو أراضيها والاعتداء عليها ، كما أن بونيفاس كان حليفا وصديقا بل ويمت بصلة قرابة لفيليب السوابى ولأسرة الهوهنشتاوفن ، التى كانت لها أطماع واضحة فى ايطاليا وتشكل خطرا على البندقية ومصالحها ، هذا فضلا عن ميول بونيفاس تجاه جمهورية جنوة المنافسة الكبرى لمصالح البنادقة الاقتصادية ، فخشى الدوج وخشى البنادقة أن يمنح بونيفاس — عندما يصبح امبراطورا — جنوه أكبر منافس لهم امتيازات فى الامبراطورية الجديدة .(٢)

وفى النهاية أعلن أسقف سواسون قرار الناخبين باختيار بلدوين فلاندر امبراطورا ، وأرجئ حفل تتويجه الى حين .(٣) وفى تلك الاثناء قام الكونت بلدوين بتوزيع المناصب

---

١) رنسيمان ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

Cam. Med . Hist, 4, p. 421.

٢) Nicetas, op. cit., in C.S.H. B. , p. 789.,
Hazlitt, op. cit., I, p. 310., Longnon, op. cit., pp. pp. 50-51. , Vasiliev, op. cit., 2, p. 113.

٣) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

Villehardouin, op. cit., p. 155.

والرتب والوظائف الهامة فى البلاط الامبراطورى على رفاقه فى السلاح من الفرسان والبارونات المشهورين وذائعى الصيت ، فعلى سبيل المثال حصل هيو كونت سانت بول Hugues Conte Saint Pol على رتبة الكندسطبل[1] ، وحصل كونون بيتون Conon Bethune على منصب أمين الملك Protovestiaire[2] وهو أحد المناصب الهامة فى البلاط الامبراطورى • ومن المناصب المستعارة من الغرب ــ والتى كانت موجودة فى البلاط الملكى بفرنسا ــ حصل المؤرخ فيلهارد وان على منصب مارشال رومانيا[3] ، وحصل ميلون لبرابان Milon Le Breban على وظيفة الساقى Bouteiller[4] •

وتم تتويج الامبراطور الجديد يوم الأحد الموافق ١٦ مايو عام ١٢٠٤ م فى حفل مهيب فى كنيسة القديسة صوفيا ، وكان من الفخامة والعظمة على العادة المتبعة فى الامبراطورية البيزنطيـة •[5] ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور بلدوين اتبع رسوم الأباطرة البيزنطيين عند تتويجه ، فلبس التاج الامبراطورى فى كنيسة القديسة صوفيا ، وقدسه رعاياه البيزنطيين ، بل وتلقب بألقاب أباطرتهم •[6] وأكثر من ذلك وقع الوثائق الامبراطورية بحبر زئبقى اللون مقدس ، مستخدما الحروف اليونانيـة ،

---

١) عن منصب الكندسطبل انظر ماسبق ص ل ، حاشية (١)

٢) عن هذا المنصب انظر :

Hendrickx, "Les institutions de l'empire latin de constantinople La Cour et les dignitaires" , dans Byzantina, T.9(1977)pp.210-11.

٣) عن منصب المارشال انظر ماسبق ص ف ، حاشية (٢)

٤) Hendrickx, Les institutions de l'empire latin, pp. 196-206., Longnon, op. cit., p. 63., Michaud, op. cit., 3, p.284, Setton , op. cit., 2, p. 190.

٥) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاحتفال انظر :

روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٣٧ ،

Hendrickx, "Les institutions de l'empire latin - Lepouvoire impérial" in Byzantina, T. 6(1974) pp.99-102.

٦) عن الالقاب التى تلقب بها بلدوين انظر :

Patrologia latina, T.215, Cols. 510-11., Longnon, op. cit., p.52., Iorga, Les Francais, p. 185.

وأبطل بلدوين خاتم الشمع لكونت فلاندر ، واتخذ الختم الامبراطوري من الذهب ومن الرصاص . ويظهر هذا الختم العظمة البيزنطية مجتمعة مع الفروسية الغربية؛ فيصور بلدوين على أحد وجهيه جالسا على العرش مرتديا سترة مربوطة عند الكتف ، ولابسا التاج المرصع بالجواهر ، وممسكا الصولجان والكرة ، ويظهر بلدوين على الوجه الآخر للختم ممتطيا صهوة جواده كفارس من فرسان الغرب ، مرتديا عباءة ويحمل السلاح ، يضع على رأسه خوذة ويلوح بالسيف .(١)

وبعد أن تم تتويج الامبراطور الجديد بدأ اللاتين في تقسيم الامبراطورية البيزنطية وتوزيعها فيما بينهم ، وعهد بذلك الى لجنة مختلطة تتكون من أربعة وعشرين عضوا نصفهم من البنادقة والنصف الآخر من الصليبيين ، وتعمل هذه اللجنة طبقا للأسس والمبادئ الموضحة في اتفاق مارس ١٢٠٤م .

نص أحد بنود هذا الاتفاق — المعروف باتفاق التقسيم — على أن يكون للامبراطور ربع الامبراطورية ويقسم الباقي مناصفة بين الصليبيين والبنادقة ، ووفقا لذلك حصل الامبراطور الجديد على جزء كبير من تراقيا ، وعلى الاقليم الممتد من غرب القسطنطينية حتى اجاثوبوليس Agathopolis — على البحر الأسود — في الشمال وتزورولون Tzouroulon في الجنوب(٢) ، وعلى بعض الأقاليم والأراضي خارج العاصمة والتي لم يفتحها الصليبيون بعد ومن بينها آسيا الصغرى مع بعض جزر بحر ايجه البعيدة بما فيها ليسبوس وخيوس وساموس وليمنوس

---

(١) Schlumber-ger, Sceaux et bulles des empereurs Latins de Constantinople " , dans Mélanges d'Archeologie Byzantine, Prémiere Série, pp.87-90., Longnon, op. cit., pp. 52-53 ., Michaud, op. cit., (éd) laffont , p. 349.

(٢) تزورولون ، مدينة في تراقيا ، تقع في مفترق الطريق بين أدرنة وهيل وسالونيك على بعد ١٠٠ كم من القسطنطينية ، انظر :
Longnon, op. cit., p. 183.

وثينوس وغيرها .(١)

وفى اليونان حصل اللمبارديون على مقدونيا فيما وراء نهر الفردار Vardar وبحيرة برسبا Prespa وعلى وسط اليونان (فيما عدا بوخيا Béotie) وغالبية جزر السكلاديز Cyclades .(٢)

وفاز البنادقة بنصيب الأسد ، فبالاضافة الى ثلاثة أثمان العاصمة حصلوا على العديد من المدن والجزر والمواقع الهامة فى الامبراطورية ومنها ابيروس وايتوليا ودورازو وعلى الساحل الشرقى للادرياتيك ، وعلى جزر مودون وكورون فى شبه جزيرة البلوبونيز ، وعلى مدينة هراقلية وادريانوبل فى تراقيا ، وعلى غاليبولى على ساحل بحر مرمرة ، وعلى اثنين من جزر بحر ايجه .(٣)

والمتأمل لهذه المناطق التى حصل عليها البنادقة ، يدرك الروح العملية التى سادت جميع تصرفاتهم اذ حصلوا على أفضل المواني ، وأهم النقاط العسكرية ، وأصبحوا يتحكمون فى حدة بحار هى بحر ايجه وبحر مرمرة ، والادرياتيك وبالتالى أصبح الطريق مأمونا أمام سفنهم وقوافلهم التجارية ، بل وضمنوا لأنفسهم السيادة المؤكدة على البحار الشرقية .(٤)

ومنذ ذلك الحين اتخذ داندولو لقب " سيد ربع ونصف ربع الامبراطورية البيزنطية

"Dominus quatre Partis et dimidie Totius Imperii Romanie

(١ Hendrickx, Les institutions de l'empire latin – Le pou-voire impérial, p. 111., Longnon, op. cit., p. 61., Setton, op. cit., 2, p. 191., Cam. Med. Hist, 4, p. 289., Tout, The empire and the papacy, p. 348., Diehl, Dans L'Orient Byzantin, p. 174.

(٢ Longnon , op. cit., pp. 61-62., Cam. Med. Hist. 4, Part. I, P.289.

(٣ Thierit, La Romanie Venitienne au moyen age, pp.76-77., Setton , op. cit., 2, pp.191-92.

Miller, The Latins in levant, p. 29., Michaud, op. cit., 3, pp. 284-85., ديل ، البندقية ص ٤٢ .

(٤ Cam. Med. Hist, 4, p. 421., Ostrogorsky, op. cit., p. 376.

وظل خلفاؤه يستعملون هذا اللقب حتى عام ١٣٥٦م.(١) بل وأصبح داندولو يتمتع أيضا بلقب "Despot" (٢) وهو فقط دون سائر بارونات الامبراطورية لا يؤدى يمين الطاعة والولاء للامبراطور عن أى اقطاع يحوزه. ومن ثم بدا دوج البندقية أقوى الشخصيات فى الامبراطورية، بل والشخصية الأولى بعد الامبراطور حتى أن البابا أنوسنت الثالث — الذى طالما كال له اللوم والتقريع — بدأ يعامله برفق ومجاملة.(٣)

وفوق ما حصلت عليه البندقية من مكاسب آلت اليها كنيسة القديسة صوفيا، وآل لقب البطريرك اللاتينى للبندقى توماس موروسينى Thomas Morosini وذلك وفقا لاتفاق مارس ١٢٠٤م. وبدا أن مصير البندقية قد أصبح مرتبطا بمصير الامبراطورية اللاتينية، بل ولم تعد الامتيازات الخاصة بالبنادقة فى الامبراطورية البيزنطية وقفا على رغبة الامبراطور ولكن أصبحت جزءا من نظام الامبراطورية الجديدة.

وبعد أن تم تقسيم الامبراطورية البيزنطية وفقا لاتفاق مارس ١٢٠٤م بين الامبراطور والصليبيين قام الامبراطور بتوزيع الاقطاعات على الكونتات وكبار رجال

---

(١) Thiriet , La romanie, p. 76.

(٢) تعنى كلمة ديسبوت السيد أو الحاكم وهو لقب شرفى، يمنح لكبار الشخصيات ولأفراد من الأسرة الامبراطورية، ولم يتقلد حامله سوى المناصب الشرفية ومراكز الصدارة، وهو بهذا لا يمنح حامله جانبا من السلطة أو القيادة، وأحيانا فقط كان الامبراطور يعهد الى الديسبوت بمهمة قيادة الجيش أو ادارة اقليم أو تحمل عبء سفارة معينة، وأصبح هذا اللقب يمنح فى القرن الثالث عشر الأمير الوريث للعرش، وهو عادة ما يكون أكبر أبناء الامبراطور اذا كان عنده أولاد، أو زوج ابنته اذا لم يكن لديه أولاد ذكور. وعن تطور هذا اللقب فى الامبراطورية البيزنطية انظر:
Guilland, " Etudes sur L'histoire administrative d'Empire Byzantin - Despote". Dans Revue des Etudes Byzantins , Vol. 17 (1959) pp. 52-89., Hendrickx, les institutions - lacour et les dignitaires, pp. 206-209.

(٣) ديل، المرجع السابق، ص ٤٤.
Thiriet, La romanie, p. 79.

رجال الامبراطورية وذلك فى أكتوبر عام ١٢٠٤م بعد أن انتهت اللجنة المختلطة من عملها فى نهاية سبتمبر — فأعطى الامبراطور على سبيل المثال الكونت لويس بلوا Louis de Blois اقليم بيثينيا مع لقب دوق نيقيه — عاصمة الاقليم — التى تقع على البسفور.(١) ومنح بطرس براشيو Peter Bracieux اقليم آخر فى مواجهة ثونية ، وأعطى ستيفن بيرش Stephen of Perche دوقية فيلادلفيا ، وحصل المؤرخ فيلهاردوان على اقليم ماكرى Macri على بحر ايجه وعلى تراجا نيوبوليس Trajano Polis وكلاهما على الطريق من القسطنطينية الى سالونيك .(٢)

ومما تجدر الاشارة اليه أن التقسيم قد تم بعد بحث واستقصاء عميقين وبناء على الوثائق الرسمية حتى أن المؤرخ البيزنطى نيقتاس يقول : " انهم أرسلوا القضاة والمحققين الى الأقاليم لمعرفة ماقيمها أولا من دخول وايرادات ".(٣) ويمكن القول بأن اتفاقية التقسيم وتوزيع الاقطاعات قائمة على انتقال الاقطاع الغربى الى أراضى الدولة البيزنطية ، فقد غدت الامبراطورية اللاتينية التى قامت فى الشرق البيزنطى تمثل دولة اقطاعية كبرى.

وكنتيجة من نتائج قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ظهرت فى وسط وغرب اليونان امارات هامة من أشهرها امارتى المورة (آخايا Achaia) واثينا ، وكانت هذه الامارات تتبع الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية تبعية اسمية فحسب ، وذلك لأن حكامها لم يقدموا له الطاعة والولاء وانما دائـــــــــوا

---

(١) Villehardouin, op. cit., p. 181.

(٢) Lebeau, op. cit., 17, p. 167., Longnon, op. cit., p. 62., Cam. Med Hist., 4, p. 422, Setton , op. cit., 2, p. 192., Lavisse and Rambaud, Histoire Generale, 2, p. 853.

(٣) Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp. 787-88. Ostrogorsky, p. 370., Finlay, op. cit., 4, p.90.

بالتبعية للمركيز بونيفاس مونتفرات الذى نصب نفسه ملكا على سالونيك ، والذى لم يكتف بذلك بل زحف على اثينا ومنح السيادة الاقطاعية على اتيكا وبوتيا لأحد أتباعه وهو البرجندى اوتو لاروش Otton de la Roche ، وبالمثل فتح وليم شامبليت William de Champlitte وجوفرى فيلهاردوان — ابن أخو المؤرخ فيلهاردوان — شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) بمساعدة بونيفاس ملك سالونيك ، ومن ثم فقد دانا له بالتبعية ، وأقسما له يمين الطاعة والولاء ، وكان هذا علامة على قيام امارتى المورة واثينا .(١)

وتعد امارتى المورة واثينا من أشهر الامارات الاقطاعية التى قامت على أرض الامبراطورية البيزنطية فى ظل الحكم اللاتينى لها ، وترجع شهرتهما ، وخاصة آخايا الى أنها كانت غنية فى أسلوب حياتها ، هذا فضلا عن أنها لم تسقط بسقوط الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى عام ١٢٦١م بل استمرت قائمة حتى القرن الخامس عشر .(٢)

كان سقوط القسطنطينية وقيام الامبراطورية اللاتينية على أرضها عام ١٢٠٤م ضربة قاصمة حلت بالدولة البيزنطية ، فبعد أن كانت بيزنطة تشكل وحدة سياسية

---

١) لمزيد من التفاصيل عن قيام امارتى المورة واثينا انظر :

Chronique de Morée , pp. 23 - 28., Villehardouin, op. cit., pp. 193- 99.,
Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp. 794-808.,
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 14-15.,
Bon , La Morée Franque , I, pp. 51-63.,
Finlay, op. cit., 4, pp. 174-95., Longnon, op. cit., pp. 69-120., Lebeau, op. cit., 17, pp. 191-202.
Ostrogorsky, op. cit., pp. 376-77.

واحدة أصبحت فيما بين عامى ١٢٠٤ـ ١٢٦١م مفككة الأوصال منقسمة الى ممالك عديدة بعضها لاتينية والبعض الآخر يونانية • حقيقة ان الامبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية كانت قصيرة العمر ، اذ لم تعمر أكثر من ٥٧ عاما ، وان البيزنطيين استطاعوا منذ عام ١٢٦١م أن يعودوا الى عاصمتهم ، ولكنها عادت مهيضة هزيلة لم يستطع الاعتماد على نفسه فى الدفاع عن أراضيه ، وكان هذا بداية النهاية لدولتهم وتدهورها ثم زوالها النهائى على أيدى العثمانيين عام ١٤٥٣م • (١)

واذا كان قيام الامبراطورية قد أدى الى تفكك وحدة العالم البيزنطى ، فانه قد أدى أيضا الى تدمير وتبديد ما حرصت بيزنطة على اختزانه من كنوز ممثلة فى آيات الفن البيزنطى والمخطوطات النفيسة والكتب المقدسة ، والايقونات النادرة ، هذا فضلا عما زخرت به بيزنطة من مخلفات بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية من نحت ورسم ونقش وتصوير أو ما شابه ذلك • (٢)

ولكن اذا كان قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية قد أدى الى تدمير بيزنطة وتحطيم وحدة العالم البيزنطى بضياع القسطنطينية ، الا أن هذا لا يعنى أن البيزنطيين أنفسهم فقدوا نشاطهم وقوتهم فقد أيقظت الكارثة فيهم الروح الوطنية والروح القومية ، ولعل قيام امبراطورية نيقيه وصمودها فى وجه اللاتين واستردادها القسطنطينية ـ فيما بعد ـ لاصدق مثال على تلك اليقظة ، ويؤكد لافيس Lavisse ذلك بقوله : " لم يكن للسيطرة اللاتينية من أثر على بيزنطة الا فى ايقاظ الروح الوطنية البيزنطية أو اليونانية " • (٣)

ومع أن قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية قد أضر بالدولة البيزنطية

---

١) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٤٧ ، عبدالقادر أحمد اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٤ •
Cam. Med. Hist, Vol. 4, Part. I, P; 746.
٢) انظر عمليات السلب والنهب • ص ٣٢ـ٣٤ •
٣) Lavisse & Rambaud, op. cit., 2, p. 871.

بعض الشيء فانه كان كارثة كبرى الحقت بالحركة الصليبية ومستقبلها حيث كشفت دفعة واحدة من هويتها المادية التوسعية التي حاولت أن تخفيها منذ قرن أو يزيد من الزمان ، وأظهرت أن المصالح الاقتصادية والتجارية والسياسية بل والشخصية أخذت تحتل مركز الصدارة في تفكير المعاصرين ، فهي مثال حي على ضعف الباعث الديني وزوال عهد الروح الصليبية .(١)

كما أن قيام الامبراطورية اللاتينية لم يؤد كما توقع البعض الى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية بل قضى على كل أمل في الوحدة بينهما ، وأدى الى زيادة العداوة والبغضاء بين البيزنطيين واللاتين .(٢)

كذلك أضعف قيام الامبراطورية اللاتينية من مركز الصليبيين في الشام ، اذ أدى الى خراب ديارهم وافقارها من المحاربين ، وكان المفروض فيها العمل على تدعيم مركزهم ومساعدتهم في مقاومة الضغط الواقع عليهم من المسلمين .(٣) فقد حدث بعد فتح القسطنطينية على أيدي اللاتين عام ١٢٠٤م ، أن أرسل اللاتين الى البارونات المسيحيين في الشام أبواب تلك المدينة والسلسلة التي كانت تغلق ميناءها ، وما ان وقع نظر البارونات عليها حتى هرعوا من فورهم الى القسطنطينية ليشاركوا اخوانهم فرحة الانتصار ، وكان هؤلاء البارونات والفرسان ممن انفصلوا عن الجيش الصليبي قبل الابحار من البندقية ، وذهبوا الى الشام مباشرة ، كما كان من بينهم عدد كبير من الفرسان الذين أقاموا من قبل في الشام .(٤)

---

١) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٢٤ .
٢) انظر مايلي في الفصل الثالث .
٣) سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٤٠ .
٤) Lebeau , op. cit., 17, p. 189., Iorga, Brève Histoire des croisades , p. 148.

وما لبثت الامبراطورية الجديدة أن استهوت أيضا كثيرا من فرسان الغرب المغامرين الذين أدركوا أنه لا داعي مطلقا أن يمضوا في طريقهم الى مملكة بيت المقدس المكلفة في سبيل الحصول على وراثة الاقطاع في بلاد اليونان من الأراضي مايفوق أراضي بيت المقدس جودة وغنى .(١)

ومما يجدر ذكره أن الامبراطورية الجديدة جذبت اليها حتى فرسان الطوائف الدينية ، فبعد اعلان خبر الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م أبحر مندوبا البابا وهما بطرس كابوانو Pierre Capuono وسوفريدو Soffredo من صور الماصمة البيزنطية بعد أن أثاروا حمية وغيرة رجال الدين اللاتين فأسرع فرسان الداوية والاسبتارية الى اليونان حيث المجد والأراضي الغنية الواسعة .(٢)

ولعل ماشجع هؤلاء جميعا وأعطاهم دفعة قوية ـ هم وغيرهم ـ على الذهاب الى القسطنطينية بدلا من بيت المقدس هو تلك الحفاوة والترحيب الذى استقبلهم به الامبراطور اللاتيني بلدوين فلاندر Baudouin Flandre (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥م) هذا الى جانب ماقام به من توزيع المناصب الشرفية الكبرى في الامبراطورية عليهم ، وتوزيع الاراضي والاقطاعات أيضا .(٣)

ولاشك أن ذلك كان محركا لاطماع الفرسان الغربيين مما دفعهم الى تفضيل الذهاب الى القسطنطينية عن المجيء الى بيت المقدس ، التي لم يعد يأتـــي

---

١) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

٢) عن نشأة هيئة الداوية والاسبتارية انظر :

نبيلة مقامي ، الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢ ، ١٣م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، ص ٦ ـ ٢٢ .

Michaud, op. cit., 3, p. 295., Longnon, op. cit., p. 67.

٣) Villehardouin, op. cit., p. 187., Longnon, op. cit., pp. 67-68.

Lebeau, op. cit., 17, p. 189., Michaud , op. cit., Vol.3, p. 295.

اليها من أوربا للدفاع عنها سوى المجندين للخدمة فى الطوائف الدينية والعسكرية وان كان هؤلاء قد استهوتهم الامبراطورية الجديدة أيضا . (١)

كذلك جعل قيام الامبراطورية فى القسطنطينية الطريق البرى الممتد من أوربا الى الشام بالغ الصعوبة ، نظرا لما يثيره المسافرون على هذا الطريق من ارتياب البيزنطيين المقيمين فى نيقيه وعداوة الترك فى الاناضول ، كما أن الطريق البحرى لم يعد سهلا اذ أصبحت السفن الايطالية تفضل نقل المسافرين الى الجزر اليونانية والبوسفور عن المضى الى عكا وموانئ الشام . (٢)

اثر قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، تأثيرا بالغ الأهمية على علاقة المسلمين والصليبيين فى الشرق ، فكلا هما كان يترقب مجئ جموع الحملة الصليبية الرابعة ، فكان العادل يخشى أن تتقدم تلك الجموع نحو الشرق فى جهد موحد لاسترداد ما انتزعه من حقها فى السيادة على الأماكن المقدسة ، هذا فى حين كان الصليبيون فى مملكة بيت المقدس يعلقون آمالا كبارا على هذا الاتجاه ويعتبرونه محاولة ايجابية للقضاء على قوة المسلمين فى مصر والشام جميعا . غير أنه من حسن حظ العادل أن تحولت الحملة الرابعة عن مصر الى القسطنطينية ، واستقرت بها ، وزحف اليها الكثير من الفرسان المقيمين فى بلاد الشام والقادمين من الغرب ، الامر الذى أضعف من قوى الصليبيين فى بلاد الشام وجعل عمورى ملك بيت المقدس يشعر بضرورة الاسراع الى طلب الصلح مع المسلمين . (٣) وقد سر عمورى عندما أظهر الملك العادل الاستعدادات الطيبة لعقد السلام ، وتم الصلح بين المسلمين والصليبيين فى سبتمبر عام ١٢٠٤م ، وحصل الصليبيون على امتيازات كثيرة اذ تنازل لهم العادل عن الناصرة لتسهيل مهمة الحجاج المسيحيين . (٤) وتنازل لهم كذلك

---

(١) رنسيمان ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ .
(٢) رنسيمان ، نفس المرجع ، والجزء ، ص ٢٣٤ .
(٣) سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٤٥ .
(٤) زينى دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ٤١٨ .
سعيد عاشور ، الحركة ، ج ٢ ، ص ٩٤٦ .
Iorga, Bréve Histoire , p. 149.

عن يافا واللد والرملة .[١] وبذلك ساد الهدوء ولو الى حين بين الصليبيين في بلاد الشام وبين المسلمين بفضل قيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .

* * *

---

١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ،
المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٦٤ ،
أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، م٣ ، ص ١١١ .

الفصل الثانى

الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية والقوى البيزنطية

— القوى البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م ٠
(امبراطورية نيقية — امارة ابيروس — امبراطورية طرابيزون) ٠

— الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية نيقية (١٢٠٤ — ١٢٥٤م) ٠
بداية الصدام بين البيزنطيين فى نيقيه واللاتين فى القسطنطينية — عداء الامبراطور ثيودور لاسكاريس للامبراطور اللاتينى هنرى فلاندر — الهدنة بين لاسكاريس وهنرى وطرد اللاتين من آسيا الصغرى — تجدد الصراع بين نيقية والقسطنطينية ومحاولة لاسكاريس الجادة استعادة القسطنطينية — معاهدة عام ١٢١٤م وتحديد العلاقة بين امبراطورية نيقية والامبراطورية اللاتينية — جهود الامبراطور حنا فاتاتزيس لاسترداد القسطنطينية ٠

— الامبراطورية اللاتينية وامارة ابيروس ٠
تأرجح سياسة ميخائيل دوقاس (١٢٠٤ — ١٢١٥م) تجاه اللاتين — ثيودور انجيلوس وأسره الامبراطور اللاتينى بطرس الكورتناى — استيلاء ثيودور على سالونيك عام ١٢٢٤م — محاولة ثيودور استرداد القسطنطينية عام ١٢٣٠م ٠

— الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية طرابيزون ٠

أدى سقوط العاصمة البيزنطية وقيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية الى خلق شعور وطني موحد بين صفوف البيزنطيين على اختلاف طوائفهم من المثقفين ورجال الدين والفلاحين في المجتمع البيزنطي ، فقد ساءت حالة الفلاحين في ظل حكم سادتهم الجدد من اللاتين ، وفقد رؤساء الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية ما كانوا يتمتعون به من امتيازات فضلا عن مصادرة املاكهم ولهذا قاد رجال الدين الارثوذكس المقاومة ضد اللاتين ، وسخرت الطبقات المثقفة امكانياتها لدعم الحكومات البيزنطية التي قامت في المنفى ولا سيما امبراطورية نيقية ، التي أصبحت محط انظار البيزنطيين لاعادة مجدهم (١).

ورغم أن عددا من القادة البيزنطيين وجدوا مكانا لهم داخل النظام اللاتيني الجديد ، واستطاع بعضهم لمحاولات الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر Henri Flandre (١٢٠٦ — ١٢١٦ م) وشغلوا بعض المناصب في الادارة وفي جيش الامبراطورية الجديدة ، الا أن الغالبية العظمى منهم تركت القسطنطينية رغم أن اللاتين تركوا لهم حرية الخيار في البقاء أو الخروج — وذهبت الى آسيا الصغرى ، حيث تجمعت حول النبلاء الوطنيين ، وأقامت ثلاث حكومات بيزنطية في المنفى ، ظلت تكافح بغية تحقيق حلم قل وهو تحرير القسطنطينية (٢) .

ففي نيقية — على بعد أربعين ميلا فقط من القسطنطينية — استطاع ثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris ان يجمع حوله من بقي على قيد الحياة من أفراد الطبقة الارستقراطية البيزنطية وكبار رجال الكنيسة ، وتوج في ظل مهيب امبراطورا للرومان أو البيزنطيين ، وفي ابيروس ، أقام ميخائيل انجيلوس Michael Angelos امارة بيزنطية في شمال غرب اليونان ، قاومت الصليبيين بنجاح ودافعت عن استقلالها ضد الحكام البيزنطيين في نيقية

---

١) عبدالقادر أحمد اليوسف، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٩ .

٢) Acropolitas, Annales, in C.S.H.B., p. 12..
Longnon, L'empire latin de Constantinople, p. 142.

واللاتين في القسطنطينية لبضع سنوات . وفي طرابيزون ، أعلن بعض الامراء البيزنطيين الذين ينتمون لآل كومنين عن قيام امبراطورية بيزنطية ، سرعان ما شملت جميع الشريط الساحلي للبحر الاسود الممتد من هراقلية Heraclea شرقا حتى طرابيزون Trebizond غربا ، تلك الامبراطورية التي قدر لها أن تبقى حتى أواسط القرن الخامس عشر (١٤٦١م) (١) .

والى جانب هذه الحكومات البيزنطية الثلاث الكبرى ، قنع نفر من الطامعين بالعرش ، ونجح نفر آخر من النبلاء البيزنطيين في اقامة امارات صغيرة في آسيا الصغرى يحكمونها بأنفسهم ، وتلقب نفر ثالث منهم بلقب الامبراطور دون أن يكون لهم حق في هذا اللقب ، من ذلك ثيودور جابالاس Theodore Gabalas في رودس ، وثيودور مانكافاس Theodore Mankaphas في فيلادلفيا ، وساباس اسيديوس Sabbas Asidenus في سامسون Samson على الساحل الجنوبي للبحر الاسود (٢) .

ورغم أن هذه الممالك جاءت بشكل ما نتيجة للاحداث التي وقعت عام ١٢٠٤ ، الا أنها تعكس حقيقة الاتجاهات الانفصالية التي كانت سائدة بين العائلات البيزنطية ، وتوضح أن البيزنطيين لم يستسلموا للحكم اللاتيني بل سعوا من أجل التخلص منه واعادة عاصمتهم ثانية (٣) .

قامت امبراطورية نيقية — أشد امبراطوريات المنفى خطرا على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية — على يد ثيودور لاسكاريس ، وهو أحد كبار السادة الذين عبروا المضيق عقب استيلاء اللاتين على القسطنطينية عام ١٢٠٤م على أن المصادر المعاصرة وعلى رأسها اكروبوليتا — مؤرخ نيقية —

١) Diehl, L'empire Byzantin, pp. 173-74., Finlay ,History of Greece, Vol.3, p. 284., Setton, History of the crusades, Vol.2, pp. 200-201.

٢) Acropolitae, Annales, in C.S.H.B., p. 14.

٣) حسى ، العالم البيزنطي ، الترجمة العربية ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

وفيلهاردوان ، لم تذكر شيئا عن أصل لاسكاريس المؤسس الاول لامبراطورية نيقيه ، ولا عن مسقط رأسه ولا عن أصل أسرته (١) . ويذكر فيلهاردوان أن ثيودور لاسكاريس تولى القيادة العسكرية تحت حكم الامبراطور الكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣ م) الذي زوجه من ابنته آنا Anna ، ومن ثم أصبح ثيودور لاسكاريس يمت بصلة قرابة ونسب للعائلتين الكومنينية والانجيلية (٢) .

كان ثيودور قائدا بارزا في ميدان القتال ، ظهرت شجاعته من خلال الحملة الموجهة ضد البلغاري الثائر Ivanko في عام ١٢٠٠م، وكذلك أثناء حصاري القسطنطينية اذ حارب الصليبيين بشجاعة ، ونشط للدفاع عن القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، وكان أن انتخب ثيودور لاسكاريس امبراطورا في كنيسة القديسة صوفيا وذلك بعد أن هرب الكسيوس الخامس في ١٩ أبريل عام ١٢٠٤م ، ولكنه رفض هذا المنصب في حياء مفضلا الذهاب الى آسيا الصغرى حيث لحق به — فرارا من الصليبيين — عدد من كبار نبلاء بيزنطة وبعض كبار رجال الدين وغيرهم ممن كرهوا الخضوع للحكم اللاتيني الجديد (٣) .

يروى اكروبوليتا — مؤرخ نيقيه — ان ثيودور لاسكاريس ترك القسطنطينية مع زوجته آنا وبناته الثلاث ، وعبر بحر مرمرة متجها الى مدينة نيقية ، ورفض أهل نيقيه السماح له بدخول مدينتهم ، فانسحب الى معاقل وحصون جبل الاولمب حيث أقام أولا في بروسه Pruse مركز قيادة الاتراك السلاجقة وذلك بعد أن توصل الى تفاهم مع سلطان قونية

---

١) أطلق المؤرخون المسلمون (اسم الاشكرى) على اباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في الفترة التي حكم فيها اللاتين القسطنطينية (١٢٠٤—١٢٦١م) ثم غلب اسم الاشكرى بعد ذلك على أباطرة بيزنطة . انظر :
المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، حاشية ٢ ، ص ١٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ ، حاشية ٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص ٨١ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٢ .

٢) Villehardouin, La Conquête de Constantinople, p. 187., Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 12.

٣) Cam. Med. Hist., 4, p. 478., Setton, op. cit., 2, p.201.
Brehier, Vie et Mort de Byzance, I, p. 369.

السلاجقة ، وحصل منه على مساعدات أصبح بفضلها سيدا على بروسه ومعظم مدن بيثينيا Bithynia (١) . وسرعان ما أظهر ثيودور لاسكاريس من الشجاعة والفطنة ما جعل السلطات فى نيقيه تعترف به امبراطورا وذلك بعد عامين من قدومه اليها أى فى عام ١٢٠٦ م (٢) .

ومن الجدير بالذكر ان المكان الذى اختاره ثيودور لاسكاريس وهو نيقيه Nicaea كملجأ للبيزنطيين ومركزا لتجمعهم لمقاومة زحف اللاتين قد حسن اختياره . فمدينة نيقية تقع على الطرف الشرقى من بحيرة اسكانيوس Ascanios فى السهل الخصيب فى بيثينيا ، هذا فضلا عن أن مدينة نيقية مشهورة فى حوليات التاريخ البيزنطى اذ عقد بها مجمعين كنسيين ، كما أنها تباهت فى العصور الوسطى وتفاخرت بالاستحكامات القوية التى حمتها ، وبالقصور الفخمة والكنائس والاديرة (٣) .

كانت أولى الخطوات نحو اعادة بطء وحدة الامبراطورية الجديدة بعد اختيار ثيودور لاسكاريس امبراطور على نيقية هى التصديق على قرار انتخابه ، ولاتمام هذا العمل واكسابه صفة الشرعية كان يجب أن يتم تتويج ثيودور لاسكاريس على يد البطريرك . ومما تجدر الاشارة الى أنه اعقب الانقسام السياسى فى الامبراطورية البيزنطية انقسام دينى ، فحين تم الاستيلاء على القسطنطينية

---

١) تقع بروسه فى اقليم بيثينيا الى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، جنوب غرب البحر الاسود . انظر :

Jones, The cities of the Eastern Roman provinces, p.147..
Encyclopedia Americana , Vol. 4, p. 21.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 12-13. Cam. Med. Hist, 4, p. 479.

٣) Janin, " Nicée, étude historique" dans Echos d'Orient (1925) pp. 482-87.,
Bréhier, op. cit., I, p.369., Cam. Med. Hist., 4, p.479
Vasiliev, Histoire de l'émpire Byzantine, T.2., pp. 182-83.

ومما يشهد على شهرة مدينة نيقيه وعظمتها أن زارها بعض الرحالة العرب ومن بينهم الهروى، وتحدث عنها فى كتابه الاشارات الى معرفة الزيارات ، ص ٥٨ .

١٢٠٤م، ترك البطريرك البيزنطي جنا العاشر كاماتيروس Jean X Camaterus القسطنطينية ورحل الى بلغاريا وأصبحت الكنيسة الشرقية بلا راع ، ونظرا لحاجة ثيودور لاسكاريس اليه فقد كتب له عام ١٢٠٦ م ، يدعوه الى أن يأتي ليتوجه امبراطورا غير أن البطريرك اكتفى بأن أرسل لثيودور كتابا باستقالته (١) .

وكان ان انتخب ميخائيل أوتوريانوس Michael Autorianos بطريركا جديدا ، وقد وصفه اكروبوليتا بقوله : " كان رجلا على درجة كبيرة من العلم والثقافة ، اذ كان يحترف لغتنا ولغة غيرنا " (٢) وتوج ثيودور لاسكاريس رسميا على يد البطريرك الجديد أوتوريانوس في احتفال مهيب عام ١٢٠٨م وكان هذا اعلانا عن قيام امبراطورية نيقيه ، التي تحولت اليها انظار سائر البيزنطيين وآمالهم . واعتبر البيزنطيون ثيودور لاسكاريس — على أثر تتويجه على ايدى البطريرك — امبراطورهم الشرعي وادخلوا اسمه في قوائم اباطرتهم ، ولم يعترفوا ببلدوين فلاندر Baudouin Flandre — الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية — من بين حكامهم ، كما اعتبروا بطريرك نيقيه خلال الفترة من (١٢٠٤ — ١٢٦١م) هو بطريرك القسطنطينية الشرعي (٣) .

أما الحكومة البيزنطية الثانية فقد قامت في ابيروس Epiros في شمال غرب اليونان ، ومؤسس امارة ابيروس هو ميخائيل دوقاس Michael Ducas (١٢٠٤ — ١٢١٥ م) وكان ابنا غير شرعي لحنا انجيلوس كومنين ، وهو بذلك يمت بصلة قرابة للعائلات البيزنطية شأنه في ذلك شأن ثيودور لاسكاريس مؤسس امبراطورية نيقيه (٤) .

---

(١) Acropolitae, op.cit., in C.S.H.B., p. 13, Finlay, op. cit., 3, pp.287-88.

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 13.

(٣) Vasiliev , op. cit., 2, p. 182., Cam. Med. Hist, Vol.4 Part. I., p. 294.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 15-27., Villehardouin, op. cit., pp. 179, 195, Nicol, The despotate of Epiros, pp. 10-11.

نصب ميخائيل دوقاس نفسه حاكما مستقلا على ابيروس ، ولكن لكي يؤكـــد منزلته الجـــديدة أخذ لقب ديسبوت Despot (١) ، بل وطالب ميخائيل باعتباره ابن عم الامبراطورين اسحق الثاني والكسيوس الثالث بلقب الامبراطـــور ولكن كان لابد من تصديق رسمي وخاصة بأنه قد استقبل عند وصوله الى ابيروس كزائر ملكي ، وحصل ميخائيل على هذا التصديق بالفعل من الامبراطور الكسيوس الثالث الذي اعترف رسميا بامارة ابيروس ، وصدق على تبعيتها لميخائيـــل وخلفائه (٢) .

ويبدو أن ميخائيل دوقاس أقام سيادته في ابيروس بدون مقاومة هذا الى جانب أن ثروات اليونانيين في ابيروس أمدت ميخائيل بدخل كبير من المـــال مكنه من الاحتفاظ بجيش ضخم فمن ناحية نجح ميخائيل في أن يحول سكـــان ابيروس هؤلاء الجبليين القساة الى جنود منظمة مأجورة اذ تعهد بأن يقـــدم لهم راتبا سخيا . ومن ناحية أخرى ، كان ميخائيل قادرا على أن يزيد مـــن عدد جيشه وذلك بجذب العديد من المرتزقة المأجورة الى خدمته ، ونجـــح فضلا في أن يضم اليه عدد من الفرسان الصليبيين والمغامرين ممن تركوا جانـــب اخوانهم وعملوا لحساب اعدائهم البيزنطيين (٣) .

وجبالا تفقل في النهاية الطبيعة الجغرافية لابيروس التي حمت ميخائيل من الهجوم المباشر وسمحت له بالوقت الكافي لاستكمال استعداداته للدفـــاع ، وجمع شمل رعاياه قبل أن يشرع في قتال اللاتين ، فابيروس تمتاز بأنها اقليـــم مرتفع ارتفاعا يتناسب والدفاع عنها ، ويتلاءم والحفاظ على دولة مستقلة حديثـــة

---

١) عن منصب الديسبوت انظر ما سبق في الفصل الاول ص ٤٢ ، حاشية ٢

٢) Nicol, The despotate of Epiros, pp. 13-15.,
Leenertz, " Aux origines despotat d'Epire " dans Byzantion (1973) p. 366.,
Stiernon, " Les origines du despotate d Epire" dans Revue des Etudes Byzantines, T. 17 (1959) p. 122.

٣) Bréhier, op. cit., I, p.372., Nicol, op. cit., p. 16., Finlay, op. cit., 4, p. 122.

الشفقة ، ولذا كان ميخائيل " واثقا من قوة اقليمه الدفاعية " (١) .

هكذا توفرت لميخائيل دوقاس العوامل — سواء كانت طبيعية أم بشرية — التى ساعدته أكثر من غيره من مؤسسى الامبراطوريات البيزنطية الاخرى فى المنفى على أن يحكم امارة ابيروس وعلى أن يواجه هجمات اللاتين على امارته ، بل وشجعت هذه العوامل خلفاءه على القيام بمحاولات عدة لاسترداد القسطنطينية .

وقامت ثالث الحكومات البيزنطية التى — التى أسسها البيزنطيون عقب سقوط القسطنطينية — فى طرابيزون Trebizond ، وتقع مدينة طرابيزون على الشواطئ الجنوبية الشرقية للبحر الاسود ، وتاريخ تلك المدينة ليس وليد عام ١٢٠٤م فقد احتلت هذه المدينة مكانة هامة على مر العصور ، ففى عصر الامبراطورية الرومانية كانت طرابيزون الميناء الذى وصلت عن طريقه المنتجات الرومانية الى آسيا ، وأصبحت واحدة من الاسواق الرئيسية لمنتجات الشرق (٢) . واستمرت طرابيزون فى العصر البيزنطى تتمتع بشهرة تجارية واسعة اذ كانت تمر بها منتجات بلاد الروم التى ترد الى الاقاليم الاسلامية الشمالية بخاصة القماش النفيس ، وفى ذلك يقول الاصطخرى : " ولهم مدخل الى الروم يعرف بطرابزنده ، يجتمع فيه التجار فيدخلون بلد الروم للتجارة فما وقع من ديابيج وبزيون وثياب الروم الى تلك النواحى فمن طرابزنده " (٣) .

نجح الاخوان الكسيوس وداود — ابنا مانويل كومنين وحفيدا الامبراطور اندرونيق الاول كومنين (١١٨٢ — ١١٨٥م) — فى الهرب من القسطنطينية أثناء ثورة عام ١١٨٥م التى أدت الى قتل ابيهما وجدهما ووضعها مينة بشعة

(١ Gregoras, Byzantina Historia, in C.S.H. B., p. 13.

(٢ Miller, Trebizond, p. 9 , Finlay, op. cit., 4, p. 309.

٣) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٨٨ ، ابن حوقل ، صورة الارض ، ق ١ ، ص ٣٤٤ .

وصل كل من الكسيوس وداود الى جورجيا فى السنوات الاولى من حكم تامار Thamar أو تامارا Tamara(١) التى كانت تمت لهما بصلة قرابة وثيقة اذ كانت عمتهما على حد قول بعض المؤرخين (٢) .

ساهمت تامارا بدور ايجابى وفعال فى تأسيس امبراطورية طرابيزون ، فقد انتهزت فرصة استيلاء الصليبيين الاول على القسطنطينية فى يوليو ١٢٠٣ م وعزل الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث (١١٩٥ ـ ١٢٠٣م) وأرسلت الكسيوس وداود على رأس حملة الى طرابيزون للاستيلاء عليها وكانت تهدف من وراء هذه الحملة مضايقة آل انجيلوس والانتقام منهم لما حل بأسرتها (آل كومنين) على أيديهم . ويتضح من ذلك أن حملة الكسيوس وداود على طرابيزون والتى بدأت فى ابريل ١٢٠٤م كانت انجاز تامارا الشخصى فهى التى أعدتها وعهدت الى الكسيوس وداود بقيادتها (٣) .

سار الكسيوس وبصحبته أخيه على رأس الحملة من جورجيا متجها الى طرابيزون ، ويبدو فى ظاهر الامر أنه احتلها دون مقاومة جدية أو عنيفة ولعل السبب فى ذلك أن حاكم طرابيزون لم يكن باستطاعته أن يوقف زحف الكسيوس نظرا لحالة الفوضى الداخلية وتمرد سكان المدينة على أوضاعهم السياسية والاقتصادية ، فضلا عن أن اقليم طرابيزون كان معزولا عن سائر أقاليم الامبراطورية البيزنطية الاخرى ، وبالتالى لم يجد حاكم طرابيزون من يقدم له العون فى صد الكسيوس (٤) .

---

١) تامارا ملكة جورجيا هى العنصر الحاسم فى تكوين امبراطورية طرابيزون بل واهم شخصية قامت بدور ايجابى فى قيام امبراطورية طرابيزون . ولمزيد من التفاصيل عن تامارا انظر :

Vasiliev, " The foundation of the empire of Trebizond" in Speculum, Vol. XI (1936) pp. 12-13.

٢) Ibid., pp. 17-18., Miller, Trebizond, p.14, Finaly, op. cit., 4, p.318.

٣) عن الاسباب التى دفعت تامارا الى المساهمة فى تأسيس امبراطورية طرابيزون انظر :

Vasiliev, TheFoundation of the empire of Trebizond, pp. 18-19.

٤) Finlay, op. cit., 4, pp.318-319.

ساعدت هذه الظروف الكسيوس في دخول طرابيزون واحتلالها بسهولـــة ، وما لبث أن توج الكسيوس امبراطورا في طرابيزون ، وتقلد لقب الاباطـــــــــرة البيزنطيين .

" basilieus et autocrator des Romains Grand Comenene"

وهو حينئذ لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ذكيا نشطا ثاقب الفكر علـــى نحو ما وصفه ميللر (١) . وكان تتويج الكسيوس امبراطورا على طرابيزون مؤشـرا على قيام امبراطورية طرابيزون ثالث امبراطوريات المنفى .

* * *

---

(١) Miller, Trebizond, p. 15.

الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية نيقية (١٢٠٤ ـ ١٢٥٤م) :

أخذت امبراطورية نيقيه على عاتقها منذ اللحظة الاولى لقيامها ، العمل على تقويض الحكم اللاتيني في القسطنطينية ، هذا في الوقت الذى وضعت فيه الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية كهدف مباشر لها العمل على ابادة امبراطورية نيقيه في مهدها . وبالتالى لم يكن هناك مفر من الاحتكاك بين البيزنطيين في نيقية واللاتين في القسطنطينية .

وبدأ الصدام بينهما منذ البداية ، منذ أن قام ثيودور لاسكاريس (١٢٠٤ ـ ١٢٢٢م) بوضع قواعد امبراطوريته الجديدة في آسيا الصغرى ، اذ عبر القادة اللاتين البحر الى آسيا الصغرى ليفتحوا الاراضى والاقطاعات التى تسلم الامبراطور اللاتيني بلدوين فلاندر (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥م) بتوزيعها عليهم على أثر تتويجه امبراطورا[(١)] ، فعبر بطرس براشيو Pierre de Brachoux وباين أورليان Payen Orleans بحر مرمرة مع مائة وعشرين فارسا من أتباع الكونت بلوا Blois وأنصاره ، وذلك للاستيلاء على دوقية نيقيه التى خصه بها الامبراطور ، وتقدم هنرى فلاندر شقيق الامبراطور بلدوين الى جنوب الدردنيل نحو أدراميتون Adramyttion[(٢)] مع عدد مماثل من الفرسان ، وسار ماكير سانت مينولد Macaire Saint Menehould نحو نيقوميديا ـ في بيثينيا شمال غرب آسيا الصغرى مع مائة من فرسان الامبراطور أيضا (نوفمبر ١٢٠٤م)[(٣)] .

هدد تقدم بطرس براشيو الموجه أساسا ضد نيقيه جزءا من قاعدة ثيودور لاسكاريس في بيجى Pigaé ـ على مصب نهر جرانيكو فيما وراء البسفور ـ

---

١) عن هذه الاراضى والاقطاعات ، انظر الفصل الاول ص ٤٢ ـ ٤٣ .

٢) تقع ادراميتون في اقليم ميسيا Mysia في شمال غرب آسيا الصغرى على مقربة من شواطئ بحر ايجه . انظر :
Ramsay, The Historical Geography of Aisa Minor, pp. 106, 119.

٣) Villehardouin, op. cit;., p. 181., Patrologia Latina, T.215, Col.707.

فجمع ثيودور رجاله واشتبك مع اللاتين فى ١٦ ديسمبر ١٢٠٤ م عند بلدة بيمانينون Poimeninon فى اقليم ميسيا Mysia شمال آسيا الصغرى — حيث دارت الدائرة فيها على لاسكاريس ورجاله على الرغم من تفوقهم العددى ووقف فيلهاردوان يهلل فرحا بهذا الانتصار رشياره قائلا : "كان هذا الانتصار معجزة من الله ، فعلى الرغم من أن لاسكاريس ورجاله كانوا من الكثرة بمكان ونحن لانملك سوى أربعمائة فارس ، الا أننا انتصرنا على اليونانيين (البيزنطيين) وأنزلنا بهم خسائر فادحة ، وعادت لنا خلال أسبوع مساحات كبيرة من الأراضى " . (١)

أجمل فيلهاردوان فى عبارته هذه آثار هذا الانتصار ، انتصار اللاتين على ثيودور لاسكاريس فى بيمانينون ، فعلى أثر هذا الانتصار لم يصمد أحد لزحف اللاتين ، وأتى سكان المدن حاملين أمامهم الصلبان والصور المقدسة يهنئون خصومهم ، وساعد ذلك اللاتين على أن يفتحوا خلال وقت قصير جدا مدن لوباديوم Lopadion (Lupaire) فى اقليم بيثينيا — وأبولونيا Apollonia بل وهددوا بروسه Pruss (٢) — مقر ثيودور لاسكاريس نفسها . (٣)

تقدم ماكير سانت مينولد وهنرى فلاندر من جانبهما فى الوقت نفسه بنجاح وانتصار ، فاحتل الأول نيقوميديا التى تركها البيزنطيون عندما سمعوا خبر اقترابه فحصنها ماكير سانت مينولد وجعلها قاعدة للعمليات العسكرية ، وعبر

(١ Villehardouin, op. cit., pp. 189-191., Longnon. L'empire Latin, 68.

(٢ مدن لوباديوم وأبولونيا وبروسه تقع جميعها فى اقليم بيثينيا فى شمال غرب آسيا الصغرى ، على طول الشاطئ الجنوبى لخليج نيقوميديا ، انظر : Ramsay, op. cit., pp. 179-181.

(٣ Villehardouin, op. cit., pp. 189-191 Nicetas, Historia, in C.S.H.B. p. 786.

الثاني وهو هنري الدردنيل بدوره ، وأقام في مدينة أبيدوس Abydos (Avie) على الدردنيل وهي مدينة غنية بالقمح والمؤن مما ساعد هنري على ملاقاة البيزنطيين [١] ترك هنري أبيدوس واندفع نحو ادرامیتون – على بعد ٨٠ ك . م من أبيدوس – فوصلها بعد يومين ، وعندما سمع لاسكاريس بذلك جهز جيشا كبيرا وعهد بقيادته الى أخيه قسطنطين ، واتجه قسطنطين بالجيش نحو ادراميتون (١٩ مارس ١٢٠٥ م) غير أنه تردد كثيرا في أن يبدأ بالهجوم فهاجمه اللاتين وعلى رأسهم هنري هجمة رجل واحد ، ولم يستطع قسطنطين تحمل الصدمة هو ورجاله فلاذوا بالفرار ، غير أن عددا كبيرا منهم وقع ما بين قتيل وأسير ، وخضعت ادراميتون لهنري ودفعت لها الجزية . [٢]

استمر اللاتين لاشهر قليلة يكتسحون كل ما هو أمامهم ونجحوا في أعمالهم التمهيدية لاخضاع آسيا الصغرى نجاحا كبيرا ، وكان على ثيودور لاسكاريس أن يحارب معركة خاسرة ، وبدا أن أمل البيزنطيين في الاحتفاظ بآسيا الصغرى قد انتهى تماما ، وأن الامبراطورية البيزنطية التي أعلنت في نيقيه قاب قوسين أو أدنى من الانهيار [٣] .

على أن اللاتين لم يستطيعوا الاستمرار في فتوحاتهم طويلا ، اذ ما لبثوا أن توقفوا فجأة على أثر كارثة أدريانوبل Adrianople عام ١٢٠٥ م [٤] التي

---

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 185-87.

(٢) Ibid, pp. 191, 93, Longnon, op. cit., p. 69.
Lebeau, Histoire du Bas-Empire, T.17, p.205.

(٣) Cam. Med. Hist, 4, p.424.

(٤) لمزيد من التفاصيل عن معركة أدريانوبل ١٢٠٥ م انظر : جوزيف نسيم يوسف كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٥٠ .
Villehardouin, op. cit., pp.205-213., Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 24-25., L'Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occidentaux, T.2., p. 282. Gregoras, op. cit, in C.S.H.B. pp. 15-16.

المحتمهم على أيدى البلغار فى البلقان ، ودعت الامبراطور اللاتينى بلدوين فلاندر الى استدعاء جيوشه التى عبرت آسيا الصغرى لصد الهجوم البلغارى ، الذى اسفر عن أسر بلدوين ، كما سقط فى ميدان القتال صفوة فرسان اللاتين وعلى رأسهم الكونت لويس بلوا Louis Blois (١) - وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة الى اللاتين فى القسطنطينية ، استولى عليهم الذعر والفزع ، وغادر عدد كبير منهم القسطنطينية فى ١٧ أبريل عام ١٢٠٥م على الرغم من توسلات المندوب البابوى وكونون بيتون Conon Bethune الذى عهد اليه بحراسة القسطنطينية . وكانت النتيجة أن انهارت قوى من بقى من اللاتين بالقسطنطينية وازداد مركز الامبراطورية اللاتينية الناشئة حرجا بعد كارثة ادريانوبل عام ١٢٠٥م (٢) .

وعلى عكس ذلك كانت كارثة أدريانوبل ١٢٠٥م فاتحة خير على امبراطورية نيقيه ، فمن ناحية انقذت لاسكاريس من القضاء على دولته بعد أن اضطر اللاتين الى ترك عمليات فتح آسيا الصغرى ، فلم يعد فى استطاعتهم أن يقاتلوا فى جبهتين (البلغار ولاسكاريس) فى آن واحد بعد أن أصبحت الامبراطورية اللاتينية فى عامها الاول تعانى من نقص فى الرجال اذ فقدت زهرة فرسانها فى قتال البلغار ، ورحل عنها عدد من الفرسان وبعض الجنود الى الغرب ومن ناحية أخرى ايقظت كارثة ادريانوبل عام ١٢٠٥م البيزنطيين فى البلقان - تراقيا ومقدونيا وتساليا - فبدأوا يحسون بدور نيقيه المقبل فى مواجهة اللاتين واعتقدوا أنه من الممكن أن يتقوا الى جوار نيقيه لمواجهتهم (٣) .

---

(١) Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p. 814.
(٢) Villehardouin, op. cit., pp. 223-25.
(٣) Vasiliev, op. cit., 2, p. 180.

استغل ثيودور لاسكاريس فرصة انسحاب اللاتين من آسيا الصغرى ، وضم معظم الاراضى التى فتحها اللاتين هناك فيما عدا بيجى Pigne ، ولم يعد للاتين أكثر من سليمبريا Salembrie ورودستو Rodesto (١) . وفى هذه الظروف القاسية ، وصل هنرى فلاندر بفرقته من آسيا الصغرى وذلك على أمل انقاذ أخيه الامبراطور بلدوين ومساعدته فى قتال البلغار ، ولكن قبل أن يصل هنرى الى ادريانوبل — على بعد ٢٠٠ ك ٠ م من القسطنطينية — علم بهلاك أخيه مع زهرة فرسان اللاتين ، وهنا اتجه نحو رودستو على شاطئ بحر مرمرة ، حيث لحق به بقايا فرسان اللاتين المنسحبين من أدريانوبل ، وعلى رأسهم دوج البندقية داندولو Dandolo وخليفة بونيفاس مارشال شمبانيا ورومانيا (٢) ، وما لبث أن انضم اليهم جانب كبير من قادة الصليبيين ممن تركوا آسيا الصغرى بناء على طلب الامبراطور بلدوين فلاندر ، وبهذا وصل هنرى الى بحر مرمرة مع أكثر من مائتين من الفرسان (٣) .

ونظرا للغموض الذى اكتنف مصير الامبراطور بلدوين — أول امبراطور لاتينى يعتلى عرش القسطنطينية — على أثر معركة ادريانوبل قرر اللاتين تعيين أخيه هنرى فلاندر وصيا على الامبراطورية حتى يتم التأكد من مصير بلدوين ، وقد غير هذا التعيين وجهة الاحداث ، اذ كان هنرى كما وصفته المصادر البيزنطية وفى مقدمتها أكروبوليتا " رجلا شجاعا قويا ، وقائدا عسكريا بارعا " (٤) .

١) تقع كل من سليمبريا وردوستو على الساحل الشمالى لبحر مرمرة ، وتبعد الاولى ٦٠ ك ٠ م الى الغرب من القسطنطينية فى حين تبعد الثانية ١٢٥ ك ٠ م الى الغرب من القسطنطينية أيضا انظر :
Henri Valenciennes, (ed) Longnon, p.56, note3, p.57, note I.

٢) رومانيا ويقصد بها الامبراطورية الرومانية فى الشرق ، هذا فى حين يطلق البعض اسم رومانيا على الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وحول هذا الموضوع انظر :
Wolff, "Romania, The latin Empire of Constantinople" in speculum (1948), pp. 1-33.

٣) Villehardouin, op. cit., pp. 227-29.

٤) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.29.

واجه هنرى ظروف الامبراطورية اللاتينية العصيبة بشجاعة واتقد الموقف ، ففى خلال فترة وصايته التى دامت عام ، كانت أولى الخطوات التى اتخذها عقب وصوله الى القسطنطينية أن ناشد الغرب العون والمساعدة ، وطلب من البابا أن يمنح أولئك الذين يخرجون لمساعدته الامتيازات التى كانت تمنح عادة للمحاربين الصليبيين والمدافعين عن الاراضى المقدسة [(١)] . ثم خاض هنرى حربا ضارية مع البلغار [(٢)] ، واتاح انشغاله بهذه الحرب الفرصة لثيودور لاسكاريس ليستعيد قواه بعد هزيمته الاولى على أيدى اللاتين [(٣)] .

وما لبث أن انتخب هنرى امبراطورا للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى أغسطس ١٢٠٦م خلفا لاخيه بلدوين الذى تأكد موته . وعقب الانتخاب وجه الامبراطور هنرى فلاندر (١٢٠٦ ـ ١٢١٦م) جهوده نحو ثيودور لاسكاريس وخاصة بعد أن شعر بالهدوء من ناحية البلغار . ويختلف المؤرخون فى السبب الذى دعاه الى ذلك ، فيرى فيليها ردوان أن لاسكاريس نقض هدنة كانت بينه وبين الامبراطور هنرى " ، ويرى فازيليفاف "كان يهدف من وراء ذلك الى ضم املاك نيقيه الى املاك الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية " ويرى ديل ان اللاتين اعادوا الهجوم على آسيا الصغرى بتحريض من داود كومنين امبراطور طرابيزون الذى كان قلقا من جراء توسع ثيودور لاسكاريس ، وحنقا على تقلده اللقب الامبراطورى حديثا " [(٤)] .

ويبدو أن هذه الاسباب مجتمعة هى التى دعت الامبراطور هنرى فى أواخر عام ١٢٠٦م الى ارسال كتيبتين احدهما الى بيجى على مصب نهر جرانيكو Granique فيما وراء البسفور تحت قيادة بطرس براشيو Pierre Bracheux

١) انظر خطاب الامبراطور هنرى المنشور فى :
Patrologia Latina, T.215, Col. 709.,
Villehardouin, op. cit., p. 231.

٢) انظر مايلى الفصل الخامس ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

٣) Cam. Med. Hist, 4, part. I, p. 294.

٤) Villehardouin, op. cit., p. 271., Vasiliev, op. cit., 2, p. 185., Cam. Med. Hist., 4, p. 425.

بمساعدة بابن أورليان Payen Orleans وانسو كايو Anseau Cayeux والكتيبة الثانية أرسلها الى نيقوميديا — التى تقع على بعد ٨٠ ك ٠م من نيقية — بصحبة السنشيال تيرى (١) من لوز Thierry de Losj. ومن بيجس انتقل بطرس براشيو الى كيزكو Cyzique على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة، وأقام التحصينات عند مدخلها . هذا فى الوقت الذى حصن فيه تيرى لوز من جانبه كنيسة القديسة صوفيا فى نيقوميديا (٢) .

وقام اللاتين بشن اغارات متكررة على أراضى ثيودور لاسكاريس من هاتين القاعدتين اللتين أحدهما فى الشمال والاخرى فى الجنوب الغربى ، واحتلوا ركنا من دولته الصغيرة . وبما ان صهر ثيودور لاسكاريس بما يمارسه بطرس براشيو وتيرى لوز من ضغط عليه حتى التجأ الى السياسة البيزنطية المعتادة ليبحث من جانب آخر عن ايجاد خصم للاتين يخفف عنه ثقل الحرب ، ووجد ضالته المنشودة فى البلغار ، فسعى للاتصال بقيصرهم كالوجان Kalojan (١١٩٨ — ١٢٠٧ م) وأرسل يخبره بأن الامبراطور اللاتينى هنرى فلاندر وجه معظم قواته الى ميسيا Mysia — فى شمال غرب آسيا الصغرى — وليس لديه ما يحميه فى القسطنطينية سوى القليل من الفرسان ، وهذه فرصته للتغلب عليه وعلى اللاتين هناك (٣) .

جمع القيصر البلغارى جيشا كبيرا ، وغزا الامبراطورية اللاتينية فى مارس ١٢٠٧م ، وعندئذ كان من الضرورى أن يستدعى الامبراطور هنرى الجانب الاكبر من فرسانه الموجودين فى كيزكو وفى نيقوميديا ، فاستغل ثيودور لاسكاريس

١) السنشيال Sénéchal ، هو وكيل المال الاقطاعى ، ويتولى الاشراف على المواكب والاحتفالات ، ويرأس ديوان الجند ويأمر بصرف مرتباتهم ، وله النظر فى أمر الحصون والقلاع ، ونقل الحاميات من قلعة الى أخرى ، انظر : السيد الباز العرينى ، الاقطاع الحربى عند الصليبيين ، ص ٢٢ ، طبعة ١٥ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ ؛ Hendrickx, "Les institutions de L'empire latin – La cour et les dignitaires", dans Byzantina T.9.(1977) pp.196-98.

٢) Villehardouin, op. cit., pp. 271-73.

٣) Ibid., p. 275., Longnon, L'empire latin, p.97.

ضعف الحاميات اللاتينية في كيزكو وفي كيفوتوس Kivotos على مقربة من نيقوميديا — وضرب عليها الحصار برا وبحرا (مارس ١٢٠٧ م) . غير أن الامبراطور هنري نجح بمساعدة باروناته كونون بيتون Conon Béthune وفيلهاردوان وميلون لوبريبانت Millon Le Brebant وأخرين في نقل المساعدات اللازمة للمحاصرين . فاضطر ثيودور لاسكاريس لرفع الحصار عن كيزكو وكيفوتوس وعاد الى بلاده (١) .

وبعد أن فشل ثيودور لاسكاريس في حصار الحاميات اللاتينية في كيزكو وكيفوتوس ، اتجه نحو نيقوميديا نفسها وحاصرها . وهذه المرة لم يستطيع القائد اللاتيني تيري لوز ورجاله تحمل ضغط ثيودور اذ أخذهم على غرة . فمني اللاتين وجرح تيري في وجهه وكاد يموت وأسر غالبية رجاله . ولم ينجح في الفرار الا القليل منهم (٢) .

وما ان علم الامبراطور هنري بأسر تيري لوز ورجاله حتى عبر البسفور واتجه نحو نيقوميديا لانقاذهم . عندئذ تراجع ثيودور لاسكاريس الى الوراء واتجه نحو عاصمته نيقيه . هذا في حين أقام الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر في نيقوميديا مدة خمسة أيام . وعندئذ أرسل ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه رسله يطلبون من الامبراطور هنري عقد هدنه لمدة عامين (١٢٠٧ — ١٢٠٩ م) بشرط أن يتركه الامبراطور هنري يهدم الحصون التي أقامها القادة اللاتينيون في كيزكو وفي قلعة كنيسة القديسة صوفيا في نيقوميديا . ولقاء ذلك يرد له ثيودور جميع الاسرى اللاتين (٣) .

كانت طبيعة الموقف تحتم على الامبراطور هنري وعلى اللاتين أن يرحبوا بهذه

---

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 279-87., Ahrweiler, Byzance et la mer, pp.311-12.

(٢) Villehardouin, pp. 289-91.

(٣) Ibid, pp. 291-93.

الهدنة ، اذ أنهم لن يستطيعوا الاستمرار في خوض غمار حربين معا في آن واحد ضد امبراطور نيقيه وضد القيصر البلغاري ، وبهما صديقون حميمين الى حد ما ، طالما يتشاركان معا لحرب اللاتين ، ولا شك أن هذا كان سببا قويا حدا بالامبراطور هنري واللاتين في القسطنطينية الى قبول مشروع الهدنة الذي عرضه ثيودور لاسكاريس (١) .

وبعد موافقة كل من الامبراطور هنري وثيودور لاسكاريس على عقد تلك الهدنة ، أخذت طريقها الى التنفيذ ، فطلب الامبراطور اللاتيني هنري من باروناته تسليمه كيزكو - على ساحل بحر مرمرة - التي سلمها بنفسه لامبراطور نيقيه ثيودور مع قلعة كنيسة القديسة صوفيا في نيقوميديا ، وعلى أثر ذلك أطلق ثيودور سراح جميع الاسرى اللاتين وعلى رأسهم تيري لوز ، وعاد الامبراطور هنري الى عاصمته بعد أن اطمئن من جانب ثيودور لاسكاريس ، وبدأ يوجه انظاره نحو انقاذ أدريانوبل من أيدي البلغار (٢) .

على ان هذا كانت هدنة عام ١٢٠٧ م بين اللاتين في القسطنطينية وبين البيزنطيين في نيقيه قد حققت رغبة الامبراطور هنري في التفرغ بعض الشيء لقتال البلغار الا أنها حققت تقريبا اهداف ثيودور لاسكاريس في أن يطرد اللاتين من آسيا الصغرى ، ويتخلص من حملاتهم المستمرة عليهما ، بل ووسع املاكه داخلهما (٣)

نقض ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه الهدنة التي وقعها مع اللاتين في القسطنطينية وذلك عندما شن الحرب في سبتمبر ١٢٠٨ م على داود كومنين

---

(١) Villehardouin, op. cit., p. 293-, Acropolitae, op. Cit., in C.S.H.B., p. 30.

(٢) Villehardouin, p. 293.

(٣) Setton, op. cit., 2, p. 205.

امبراطور طرابيزون وحليف اللاتين وفصل الامبراطور هنري وتابعه . وازاء ذلك انقلب الامبراطور هنري على امبراطورية نيقية وتحالف مع خصم ثيودور لاسكاريس وعدوه اللدود سلطان قونيه غياث الدين كيخسرو عام ١٢٠٩م ، ويبدو أن هذا التحالف كان سريا لم يذكر المؤرخون البيزنطيون عنه شيئا ، ولم يصلنا الا عن طريق خطاب الامبراطور هنري الى الاساقفة اللاتين والمؤرخ في ١٣ يناير عام ١٢١٢م وذلك في قوله : " ان سلطان قونيه ابرم معنا معاهدة صداقة وتحالف وتعهد بمساعدتنا على لاسكاريس " (١) .

ولم يدم هذا التحالف طويلا ، اذ أن الامبراطور هنري مالبث أن فقد حليفه غياث الدين كيخسرو فقد استطاع ثيودور لاسكاريس بمساعدة ٨٠٠ من اللاتين (٢) الذين عملوا في خدمته رغم الحرمان البابوي أن يتخلص من خصمه العنيد سلطان قونيه غياث الدين كيخسرو بعد معركة دامية أمام انطاكية Antioche على نهر الميندر Meandre في غرب آسيا الصغرى عام ١٢١١م ، اذ سقط السلطان السلجوقي قتيلا وتشتت شمل رجاله ، ودخل ثيودور لاسكاريس انطاكية ظافرا ، بل وأسر ثيودور حميه الكسيوس الثالث ، الذي التجأ الى قونيه طالبا المساعدة من غياث الدين لاسترداد عرشه المغتصب وساعد غياث الدين في معركة انطاكية — ووضعه ثيودور في دير من أديرة نيقيه ليعيش فيه بقية حياته (٣)

(١) Prinzing, " Der brief Kaiser Heinrichs von Konstantinople von 13 Januar 1212?" in Byzantion (1973) p. 414.

(٢) يذكر أكروبوليتا مؤرخ نيقية انهم من "الايطاليين" هذا في حين يذكر المؤلف المجهول في تاريخ المورة "أنهم من الاسبان وان البطريرك والشعب البيزنطي قد رفعهم الى مصاف القديسين والشهداء" . انظر : Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 18., Chronique de Morée, p. 15.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن معركة انطاكية انظر : Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.17-20, Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., pp. 17-21., Houtsma, Histoire des seldjoucides d'Asie Mineure d'aprés Ibin Bibi, ص ٣٦ـ٣٧

ابن واصل . مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٥ ، جـ ١ ، ص ٢٨ .

وكان لانتصار ثيودور لاسكاريس في معركة انطاكية ١٢١١م صدى ورنين عميقين في العالم البيزنطي ، اذ وطد ثيودور بهذا الانتصار دعائم امبراطورية نيقية ، وجمع بين البيزنطيين في آسيا وفي أوربا ووحد صفوفهم ، وبدأ البيزنطيون ينظرون الى نيقية على انها مركز لاعادة العاصمة البيزنطية ، ونظم المؤرخ نيقتاس خونياتس بهذه المناسبة قصيدة مدح واطراء لثيودور لاسكاريس المنتصر على الاتراك السلاجقة ، هذا بينما وجه أخيه المطران ميخائيل خونياتس خطابا عبر فيه عن أمله في أن يرى الامبراطور ثيودور يحتل عرش قسطنطين في القسطنطينية المحررة (١) .

أتاح هذا الانتصار لثيودور لاسكاريس فرصة التفرغ للاتين ، فهو من ناحية قضى على الامبراطور الكسيوس الثالث المطالب بعرش بيزنطة ، ومن ناحية أخرى تخلص من أقرب أعدائه اليه وأشدهم خطرا عليه وهم السلاجقة ، وعقد مع السلطان السلجوقي الجديد كيكاوس الاول اتفاقا للصلح بينهما ، ومن ثم أصبح بوسع ثيودور لاسكاريس الان أن يركز جهوده نحو اللاتين (٢) .

كان انتصار ثيودور لاسكاريس على السلاجقة في انطاكية عام ١٢١١م مصدر قلق واضطراب بل وتهديد للاتين في القسطنطينية ، اذ كان يحمل بين طياته فكرة الهجوم على القسطنطينية بمحاولة استعادتها ، ويبدو ذلك واضحا في منشور الامبراطور هنري في يناير عام ١٢١٢م والذي جاء به أن الامبراطور هنري ـ امام تهديد ثيودور لاسكاريس ـ لم ينتظر حتى يزحف ثيودور على القسطنطينية بل عبر هو ورجاله البسفور ، ونزل عند بيجي على نهر جرانيكوس ـ وعندئذ هرع لاسكاريس لمواجهة اللاتين بجيش حاشد أمام تلك المدينة ، غير

(١) Longnon, op. cit., p. 126, Vasiliev, op. cit., 2, pp. 186-87, Cam. Med. Hist, 4, p. 484.

(٢) Cam. Med. Hist, 4, Part. I, p. 296.

أنه سوان مالاذ بالفرار الى أحد الجبال المجاورة ولكنه لم يتمكن من الهرب بالسرعة المنشودة ، فطارده اللاتين وأوقعوا بمؤخرة جيشه خسائر فادحة ، ثم تجول الامبراطور هنرى ورجاله فى المنطقة ، ولم يجرؤ لاسكاريس على مهاجمتهم واكتفى بالتحرش بالدوريات التى كانوا يرسلونها لجمع المؤن ونقلها . وأمام هذا التراخى من جانب ثيودور لاسكاريس تذمر أهل مدينة بيجى ، وأعلنوا انه اذا لم يدافع ثيودور لاسكاريس عنهم فسوف يستسلمون للاتين (١) .

عندئذ جمع ثيودور لاسكاريس جيشا كبيرا قويا ، يقدر بحوالى ألف وسبعمائة من الفرسان المسلحين الموزعين على تسعين وحدة ، من بينها ثمان وحدات من اللاتين الذين انضموا الى ثيودور رغم تحريم البابا . وفى ١٥ أكتوبر عام ١٢١١ م ، قابل لاسكاريس بجيشه هذا اللاتين بالقرب من نهر لوباركوس (Luparcos) (Rhyndacus) فى آسيا الصغرى وهو لايبعد كثيرا عن بروسه (٢) . وهزم جيش اللاتين على الرغم من قلته العددية لقاء العدو متصلا الصدمة الاولى بحماسة عظيمة ، وكانت النتيجة أن هرب جنود لاسكاريس كاشفين ظهورهم لطعنات سيوف اللاتين الذين تعقبوهم بعنف وجرأة متزايدة (٣) .

وهكذا فشلت محاولة ثيودور لاسكاريس الجادة للاستيلاء على القسطنطينية على أثر هزيمته على يد اللاتين عند نهر لوباركوس ، ومنذ ذلك الحين انهارت قوة امبراطور نيقية انهيارا لم يجرؤ بعده على مواجهة اللاتين ، وبدأت البلاد تخضع لهم وتستسلم ، وليس أدل على ذلك من أن اللاتين لم يواجهوا مقاومة جادة سوى من بعض الحصون والمدن مثل بويمانينون Poimanenon وليمتياناى Lentiana فى اقليم ميسيا فى شمال غرب آسيا الصغرى (٤) .

---

١) انظر نص الخطاب فى :
Prinzing, Der brief kaiser Heinrichs von konstant-inople, von 13 Januar (1212) , p. 415.

٢) Cam. Med. Hist, 4, Part.I., p. 300.

٣) لمزيد من التفاصيل انظر :
Prinzing, Der brief kaiser Heinrichs,pp.416-17.

٤) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B. , p. 31.

واذا كان الامبراطور هنرى قد نجح فى الاستيلاء على المدينة الاولى وهى بوبمانينون بدون مشقة فان المدينة الثانية وهى ليتياط قاومت بشجاعة ودافع عنها سكانها دفاعا مجيدا وقاد عملية الدفاع هذه اندرونيكوس باليولوجوس Andronicos Palaeologos صهر الامبراطور ثيودور لاسكاريس ، وأخيه دريموكايتس Dermokaites ، ورغم ذلك استمر حصار اللاتين لمدينة ليتياط هذه مدة أربعين يوما ، عاد بعدها الهجوم على المدينة ثانية بناء على رغبة الامبراطور هنرى ، ونجح اللاتين هذه المرة فى احداث ثغرة بأسوار تلك المدينة ، فعانت من قلة الماء وتفشى المرض بين أهلها ولم يكن أمامهم من وسيلة سوى الاستسلام ، ومضى الامبراطور هنرى بعد ذلك فى طريقه ظافرا ، واتجه نحو الجنوب للاستيلاء على برجاموس Pergamum ونيمفايوم Nymphaeum — على مقربة من شواطئ بحر ايجه — وأماكن أخرى (١) .

وبعد هذه الانتصارات أصبح الامبراطور هنرى فى حاجة الى مزيد من الفرق الحربية اذ أنه لم يعد يقوى على حماية خط الدفاع الممتد من الصورة (البيلوبونيز) غربا الى البحر الاسود شرقا ، ومن بلغاريا شمالا الى حدود سلطنة الاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى جنوبا ، ولذلك وجه الامبراطور هنرى من برجاموس خطابا عاما الى جميع اصدقائه فى الغرب والى الاساقفة اللاتين فى ١٣ يناير ١٢١٢ ، ليعلن لهم انتصاراته ويطلب منهم العون والمساعدة من المال والرجال قائلا لهم : " اعلموا انه لا ينقصنا للنصر النهائى لتوطيد أركان الامبراطورية الا جمهور من اللاتين نوزع عليهم الاراضى التى فتحناها لان الحصول على الارض ليس مهما ان لم يكن هناك من يحافظ عليها " (٢) .

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.31 .

(٢) انظر خطاب الامبراطور هنرى فى :

Prinzing, Der brief Kaiser Heinrichs, p. 418.

وبالعربية فى الملاحق .

لم يستجب الشعب بحماس كبير لنداء الامبراطور هنرى . ولعل هذا ما دعا الامبراطور هنرى الى أن يقرر فى النهاية العمل على الاقلال من خسائره بأن يؤثر السلام على الحرب وأن يعقد اتفاقا مع ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه . وفى ديسمبر عام ١٢١٤م وقع الامبراطوران هنرى وثيودور معاهدة للسلام فى نيمفايم — فى آسيا الصغرى على مقربة من شاطئ بحر ايجه — على أساس أن شبه الجزيرة المقابل للقسطنطينية والمحاط بخط مستقيم يبدأ من رأس خليج نيقوميديا حتى البحر الاسود وكل ساحل بحر مرمرة تظل فى حوزة اللاتين . وبذلك يكون الامبراطور هنرى قد تحكم فى المضايق . ولم تعد القسطنطينية تخشى أى هجوم من جانب البيزنطيين فى نيقيه من ناحية البحر (١) .

وعلى الرغم من أن الامبراطور هنرى كان هو المنتصر ، الا أنه ترك لثيودور لاسكاريس نيقيه عاصمة اقليم بيثينيا فى شمال غرب آسيا الصغرى . وفيلادلفيا عاصمة اقليم ليديا Lydie — فى جنوب غرب آسيا الصغرى — مع الجزء الاكبر من الاراضى البيزنطية حتى أصبحت امبراطورية نيقيه تمتد من هراقلية على البحر الاسود حتى خليج نيقوميديا . وأكثر من ذلك رفض الامبراطور هنرى أن يقوم بأى انتهاك للهيللينية وليس أدل على ذلك من أنه وضع نبيل بيزنطى على رأس الاقاليم التى استولى عليها مؤخرا وهو جورج ثيوفيلوبوس Theophilopobs الذى كان تحت تصرفه الفرق التى دافعت عن مدينة لينتياط Lentiana . ولم يتردد الامبراطور هنرى فى أن يدفع له أجره (٢) .

ومن أبرز النتائج التى ترتبت على معاهدة نيمفايم عام ١٢١٤م بين الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وامبراطورية نيقية هو اعتراف كل منها بحق

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B. p.30, Longnon, op. cit., p. 128.

(٢) Grousset, L'empire du Levant, p.457., Finlay, op. cit., 3, p.295.
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.32.

الاخرى فى الوجود ، وشعور كلاهما بعدم مقدرته على سحق خصمه ، اذ لم يكن لدى أى منهما القوة الكافية لتحقيق ذلك ، ومن ثم قام نوع من توازن القوى بين الطرفين ، وبدأت علاقات الود والصداقة تأخذ طريقها اليهما [١] .

سمحت معاهدة عام ١٢١٤ م بفترة من الهدوء والسلام بين امبراطورية نيقيه البيزنطية وبين الامبراطورية اللاتينية حتى بعد وفاة الامبراطور هنرى فلاندر عام ١٢١٦ م [٢] ، فى ظل حكم الامبراطورة يولاندا Yolande شقيقة الامبراطور هنرى فلاندر والتى حكمت الامبراطورية اللاتينية وصية على العرش لمدة عامين (١٢١٧ – ١٢١٩ م) – كان عملها الدبلوماسى الوحيد هو وقف موجة التقدم البيزنطى فى آسيا الصغرى وذلك بتدعيم الصلح الموقع مع امبراطور نيقيه ثيودور لاسكاريس عام ١٢١٤ م وتقويته وذلك باعطاء احدى بناتها وهى ماريا Maria كزوجة للامبراطور ثيودور ، وقبل الاخير ذلك ليس فقط لرغبته فى احباط طموح منافسه ثيودور انجيلوس (١٢١٥ – ١٢٣٠ م) أمير أبيروس ، ولكن ليضمن أيضا عند الضرورة حقوقه فى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية [٣] .

لا شك أن هذه الرابطة العائلية الجديدة دعمت علاقات المحبة والسلام بين القسطنطينية ونيقيه ، فقد ظلت تلك العلاقات من القوة بمكان من خلال اتفاقية السنوات الخمس التى عقدها جياكومو تيبو لو Giacomo Tiepolo حاكم المستعمرة البندقية فى القسطنطينية مع ثيودور لاسكاريس فى أغسطس عام ١٢١٩ م

(١ Ostrogorsky, op. cit., p.282.

٢) عن أختلاف الآراء حول موت الامبراطور هنرى انظر : روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٥٤
Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occidentaux, 2, p.289, note.j, Longnon, op. cit., pp. 150–52.

(٣ Acropolitae; op. cit., in C.S.H.B., p.29., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p.21., Longnon , op. cit., p.151

واعترف فيها البنادقة بثيودور لاسكاريس امبراطورا وربما تمت هذه الاتفاقية بتأثير زوجة ثيودور اللاتينية . ومنحت هذه الاتفاقية البنادقة حرية التجارة مع امبراطورية نيقيه مع الاعفاء من الرسوم الجمركية على واردتها . على حين التزم تجار نيقيه بأن يؤدوا الرسوم القانونية فى القسطنطينية والبندقية . ووعد لاسكاريس بألا يرسل سفنا حربية الى القسطنطينية بدون موافقة صريحة من البودستا Podestà حاكم المستعمرة البندقية فى القسطنطينية . ووعد أيضا بألا يستخدم جنودا مرتزقة من البنادقة الا بموافقته كذلك . وهكذا بدا أن وضع التعايش السلمى الذى كان الامبراطور هنرى قد ألقى ظله بمساعدته مع لاسكاريس قد رسخ واستقر بين الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية نيقيه (١) .

استغل ثيودور لاسكاريس وفاة الامبراطورة يولاندا عام ١٢١٩م . واضطراب احوال الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وطالب بحقه فى جزء من الامبراطورية كميراث لزوجته . واستخدم هذا الادعاء كحجة للهجوم على الممتلكات اللاتينية فى آسيا الصغرى . على أن انتخاب روبرت الكورتناى Robert Courtenay كامبراطور للقسطنطينية فى مارس ١٢٢١م ووصوله الى العاصمة . وضع حدا لهجمات ثيودور لاسكاريس، اذ تفاوض الجانبان واقترح لاسكاريس – ربما تحت تأثير زوجته ماريا الكورتناى – تحالفا مع روبرت ليمهد من التقارب بين نيقيه والقسطنطينية . وأن يدعم هذا التحالف بزواج ابنته أودوسيا Eudocia من روبرت الكورتناى امبراطور القسطنطينية الجديد .(٢)

---

(١) Longnon, op. cit., p. 157., Setton, op. cit., 2, p. 213., Ostrogorsky, op. cit., p. 282., Cam. Med. Hist., 4, Part. I., p. 307.

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 33., Longnon, op. cit., p.160., Cam. Med.Hist., 4, Part.I, p.307., Setton, op. cit., 2, p. 314., Finlay, op. cit.,3, p.298.

توفى ثيودور لاسكاريس مؤسس امبراطورية نيقية عام ١٢٢٢م دون أن يترك أبناء يخلفونه وكان قد أعلن قبل وفاته زوج ابنته الكبرى ايرين Irene وهو حنا دوقاس فاتاتزيس Ducas Vatatzes (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) امبراطورا . وكان اختيار ثيودور لحنا فاتاتزيس اختيارا حكيما ، فقد برهن فاتاتزيس على أنه أوفر أباطرة نيقية حظا من النجاح ، بل وانه واحد من أقدر حكام بيزنطة قاطبة . غير أن هذا الاختيار ذرع الحقد والكراهية فى نفس كل من الكسيوس واسحق اخوة ثيودور لاسكاريس ، فتآمرا على الامبراطور الجديد حنا فاتاتزيس غير أنهما فشلا فى أن ينتزعا منه العرش ، لذلك أخذا طريقهما الى القسطنطينية حيث أعلنا للامبراطور اللاتينى روبرت الكورتناى سخطهما واستيائهما على امبراطور نيقية الجديد حنا فاتاتزيس ، وطلب الكسيوس واسحق من الامبراطور روبرت المساعدة من أجل استرداد العرش منه [1] .

لم يكن بمقدور الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى ذلك الوقت أن تتآمر بعدد كبير من رجالها فى آسيا الصغرى ، اذ كانت الامبراطورية مهددة من ناحية الغرب بأمير ابيروس ثيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠م) الذى كان يمهد للاستيلاء على مملكة سالونيك ، كما أن اللاتين بحكم تجربتهم عام ١٢٠٣م ادركوا أن المطالب البيزنطى بالعرش والذى يساعده اللاتين لن يحفل به البيزنطيون أو يستقبلوه بالدرجة التى تتناسب معه . وهذا يعنى أن مساعدة الامبراطورية اللاتينية لاخوة ثيودور لاسكاريس ، كان مخاطرة ومجازفة بالنسبة لها [2] . ورغم ذلك عبرت الجيوش اللاتينية التى قادها الكسيوس واسحق اخوة لاسكاريس الدردنيل الى لامبساكوس Lampsacus وتقدموا نحو نيقية غير أنهم قابلوا الجيش البيزنطى عند بوميانينون — فى اقليم ميسيا شمال

---

(1) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 37., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 25.

(2) Langnon, op. cit., p. 161.

غرب آسيا الصغرى — ودارت معركة حاسمة بالقرب منها . وكان الانتصار نصيبا ما رجحا فهزم اللاتين البيزنطيين فى هجمتهم الاولى . ولكن حظ فاتاتزيس الذى جمع بين رباطة الجأش والشجاعة وبين المهارة والبسالة لم يقف مكتوف الايدى أمام استسلام بعض فرسانه . وقام بجمع شمل جيوشه وانقض على اللاتين بسلسلة من الهجمات الموحدة . فحول بذلك دفة الانتصار لصالحة وكسر شوكة اللاتين (١) .

وهكذا فانه اذا كان ثيودور لاسكاريس قد استطاع من قبل اللاتين فى نفس المكان فى بوماتينون قبل ذلك بحوالى عشرين عاما . فان حظ فاتاتزيس قد انتصر عليهم وقتل عددا كبيرا من فرسانهم وكان على رأسهم ماكير سانت منهولد Macaire Saint Menehould . أما الكسيوس واسحق أخوة لاسكاريس فقد قبض عليهما الامبراطور حظ فاتاتزيس وسمل عينهما عقابا لهما على خيانتهما ولينقطع كل أمل لهما فى الحصول على السلطة طبقا للتقاليد البيزنطية وبذلك مال التوازن بين الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية نيقيه بشكل حاسم فى السنوات الاولى من حكم حظ فاتاتزيس لصالح امبراطورية نيقيه (٢) .

شجع هذا الانتصار حظ فاتاتزيس على مواصلة هجومه على المواقع اللاتينية فى آسيا الصغرى بل وشجعه أيضا على بناء أول أسطول كبير لامبراطورية نيقيه عام ١٢٢٤م وبفضل هذا الاسطول استطاع فاتاتزيس أن يستولى على سلسلة جزر الارخبيل ممثلة فى خيوس وساموس — التى كانت للاساطيل البندقية بفضلها السيادة البحرية أساسا — ثم عبرت جيوشه الدردنيل واحتلت غاليبولى Gallipoli مفتاح المضايق . وبذلك اقترب فاتاتزيس خطوة من هدفه الا وهو استرداد القسطنطينية (٣) .

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.37-38.

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.38., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 25.,
Longnon, op. cit., p. 161., Grousset, op. cit., p.462., Finlay, op. cit., 3, p. 303.

(٣) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 38-39.,
Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p.28.,
Ahrweiler, op. cit., p. 315., Vasiliev, op. cit., 2, pp. 196-97.

مالبث حنا فاتاتزيس أن نقل مسرح عدائه للاتين الى أوربا ، فأرسل جيشا الى ادريانوبل — تلبية لنداء أهلها — تحت قيادة البروتوستراتور ايسيس Protostrator Isis وحنا كاميتزيس Jean Camytzis وعبر هذا الجيش البسفور الى مقدونيا ثم وصل الى ادريانوبل — على بعد ٢٠٠ ك. م · من القسطنطينية — ودخلها بدون مقاومة تذكر ، وعند بدا وأن فكرة استعادة الحكم البيزنطى فى القسطنطينية قريبة المنال ، فامتلاك ادريانوبل كان بالنسبة لحنا فاتاتزيس فاتحة الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن لم يكد فاتاتزيس يمضى قدما فى استعداداته لتحقيق هذا الحلم حتى فاجأه خصمه تيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠ م) أمير ابيروس الذى نجح فى انتزاع ادريانوبل منه · ولهذا تصالح حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه مع الامبراطور اللاتينى روبرت الكورتناى فى عام ١٢٢٥ م ، وكان من شروط الصلح أن يتنازل اللاتين للامبراطور فاتاتزيس عن بيجى على نهر جرانيكو فيما وراء البسفور — التى كانت آخر موقع يشغله اللاتين فى آسيا الصغرى · وبهذا فقدت الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية جميع فتوحات الامبراطور هنرى فلاندر بصفة نهائية ، ولم يحتفظ اللاتين سوى بالشريط الساحلى المقابل للقسطنطينية والمناطق المحيطة بتقوميديا (١) .

ابقى هذا الصلح مع حنا فاتاتزيس على الامبراطورية اللاتينية ، اذ تيسح المعارك بين نيقيه والقسطنطينية فترة من الهدوء والسكون اعادت مشروع الزواج الذى سبق أن طرح جانبا على اثر وفاة الامبراطور تيودور لاسكاريس عام ١٢٢٢ م ، أى زواج ابنة تيودور من الامبراطور روبرت الكورتناى ، ولكنه لم يمض الى شئ هذه المرة اذ مالبث الامبراطور روبرت أن توفى عام ١٢٢٨ م ، (٢)

(١ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 41., Longnon, op. cit., p. 161.

(٢ Longnon, op. cit., pp. 167-68., Finlay, op. cit.,4, pp. 113-114. Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occ., 2, pp.294-95.

خلف روبرت الكورتناى على عرش القسطنطينية أخيه بلدوين الثانى (١٢٢٨ ـ ١٢٦١ م) وكان فى الحادية عشرة ومن ثم كان لابد للامبراطورية اللاتينية من وصى قادر على اسداء النصح والمشورة وعلى قيادة جيوشها . وكان القيصر البلغارى حنا آسن Jean Asen (١٢١٨ ـ ١٢٤١ م) أول من عرض خدماته على اللاتين . وتعهد لهم بأن يضع الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية تحت حمايته . وأن يعيد اليها كل مافقدته من أراض بما فى ذلك سالونيك . ولقاء ذلك يتزوج الامبراطور الطفل بلدوين الثانى من ابنة القيصر وهى هيلينا Helena وكانت الموافقة على هذا العرض من جانب اللاتين تعنى الى حد كبير بيع الامبراطورية اللاتينية لبلغاريا . ومن ثم كان طبيعيا أن يخذل اللاتين حنا آسن ويفضلون عليه حنا برين Jean Brienne ـ ملك بيت المقدس السابق ـ الذى كان ـ رغم أنه ناهز الثمانين من عمره ـ قويا . مليئا بالحيوية والنشاط (١) .

وصل حنا برين الى القسطنطينية على رأس حملة كبيرة واسطول يضم أربع عشرة سفينة (١٢٣١ م) قدمتها البندقية لنقل جنود الحملة من الغرب . وما أن علم امبراطور نيقيه حنا فاتاتزس بوصول حنا برين وتتويجه امبراطورا على يد البطريرك اللاتينى فى القسطنطينية ـ وكان هذا هو شرط حنا برين لقبول منصب الوصاية ـ حتى سارع الى فتح باب المفاوضات مع البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ ـ ١٢٥٤ م) من أجل اتحاد الكنائس . غير أن المفاوضات دارت عقيمة لان فاتاتزس كان يهدف من ورائها مجرد التحايل لتجنب هجوم اللاتين بعد وصول حنا برين الى القسطنطينية . (٢)

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H. B., p.48., Longnon, op. cit., p. 170.

(٢) Bréhier, " Jean Brienne" in dict, d'histoire et géographie, T.X., p. 706., Longnon op. cit., pp. 171-2.

استغل حنا بيين فرصة انشغال فاتاتزيس امبراطور نيقيه بالحرب ضد المتمرد ليون جابالاس Leon Gabalas في رودس [١] ، وهاجم اراضـــــى امبراطورية نيقيه في آسيا الصغرى غير أنه لم يبعد كثيرا عن بحر مرمرة ، واكتفـــى بالاستيلاء على قلعة كيراميداس Keramidas بالقرب من كيزكوس على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة — وعلى الحصن الهام في بيجى ، ثم عاد الى عاصمته بعـــد أربعة أشهر من الحرب والقتال . أثارت هذه الحملة امبراطور نيقيه حنـــا فاتاتزيس ، وأسفرت ثورته عن تحالفه مع القيصر البلغارى حنا آسن الذى أصبـــح عدوا للاتين على أثر تفضيلهم لحنا بيين عليه في منصب الوصاية على الامبراطـــور اللاتينى بلدوين الثانى وعرض حنا فاتاتزيس على آسن أن يتزوج ابنه ثيودور لاسكاريس الثانى البالغ من العمر أحد عشر عاما من ابنته هيلينا البالغة من العمر تسع سنوات والتى كان القيصر البلغارى قد سبق ان اقترح على اللاتين أن تكون زوجـــة لامبراطورهم القاصر بلدوين الثانى — ولقاء ذلك تعترف امبراطورية نيقيـــه باستقلال الكنيسة البلغارية وبطريركيتها (١٢٣٤ م) [٢] .

شهدت الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بهذا التحالف بين امبراطـــور نيقيه حنا فاتاتزيس والقيصر البلغارى حنا آسن نفس الازمة العصيبة ، الـــتى واجهتها منذ قيامها في معركة ادرنا نوبل عام ١٢٠٥ م باتحاد خصميها وعدويهمـــا اللدودين امبراطور نيقيه وقيصر بلغاريا ، غير أن تحالفهما هذه المرة أى عام ١٢٣٤ م انضم اليه طرف ثالث — وان كان طرفا تابعا أو مرؤوسا — وهو مانويل استـــير ابيروس ، وهكذا مرة أخرى دفع اللاتين البيزنطيين والبلغار الى احضان الاخـــر

١) كانت جزيرة رودس منذ عام ١٢٠٤ م في يد مغامر يونانى يدعى ليوجابالاس ، وقد احتفظ باستقلاله بتلك الجزيرة بحماية مصالح البندقية التجارية ، غير أنه اضطر عام ١٢٣٣ م ان يعترف بالسيادة لحنا فاتاتزيس وان يكون نصلا لنيقيه بالقيصر انظر :
Bréhier, Vie et Mort, I. p. 282., Cam . Med. Hist., 4, Part. I., P. 311., Finlay, op. cit., 3, p. 305.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 50-52., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 29. Bréhier, Jean Brienne, p. 706., Cam. Med.Hist, 4, Part. I., p. 528.

على نحو ما حدث فى عهد القيصر البلغارى كالوجان (١١٩٧ ـ ١٢٠٧م) والامبراطور نيقية ثيودور لاسكاريس (١٢٠٤ ـ ١٢٢٢م) (١) .

ابحر حنا فاتاتزيس فى ربيع عام ١٢٣٥م الى قاليبولى مفتاح الخانيق واستولى عليها ، ثم تابع سيره الى لامبساكوس على الدردنيل التى وصل اليها حنا آسن مع زوجته وابنته هيلينا ، وهناك احتفل بعقد قران هيلينا على ثيودور لاسكاريس الثانى ابن حنا فاتاتزيس (٢) . وبعد اتمام الزواج ضرب حنا فاتاتزيس وحنا آسن الحصار على القسطنطينية برا وبحرا بجيش يقدر بمائة الف رجل وأسطول يقدر بثلثمائة سفينة حربية . وأمام هذا الخطر استعد حنا برين وفرسانه ـ البالغ عددهم مائة وستين فارسا ـ على قدم وساق للقاء العدو ثم قام حنا برين بالهجوم ثم تابعه فرسانه بدورهم ، وتمت هذه الهجمة باندفاعة واحدة تحطمت على أثرها فرق العدو البالغ عددها ثمانى وأربعين فرقة . والتى يذكر جيبون Gibbon أنه " لم ينج منها من سيف حنا برين البتار سوى ثلاث فرق " (٣) .

تبع هذا الانتصار البرى الذى أحرزه حنا برين انتصارا بحريا . ففى تلك الاثناء كان الاسطول البيزنطى الذى قاده ليون كافالا Leon Cavalla يضرب بالمدافع اسوار القسطنطينية من جهة البحر مستخدما آلات الرمى والقذائف ، فقام البناة الذين عهد اليهم بحراسة المدينة بدور بارع ، فعلى الرغم من انهم شاهدوا هزيمة المحاصرين الا أنهم انقضوا على السفن البيزنطية ، وساعدهم فى ذلك الاسطول البندقى الذى اتى لانقاذ المدينة ، وتمكنا سويا من انتزال

---

١) انظر مايلى فى الفصل الخامس ص ٢٢٠، ٢٢٥ .

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.54.

٣) Longnon, op. cit., p. 173., Bréhier, Jean Brienne, p. 707, Vasiliev, op. cit., 2, p.200.

Gibbon, The decline and full of the roman empire, p. 785.

والترجمة العربية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

الهزيمة بأسطول فاتاتزيس وأسروا منه أربع وعشرين سفينة من بينها بارجة قائـــد الاسطول البيزنطي نفسه (١٢٣٥م) . وكانت النتيجة أن عاد حطام الاسطول البيزنطي الى لامبساكوس على الدردنيل ، ورفع الحليفان فاتاتزيس وآسن الحصـــار عن القسطنطينية ، وعادا الى بلادهما اذ كان فصل الشتاء قد أقبل (١) .

على أنه من الملاحظ أن المصادر البيزنطية وعلى رأسها اكروبوليتا — مـؤرخ نيقيه — وجريجوراس لم تذكر شيئا عن هذه الهزيمة وذلك الفشل الذريع الـــذي الم بحظ فاتاتزيس امبراطور نيقيه ، هنا في حين أفاضت في ذكره المصادر الغربيـة واللاتينية مما يقلل بعض الشيء من قيمة انتصار اللاتين عام ١٢٣٥م (٢) .

أعاد حظ فاتاتزيس وحظ آسن الكرة ثانية في العام التالي (١٢٣٦م) اذ حاولا الهجوم على القسطنطينية رغبة منهما في الانتقام لما حل بهما من هزيمـــة في العام الماضي ، وذلك بعد أن قضيا فصل الشتاء في الاستعدادات والتجهيزات حيث جهز حظ آسن اسطولا من خمس وعشرين سفينة في البحر الاسود . غير أنـــه حال بينهما وبين ما أراداه هذه المرة تدخل أمير المورة جوفري فيلهـــــاردوان Geoffroy Villehardouin الذي استدعاه الامبراطور حنا برين (١٢٢٩ — ١٢٣٧م) ليكون عونه وساعده في انقاذ القسطنطينية من هجوم فاتاتزيس وآســـن — وانسحب امبراطور نيقيه وقيصر بلغاريا بعد أن فشلا مرتين على التوالـــــي في استرداد القسطنطينيـــة (٣) .

---

١) Longnon, op. cit., p. 173., Finlay, op. cit., 3, p.308
Cam. Med. Hist. 4, Part.I, p.312.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.56., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 30.
Bon, La Morée Franque, p. 79.

٣) لمزيد من التفاصيل انظر :
Longnon, op. cit., p. 173., Bréhier, Jean Brienne, pp. 707-708.

توفى حنا برين فى مارس ١٢٣٧ م ورغم نجاحه فى صد محاولتى فاتاتزيس وآسن للنيل من القسطنطينية الا أنه ترك الامبراطورية اللاتينية فى حالة يرثى لها ، فامبراطورية نيقيه كانت قد احتلت شاطىء الدردنيل والساحل الأوربى لبحر مرمرة حتى تزورولون Tzouroulon — على بعد مائة كم الى الغرب من القسطنطينية — وأصبحت الامبراطورية اللاتينية لاتتعدى حدودها أسوار القسطنطينية الا بمساحة صغيرة . ولهذا ذهب بلدوين الثانى الى الغرب ليطلع البابا الغرب الأوربى على حالة الامبراطورية المزعزعة ، ويحثهم على تنظيم حملة صليبية لتثبيت أركانها حتى تصمد أمام كل اعصار ويكون لها القدرة على مواجهة أى تيار عدوانى . (١)

اشتد الخطر من جديد على القسطنطينية — أثناء غياب بلدوين الثانى فى الغرب — اذ حاصرها حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه برا وبحرا ، على أن حنا آسن لم يحارب اللاتين الى جواره هذه المرة واكتفى فقط بالحفاظ على صورة الصداقة مع فاتاتزيس . ونجح أمير المورة جوفرى الثانى ان ينقذ القسطنطينية من هذا الخطر بتدخله حوالى صيف عام ١٢٣٨م . (٢) وفى العام التالى (١٢٣٩م) وصل بلدوين الثانى من الغرب — بعد غياب عامين (١٢٣٧ـ ١٢٣٩م) — على رأس جيش يتألف من سبعمائة من الفرسان ، مع العديد من حملة السلاح والاقواس وآخرين من الخيالة والمشاة ، وقد أحصاهم أكروبوليتا — مؤرخ نيقيه — بستة آلاف من الفرنجة " . (٣)

أحدث وصول هذا الجيش أثرا فعالا فى نفس الامبراطور حنا فاتا تزيس امبراطور نيقيه خاصة وأن بلدوين الثانى قام على الفور بحصار تزوروولون — على بعد مائة كم . م الى الغرب من القسطنطينية — التى كانت ملكا لحنا فاتاتزيس .

(١ Bréhier, Jean Brienne, p. 708., Cam. Med. Hist, 4, Part. I., p. 312.

(٢ Bon, op. cit., p. 80., Longnon, op. cit., p. 180.

(٣ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 63.

واستسلمت هذه المدينة لبلدوين الثاني بلا قيد أو شرط . ولم يستطع حنا فاتاتزيس انقاذ تلك المدينة . كما أن الاسطول البيزنطي وقائده اسفيروس أرمينيوس Isphreus Armenius نالوا الاسوء على يد اللاتين . الذين نجحوا في أسر ثلاثين سفينة بيزنطية .(١)

وازاء هجوم اللاتين والخوف من وصول صليبيين جدد . أظهر حنا فاتاتزيس امبراطور نيقية رغبته في التقرب الى روما . كما عقد مع اللاتين هدنة دامت مدة ست سنوات (١٢٤١ — ١٢٤٦م) وفي الحقيقة أن ما شجع حنا فاتاتزيس على عقد هذه الهدنة هو وفاة القيصر البلغاري حنا آسن الثاني في بداية صيف عام ١٢٤١م . فقد رأى حنا فاتاتزيس أن الفرصة سنحت للاستيلاء على تراقيا ومقدونيا التابعتين للقيصر . خاصة وأن ثيودور انجيلوس امبراطور سالونيك وحاكم ابيروس السابق عاد الى بلاده بعد أن اسره حنا آسن عام ١٢٣٠م . وحكم باسم ابنه حنا . ولم يكن بمقدور فاتاتزيس أن يقبل منافسة امبراطور قادر على أن يجمع البيزنطيين تحت لوائه . كما أنه خشي أن يستغل ثيودور انجيلوس ضعف القيصر البلغاري الجديد القاصر كاليمانون Callimanus من أجل أن يسترد تراقيا . وبهذا يبدو واضحاً أن حنا فاتاتزيس كان يهدف من وراء الهدنة مع اللاتين الى التفرغ لمنافسه البيزنطي ثيودور انجيلوس(٢) .

نعم اللاتين في القسطنطينية خلال سنوات الهدنة الست بالهدوء والسلام وفي الوقت نفسه كانت هذه السنوات مثمرة لحنا فاتاتزيس امبراطور نيقية . اذ استطاع خلالها أن يستولي على سالونيك واعترفت له ابيروس بالسيادة . ومن ثم لم

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 64.

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 69., Longnon, op. cit., p. 183., Vasiliev, op. cit., 2, pp.208-209.

يعد هناك ثمة منافس يشاطره الطموح في استرداد القسطنطينية . (١)

وبعد أن انتهت مدة الهدنة قام حنا فاتاتزيس بمحاولته الاخيرة لتحقيق هدفه المنشود في اعتلاء عرش القسطنطينية . وساعده على ذلك غياب بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية في الغرب . وضعف اللاتين الموجودين في القسطنطينية فعبر فاتاتزيس الدردنيل واتجه نحو تزوريلون — المفتاح الحقيقي لشبه جزيرة القسطنطينية — حيث كان هناك القائد اللاتيني انسو كاييه Anseau Cayeux مع زوجته أودوسيا Eudocie وعندما علم انسو باقتراب الامبراطور حنا فاتاتزيس اتجه نحو القسطنطينية تاركا زوجته داخل المدينة تساعدها حامية صغيرة . وقد دفعه الى ذلك الامل في أن فاتاتزيس لن يجرؤ على الهجوم على أودوسيا أخت زوجته وابنة صهره وسلفه ثيودور لاسكاريس . ولكن فاتاتزيس " لم يكن بالرجل الذي يسمح لعلاقاته الخاصة أو صلات قرابته أن تتدخل في السياسة العامة . ولهذا فقد ضرب الحصار على تزوريلون وأصبح سيدا عليها خلال بضعة أيام وأرسل أودوسيا زوجة أنسو كاييه وأخت زوجته الى القسطنطينية . ونجح فاتاتزيس بعد ذلك في الاستيلاء على فيزيا Vizya في منتصف الطريق بين أدرياتوبل والقسطنطينية — وأخضع بذلك الممتلكات اللاتينية المحيطة بالعاصمة مباشرة (٢) .

---

١) لمزيد من التفاصيل عن فتح فاتاتزيس لمالونيك انظر :

Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.70-71., 80-90., Nicol, The despotate of Epiros, pp. 137-140., Finaly, op. cit., 3, pp.331-14, Vol. 4, pp.124-26., Cam. Med. Hist, 4, Part.I., pp.316-17., Ostrogorsky, op. cit., pp. 390-91, Bréhier, Vie et Mort, I, pp.380-82.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.91., Longnon, op. cit., pp. 185-86., Bréhier, vie et Mort., I, pp. 381-82.

عاد الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني من الغرب الى القسطنطينية عام ١٢٤٨م ، ولم يكن لديه أكثر من الاستسلام لضياع كل من تزوروليون ونيقيا ، وخاصة أنه عاد بلا جنود ولا امدادات فقد اتجهت انظار البابوية والعالم الغربي منذ ذلك الحين نحو الاعداد للحملة الصليبية المعروفة في التاريخ باسم " الحملة الصليبية السابعة أو حملة لويس التاسع " . وعانت الامبراطورية اللاتينية من أزمة مالية حادة ، اضطرت بلدوين الثاني الى أن يبيع الرصاص الذي كان يغطي اسقف قصره تارة والى أن يرهن ابنه فيليب للتجار البنادقة تارة أخرى (١) .

اقترب حظ فاتاتزيس من الهدف الذي ظل يعمل من أجله منذ اعتلائه عرش امبراطور نيقيه ، فقد استولى على تزوروليون على بعد مائة كم . فقط من القسطنطينية وكذلك استولى على فيزيا وساءت احوال الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . وأصبح بامكان فاتاتزيس في مثل هذه الظروف أن يحقق ما أراده ، ولكنه لم يتعجل الهجوم على القسطنطينية بل انتظر حتى تسقط كما تسقط الفاكهة الناضجة (٢) .

والواقع أن هناك حدثين هامين أطالا من عمر الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية خلال السنوات الاخيرة من حكم حظ فاتاتزيس احدهما : المفاوضات بين نيقيه والبابوية حول موضوع اتحاد الكنائس ، وثانيهما : النزاع والخلاف الصاعد بين البيزنطيين أنفسهم أي بين البيزنطيين في امبراطورية نيقية وفي امارة ابيروس . وقد ساهم هذان الحدثان في انقاذ الامبراطورية اللاتينية من فناء محتوم على يد حظ فاتاتزيس امبراطور نيقية في سنوات حكمه الاخيرة (٣) .

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Wolff, " The mortgage and redemption of an emperor's son" in speculum, vol. 29(1954) pp.46-52.

٢) Longnon, op. cit., p. 186.

٣) Cam. Med. Hist, Vol.4, part.I, pp. 318-19.

مات حنا فاتاتزيس عام ١٢٥٤م دون أن يدخل مدينة القسطنطينية فلم يمهله الموت حتى يحقق هدفه هذا ، وإن كان قد أعد بسياسته وجيوشه العدة لفتح المدينة ، فهو الذى أقصى المطالبين بحق استرداد القسطنطينية من حكام سالونيك وابيروس البيزنطيين ومن قياصرة بلغاريا ، ووضع تحت سلطانه الاقاليم التى يسرت عملية استرداد العاصمة البيزنطية . ومن ثم فقد لعب حنا فاتاتزيس خلال فترة حكمه (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) الدور الاول فى عملية الفتح الاخيرة ، ولم يفعل ميخائيل باليولوجوس (١٢٦١م — ١٢٨٢م) أكثر من أنه استفاد من الجهود التى بذلها حنا فاتاتزيس ومن نشاطه وخبرته (١)

* * *

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.109-10, Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p.50., Vasiliev, op. cit., 2, p. 210.

الامبراطورية اللاتينية وامارة ابيروس :

كانت المشاكل التى واجهت ميخائيل دوقاس انجيلوس (١٢٠٤ — ١٢١٥م) أول حكام امارة ابيروس — فى شمال غرب اليونان — تختلف عن تلك المشاكل التى واجهت ثيودور لاسكاريس (١٢٠٤ — ١٢٢٢م) أول أباطرة نيقيه فى بيثينيا بآسيا الصغرى . فالبلاد التى حكمها ميخائيل والممتدة من دورازو Dyrrachium — على الساحل الشرقى للادرياتيك حتى نوبكتوس Naupactus على الساحل الجنوبى للادرياتيك شاملة دورازو وكورفو وكيفالونيا Cephalonia وزانت Zante ونيقوبوليس Nikopolis واقليم أرتا وايتوليا Aitolia — كانت قد آلت جميعها الى البنادقة وفقا لاتفاقية التقسيم (اكتوبر ١٢٠٤م) . ومن ثم يعد البنادقة — وهم ممثلو اللاتين فى الشرق — من أخطر أعداء ميخائيل دوقاس أمير ابيروس (١) .

ظهر منذ البداية أنه من غير المحتمل أن تلك المناطق التى حازها البنادقة — وفقا لاتفاق التقسيم — ستكون هدفا لغزو حربى على نطاق واسع من جانب البنادقة ، ولا سيما أن ابيروس كانت محاطة بالجبال وبالتالى فمن السهل الدفاع عنها . ورغم ذلك صمم البنادقة على أن يبرهنوا على صحة دعواهم وحقهم فى الموانئ والجزر الهامة ، ففى ربيع عام ١٢٠٥م ، هاجم الاسطول القادم من البندقية — والذى كان يحمل أول بطريرك لاتينى الى القسطنطينية وهو توماس موروسينى Thomas Morosini — دورازو ومن بعدها كورفو . وكان أهل دورازو قد أقسموا يمين الطاعة والولاء لالكسيوس الرابع حينما كان فى طريقه من زارا الى الشرق بصحبة الحملة الصليبية الرابعة ، ولكنهم لم يحترموا حتى ذلك الحين بالمعاهدة عليهم لميخائيل دوقاس أمير ابيروس .

(١ Nicol, The despotate of Epiros, p. 17.

على أن مودون ما لبثت أن استسلمت للبنادقة فى يونيه ١٢٠٥م ، ونصب عليها حاكم بندقى هو مارينو فالاريسو Marino Valaresso (١) .

أما كورفو فقد استولى عليها مغامر جنوى يدعى ليون فيترانو Leone Vetrano ، ولم يكن هو ولا سكان الجزيرة على استعداد للخضوع للاحتلال البندقى ، ومن ثم قوبل قائد الاسطول البندقى جاكوبو موروسينى Jacopo Morosini بمقاومة عنيفة ، ورغم ذلك نجح فى الاستيلاء على الجزيرة باسم جمهورية البندقية التى ما لبثت أن أدركت أنه ليس لديها القوة الكافية لتحكم جزيرة كورفو حكما مباشرا ، فعهدت الى عشرة من أشراف البنادقة وتبلائهم بحكمها على أساس أن يتولى هؤلاء الدفاع عنها ، وان يدفعوا للبندقية خمسمائة قطعة ذهبية سنويا ، مع رعاية مصالح الجمهورية هناك (٢) .

حكمت البندقية على هذا النحو كل من مودون وكورفو حكما غير مباشر ، أما بشأن جزر البحر الايونى المجاورة لكورفو وهى كيفالونيا وزانت وليوكاس ، فقد تحولت قبيل الحملة الصليبية الرابعة الى مغامر ايطالى يدعى مايو أورسينى Maio Orisini . وفى عام ١٢٠٧م قام مايو بوضع اقاليمه هذه تحت سلطة البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦م) خوفا من البنادقة على مصيره ولكنه بعد عامين (١٢٠٩م) رأى أنه من الحكمة أن يعترف بسيادة البندقية عليه ، ونظير ذلك تركت البندقية للمغامر الايطالى مايو حق امتلاك هذه الجزر دون أن تضايقه (٣) .

---

(١) Nicol, op. cit., pp. 18-19.

(٢) Miller, The Latins in Levant, pp.46-47, Cam.Med. Hist, 4, Part. I, p.297.

(٣) Miller, op. cit., p. 47.

على أن التهديد البندقي لامارة ابيروس لم يكن خطيرا كما كان يبـــدو ، اذ أن العقد الذى وقع بين دوج البندقية الجديد وهو بيترو زيانى Pitro Ziani والبودستا البندقي في القسطنطينية وهو مارينو زينو Marino Zeno عام ١٢٠٥م ، جعل الامور أيسر مما توقع ميخائيل دوقاس أمـــير ابيروس . ونص هذا العقد على أن البودستا زينو وقع فى أكتوبر عام ١٢٠٥م بأمر الدوج زيانى وثيقة تطلق للسيطرة البندقية المباشرة قسما من الاراضى الـتى كانت تابعة للامبراطورية البيزنطية من قبل ، وأصبح من نصيب البندقية — وفقـا لاتفاق التقسيم (أكتوبر ١٢٠٤م) — شاملا أراضى امارة ابيروس . ولا شـك أن ذلك الامر جعل من المحتمل أن ابيروس ستتعرض للغزو من جانب جيـــوش الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١) .

غير أن ميخائيل دوقاس امير ابيروس ، اتخذ الضمانات اللازمة للحفاظ علـى املاكه ، فحذا حذو مايو أورسينى واعترف بالخضوع والسيادة للبابا ، ووضـــع اقليمه تحت حماية الكرسى الرسولى وطلب من المندوب البابوى — فى باكورة عـام ١٢٠٨م — أن يأتى الى بلاطه ليعلمه المذهب الكاثوليكى (٢) . وفى عـــام ١٢١٠ تنازل البنادقة عن أراضى امارة ابيروس فيما عدا دورازو — على الساحـل الشرقى للادرياتيك — لميخائيل دوقاس ، ولقاء ذلك قدم ميخائيل للبنادقـة وأهل دورازو تنازلات تجارية ، ووعد باستبعاد أعداء البندقية من أراضيـــه كما وافق على تقديم جزية سنوية لهم (٣) .

---

(١) Wolff, " A new document, from period of the latin empire"., in Mélanges Henri Gregoire (1953) pp. 455-48.

(٢) Nicol, op. cit., p. 26.

(٣) Wolff, A new document , pp. 548-49., Heyd, Histoire du commerce, I, pp.270-71, Thiriet, La romanie ventienne au moyen age, p.85., Miller, The Latins, p.79.

وبعد أن انضم ميخائيل دوقاس الى جانب البنادقة ، كان عليه أن يستعد لمواجهة الخطر الذى كان يهدده من جانب الامبراطور اللاتينى هنرى فلاندر ، ومن مملكة سالونيك التابعة للامبراطورية اللاتينية ، فبوفاة بونيفاس مونتفرات ملك سالونيك عام ١٢٠٧م ، انتقل عرش مملكة سالونيك الى ابنه الرضيع ديمتريوس تحت وصاية أمه وهوبرت بلاندرات Hubert Blandrate أحد النبلاء اللمبارديين . غير أن السلطة الحقيقية فى سالونيك كانت تقع فى أيدى البارونات اللمبارديين الذين رفضوا أن يقدموا الطاعة والولاء للامبراطور هنرى وطالبوا باستقلال سالونيك عن الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية كما طالبوا بالسيادة على أراضى ميخائيل دوقاس فى ابيروس . غير أن الامبراطور هنرى نجح فى التغلب على مؤامرات اللمبارديين داخل سالونيك ، وتوج ديمتريوس الصغير ـ بنفسه ـ ملكا على سالونيك فى يناير ١٢٠٩م .(١)

استغل الامبراطور هنرى فلاندر فرصة وجود الجيش اللاتينى فى اليونان ـ بعد القضاء على تمرد اللمبارديين فى سالونيك ـ فى أن يغزو امارة ابيروس فى شمال غرب اليونان ويتوج انتصاره بأن يجعل ميخائيل دوقاس أمير أبيروس تصلا وتابعا له . وعندئذ بادر ميخائيل دوقاس بتقديم عروض السلام ، ففى صيف عام ١٢٠٩م ، وبينما كان الامبراطور هنرى معسكرا مع رجاله جنوب سالونيك وصلت سفارة من أبيروس الى معسكره . وقد روى المؤرخ المعاصر هنرى فالنسيان فى تاريخه عن الامبراطور هنرى تفاصيل المفاوضات التى دارت بين الامبراطور هنرى وبين ميخائيل دوقاس حاكم أبيروس ، فيذكر فالنسيان أن الامبراطور هنرى عندما علم بوصول رسل ميخائيل دوقاس ، استدعى مستشاريه للتداول والتشاور واشترط ألا ينظر فى عروض ميخائيل الا بشرط واحد وهو أن تكون جميع ممتلكات ميخائيل اقطاعا من الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وأنه فى حالة موافقة ميخائيل

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Henri Valenciennes, Histoire de l'empereur Henri, pp. 355-69.

وانظر مايلى فى الفصل الخامس ص ٢١٢ـ٢١٧ .

على هذا الشرط فان الامبراطور هنرى سيعتبره كشقيقه تماما ، أما اذا لم يقبله فسيذهب الامبراطور على رأس جيشه لقتاله . وبعث الامبراطور لميخائيل بذلك [(١)]

رد ميخائيل على مبعوثى الامبراطور هنرى بمكر شديد ، اذ اقترح أن تتزوج ابنته الكبرى من يوستاش فلاندر Eustache Flandre شقيق الامبراطور هنرى ، ووعد ميخائيل أن يقدم مع يد ابنته ثلث اراضيه كصداق لها ، وأعرب لرسل الامبراطور هنرى من استعداده لان يقدم الخدمة العسكرية للامبراطور هنرى برا وبحرا وان يعمل مايوقفه فى جميع انحاء الامبراطورية اللاتينية [(٢)] .

نجح ميخائيل دوقاس بهذه الوعود فى ابطال الهدف الاساسى الذى سعى الامبراطور هنرى من أجله وهو فرض سلطانه على امارة ابيروس . أما الامبراطور هنرى ، فعلى الرغم من أنه كان يشك فى ميخائيل دوقاس الا أنه تصاهر معه ، فهذه المصاهرة قد اعطته حق حماية ثلث جميع الاراضى التى هدد باستلاكها وفرض سلطانه عليهما [(٣)] .

وقعت المعاهدة وتم الزواج بعد ذلك بين يوستاش شقيق الامبراطور هنرى وابنة ميخائيل دوقاس ، وبهذا أفلح ميخائيل عن طريق الدبلوماسية والسياسة فى أن يوقف أول تهديد مباشر على امارة ابيروس من جانب الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، اذ مالبث الامبراطور هنرى أن قاد جيشه عائدا الى القسطنطينية تاركا أخيه يوستاش فلاندر صهر ميخائيل الجديد ومعه الفارس الالمانى بيرتولد كاتزينيللينبوجن Berthold Katzenellenbogen يقومان بعمل الوصاية على الطفل الملك ديمتريوس فى سالونيك [(٤)] .

---

(١) Valenciennes, op. cit., pp.411, 419, 421.

(٢) Ibid, p. 421.

(٣) Nicol, The despotate, p. 29.

(٤) Nicol, The despotate, p. 29.

والحق أن ميخائيل دوقاس أمير ابيروس لم تكن لديه النية فى أن يحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه للامبراطور هنرى بأن يعترف بالسيادة اللاتينية على أى جزء من اراضيه ، فقد نظر ميخائيل الى الاتفاقيات التى عقدها مع اللاتين على أنها ملزمة فقط ما بقيت مناسبة لاغراضه هو • وليس أدل على ذلك من أن ميخائيل دوقاس قام فى صيف عام ١٢١٠م بأول هجوم على الاراضى اللاتينية فى سالونيك ، وورد وصف هذا الهجوم فى خطاب البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦م) للبطريرك اللاتينى فى القسطنطينية المؤرخ فى ديسمبر ١٢١٠م فى قصر اللاتيران على النحو التالى : " تجح ميخائيل دوقاس فى أسر كندسطبل الامبراطورية اللاتينية وهو اماديو بوفا Amadeo Buffa مع مائة من الفرسان ، وقتل بعض هؤلاء الاسرى الفرسان وسجن البعض الاخر • أما الكندسطبل بوفا فقد صلبه ميخائيل مع ثلاثة من زملائه " (١) .

لم تتوقف حملة ميخائيل عند هذا الحد ، بل اتسمت بطابع الخطورة والاتساع فقد اجتاح ميخائيل الاراضى اللاتينية ، وهاجم معسكر الامبراطور اللاتينى ذاته ، واحرق المدن والقرى وحاصر القلاع بل وقتل القساوسة ورجال الدين ، ولذلك أصدر البابا انوسنت قرار بحرمان ميخائيل دوقاس انجيلوس (٢) .

وحرمان ميخائيل دوقاس امير ابيروس تحرر من كل عائق ، فتحالف مع احد اعداء الامبراطورية اللاتينية وهو المغامر البلغارى دوبرومير ستريز Dobromir Strez ، الذى ضم جيوشه الى جيوش ميخائيل دوقاس ، وعزما سويا على محاربة اللاتين وتدمير سالونيك (٣)

أسرع الامبراطور هنرى بالخروج من القسطنطينية فى نهاية عام ١٢١٠م

---

(١) Patrologia latina, T.215, Col. 353.

(٢) Ibid, p. 354.

(٣) Nicol, The despotate, pp.33-34.

ليدفع عن سالونيك هجمات ميخائيل دوقاس وستريز المشتركة ، وبعد كفاح مرير استغرق عدة أشهر لم ينجح الامبراطور هنرى فى صد هجمات ميخائيل أمير ابيروس والبلغارى ستريز فحسب بل أرغمهما على الانسحاب واستولى على جزء من أراضيهم ، وكان فى امكانه الاستيلاء عليها جميعها غير أن مامنعه من ذلك على نحو ما جاء فى خطابه : " انه لولا مهام خطيرة اضطرته الى العودة الى القسطنطينية لما ابقيت لهما ولو على كوخ واحد فى مملكته " . وتمثلت هذه المهام الخطيرة فى تهديدات القيصر البلغارى بوريل Boril بها ، وهجمات ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه بحرا ، مما اضطره الى العودة الى القسطنطينية ، ولكنه قبل أن يترك سالونيك فى ربيع عام ١٢١١م ، اجبر خصميه ميخائيل دوقاس وستريز على أن يقسما له وللامبراطورية اللاتينية يمين الطاعة والولاء" (١) .

انقلب ميخائيل دوقاس حاكم ابيروس بعد هزيمته على يد الامبراطور هنرى على حليفه البلغارى ستريز وتحالف مع صهره يوستاس فلاندر ويرتولد كاتزينيلينبوجن الوصيين على مملكة سالونيك ، ولعل ما دفعه الى ذلك هو أنه لم يكن يتمنى أن يرى سالونيك جزءا من امبراطورية القيصر البلغارى بوريل ، خاصة وان بوريل اتحد مع أخيه ستريز لشن الهجوم عليها . وأسفر تحالف ميخائيل دوقاس ويوستاس عن تحقيق نصر مؤزر فى سهل بلاجونيا ، وعبر الامبراطور هنرى عن ذلك فى خطابه (١٣ يناير ١٢١٢م) بقوله :" ان ستريز ترك معظم رجاله قتلى بحد السيف فى هذا السهل" (٢) .

---

١) انظر نص الخطاب فى :
Prinzing, " Der brief kaiser Heinrichs von konstantinople" in Byzantion (1973) p. 412. وبالعربية فى الملاحق .
وانظر أيضا :
Longnon, L'empire, pp.124-25., Nicol, op. cit., p.34.

٢) Prinzing, Der brief Kaiser Heinrichs , p. 414.

غير أن ميخائيل دوقاس قام فى السنوات التالية بحملات تؤيد نجاحها ضد اللاتين ، فاحتل لاريسا Larissa والاقليم المحيط بها فى عام ١٢١٢م وقطع الاتصال بذلك بين سالونيك ومدينة طيبة ، ثم هاجم دورازو على الساحل الشرقى للادرياتيك واستولى عليها ، ثم قام على الرغم من القسم الذى قطعه على نفسه تجاه البندقية – بفتح جزيرة كورفو حيث تأسست مستوطنة بندقية فى هذه الجزيرة ، ورحب مواطنوا كورفو بميخائيل دوقاس كحاكم عليهم من بنى جنسهم وعلى دينهم ، ويبدو أن جزيرة كورفو كانت فى يد ميخائيل عام ١٢١٤م (١) .

والمتأمل فى السياسة التى اتبعها ميخائيل دوقاس تجاه اللاتين يدرك تماما انها سياسة متأرجحة ، فأحيانا يقسم لهم يمين الطاعة والولاء ويعلن نفسه تابعا للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وأحيانا اخرى يحنث فى يمينه ويشن هجومه عليهم ، ولاشك أن هذه السياسة المتأرجحة نابعة أساسا من دافع المصلحة ، وان هذا الدافع كان المحرك الرئيسى لتلك السياسة .

قتل ميخائيل دوقاس فى عام ١٢١٥م على يد أحد خدمه وهو روماسوس وخلفه فى حكم امارة ابيروس اخوه غير الشقيق ثيودور انجيلوس (١٢١٥ – ١٢٣٠م) الذى عمل فى بداية الامر فى خدمة ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه حيث كان لاجئا هناك ، ولكن سرعان ما استدعاه اخوه ميخائيل دوقاس بعد أن طلب من لاسكاريس أن يسمح له بالانضمام اليه فى اليونان ، وفى عام ١٢٠٥م ترك ثيودور نيقيه بأسيا الصغرى بعد أن أقسم مضطرا لثيودور لاسكاريس ولخلفائه من بعده يمين الطاعة والولاء ، وهذا القسم يعنى الاعتراف بسيادة ثيودور لاسكاريس وخلفائه (٢) .

---

(١) Nicol, The despotate, p. 39., Miller, The Latins, p.80

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 27.

انضم ثيودور انجيلوس الى اخيه ميخائيل دوقاس فى ابيروس ، وكان ثيودور انجيلوس طموحاً ، امتد طموحه أبعد من مجرد فكرة الحفاظ على امارة بيزنطية ، وكان يحلم بغزو سالونيك فهى المكان الذى سينطلق منه الى القسطنطينية مباشرة ، وكان هذا هو الامل الذى عمل من أجله ، فما ان اعتلى عرش ابيروس حتى وجه جهوده نحو تطويق مملكة سالونيك وتضييق الخناق عليها كخطوة أولى الى القسطنطينية (١) .

وكان الامبراطور اللاتينى هنرى مدركاً تماماً أهمية الدفاع عن سالونيك لامان وسلامة العرش اللاتينى فى القسطنطينية ، فسالونيك التى تقع على بعد ٦٠٠ ك . م . من القسطنطينية هى الحصن الواقى للامبراطورية اللاتينية فهى على الطريق المؤدى الى القسطنطينية ، كما أنها لاتبعد عنها كثيراً ، ولهذا تـــرك الامبراطور هنرى على الفور التزاماته فى الشرق واتجه نحو سالونيك . والحقيقة أن وصول الامبراطور هنرى المفاجىء الى مقدونيا ينبع أساساً من اهتمامه بحماية مملكة سالونيك والدفاع عنها من أجل أمن وسلامة القسطنطينية ، وليس لتتويج ديمتريوس ملكاً على سالونيك كما تصور روبرت كلارى ، وربما كان وصول هنرى المفاجىء الى مقدونيا ينبع — كما اعتقد البعض — من التفكير فى القيام بحملة ضد ثيودور انجيلوس أمير ابيروس بتحريض من جهة القيصر البلغارى بوريل Boril ، على أن خطط الامبراطور هنرى ظلت غامضة ، لانه مات فى الحال بعد وصوله سالونيك فى مايو عام ١٢١٦م (٢) .

ولكن ثبت أن مخاوف الامبراطور هنرى بشأن سلامة سالونيك وأمنها سابقة لأوانها ، اذ أن ثيودور انجيلوس امير ابيروس لم يكن واثقاً — قبل وفاة الامبراطور هنرى — فى قوته بالدرجة التى تجعله يبدأ هجومه الفعلى على سالونيك ، ولكن

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : Nicol, The despotate, pp.47-49., Cam. Med. Hist,4, Part.I., pp.304-305.

(٢) روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٥٤ .

Nicol, The despotate, p.50.

استيقظت آمال ثيودور انجيلوس من جديد على اثر وفاة الامبراطور هنرى ، وانتهـز الفرصة ليزيد من نفوذه على حساب الامبراطورية اللاتينية وخاصة وان هنرى لم يترك وريثا ليخلفه على عرش القسطنطينية ، ولم يكن لهنرى سوى شقيقته يولانـــدا Yolande ولهذا قرر بارونات الامبراطورية اختيار زوجها بطرس الكورتنـــاى Pierre Courtenay امبراطورا ، وارسلوا وفدا لبطرس فى فرنسا حيـــث كان موجودا ، وطلبوا منه أن يأتى الى القسطنطينية لتولى عرش الامبراطوريـــة اللاتينية (١) .

استعد بطرس للرحيل الى الشرق ، ولتدبير نفقات الحملة رهن امارة تونير Tonnerre لصهره كونت نيفار Nevers واستطاع أن يجمع حوالـــى مائة وستون من الفرسان وخمسمائة وخمسين من المشاة وكانوا جميعا مجهزين أحســن تجهيز . وفى باكورة عام ١٢١٧ م ، رحل بطرس الكورتناى بهذا الجيـــش الصغير واتجه أولا نحو روما ، حيث رغب فى أن يقوم البابا نفسه بتتويجه ، ورفض البابا هونوريوس (١٢١٦ — ١٢٢٧ م) فى البداية أن يتوجه ، غير أنه تحت ضغط الحاحات بطرس نفسه وعدد من الشخصيات الهامة ، وافق البابا علـــى تتويجه ولكن خارج أسوار مدينة روما فى كنيسة سانت لورنزو Saint Lorenzo فى التاسع من ابريل عام ١٢١٧ م . ويرجع رفض البابا هونوريوس تتويج بطـرس الكورتناى فى البداية الى أنه لم يرغب فى الاعتداء على البطريركية اللاتينية فـــى القسطنطينية ، والتى كان ذلك واحدا من امتيازاتها ، كذلك أراد بتتويج بطرس خارج الاسوار ان يضع حدا فاصلا بين الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربية (٢) .

١) بطرس الكورتناى كونت أوكسر ونامور ، وهو حفيد لويس السادس ، وابن عم الامبراطور فيليب اغسطس ، حصل على كونتية أوكسر Auxerre وتونير من زواجه الاول ، وورث كونتيه نامور بزواجه الثانى من يولاندا شقيقة الامبراطورين بلدوين وهنرى فلانـــدر وكان بطرس محاربا شجاعا قويا ، بلغ عند اختياره امبراطورا الخمسين من عمره .
Longnon, op. cit., p. 153.

٢) Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occi, 2, p. 290., Iorga, " Les Francais à Constantinople" dans Revue Historique Sud-Est Européen (1935), p.194., Longnon, op. cit., pp. 153-54., Setton, op. cit., 2, pp. 211-12.

اقسم الامبراطور بطرس الكورتناى وزوجته يولاندا — بعد التتويج بيومين — أمام ممثلى دوج البندقية على أن يحافظ على الاتفاقيات التى عقدها أسلافهما مع البندقية — شاملة حقوق البندقية فى ابيروس — ومع سالونيك ومع بارونات الامبراطورية اللاتينية . وفى ١٧ ابريل ١٢١٧م ترك بطرس وزوجته روما الى برنديزى . وهناك انضم اليه الكردينال حنا كولونا Jean Colonna . الذى ارسله البابا هونوريوس الثالث كمندوب للبابوية فى الامبراطورية اللاتينية . وابحروا جميعا من ميناء برنديزى على ظهر السفن التى وضعتها البندقية تحت تصرفهم غير أنهم توقفوا فى دورازو على الساحل الشرقى للادرياتيك وكانت حينئذ فى دائرة نفوذ ثيودور انجيلوس أمير ابيروس . على حين واصلت يولاندا زوجة بطرس الرحلة الى القسطنطينية بحرا (١) .

حاصر بطرس دورازو على انه مالبث أن رفع الحصار عنها بعد هجمات غير مجدية قام بها هو ورجاله . ثم أخذ الامبراطور بطرس طريقه الى سالونيك بعد ذلك . وعبر جبال البانيا وسط أرض معادية . وبطبيعة الحال رفض السكان أن يقدموا له ولرجاله المؤن ووضعوا العقبات والعراقيل فى طريقهم — وبعد أن انهكت قواهم وأضناهم الاعياء والتعب . اعترض ثيودور انجيلوس أمير ابيروس طريقهم بجنوده . وطلب التحدث الى الكردينال المندوب البابوى المصاحب للامبراطور بطرس وعرض عليه عروضا خطيرة ومغرية فى الوقت ذاته . وعلى رأسها أن يقسم ثيودور يمين الطاعة والولاء لكنيسة روما وان يعترف بسيادة الامبراطور وسلطانه . وعرض كذلك أن يقدم خدماته للفرقة اللاتينية المنهكة كأن يزودها بالمؤن . ويعمل كمرشد لها فى الطريق . ولم يكن لدى الكردينال حنا كولونا أى شك فى هذه العروض . وراح يقنع الامبراطور بطرس بضرورة قبولها خاصة وان رجاله

---

(1) Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occi, 2, pp.290-91., Nicol, The despotate, p.51, Longnon, op. cit., p. 155.

ذاقوا من التعب والاعياء الاميرين ، نوافق الامبراطور على عروض ثيودور انجيلوس . وما ان اطمئن الامبراطور بطرس ورجاله الى ثيودور وعروضه حتى القوا بسلاحهم عبر الممرات الجبلية الوعرة ، وعندئذ باغتهم ثيودور فقتل منهم من قاوم وأسر الامبراطور بطرس والمندوب البابوى حنا كولونا وعدد من البارونات وأخذهم جميعا كرهائن . أما الجنود فقد قسمهم الى مجموعات وقيدهم كقطعان الماشية وأطلقهم فى جهات متفرقة من الجبال ، بعد أن جردهم من ملابسهم ليواجهوا مصيرهم التعس (١) .

كان لهذا العمل الذى قام به ثيودور انجيلوس صدى واسع النطاق ، اذ قوى من عزيمة البيزنطيين وزاد من نفوذ ثيودور ، الذى حقق لنفسه ولامارته فى ابيروس بهذا العمل شهرة طغت على شهرة ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه ذاته ، واصبحت ابيروس بعده مركز الهللينية القوى ، الذى يشن هجماته على اللاتين الجدد الذين اتوا الى شبه جزيرة البلقان (٢) .

أما عن مصير الامبراطور اللاتينى بطرس الكورتنای فانه لم يكن أقل غموضا من مصير سلفه بلدوين فلاندر (١٢٠٤ ـ ١٢٠٥ م) ، أما مصير المندوب البابوى حنا كولونا فكان أفضل بكثير ، فليس هناك شك فى أن ثيودور كان يأمل من وراء أسر هؤلاء الرهائن من ذوى المكانة الحصول على الفدية والاستفادة من صفقة القيمة كبيرة ، ربما تشمل جزءا من سلكة سالونيك ذاتها ، ولكن حين فكر ثيودور فى هذا تناسى أن يحسب حسابا لسلطة البابا ، والاثر الذى سيحدثه عمله هذا فى الغرب . فما أن علم البابا هونوريوس الثالث بتلك الكارثة حتى أرسل على الفور خطابات الى ملك المجر ، وأمير المورة ودوق البندقية ، يحثهم على سرعة التصرف لانقاذ الامبراطور بطرس والمندوب البابوى ومن معهما من

(١) Estoire de Eracles empereur, in R.H.C., Historiens Occi, 2, pp. 292-93., Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 28., Chronique de Morée, pp.18-19., Nicol, The despotate, p. 51., Longnon, op. cit., p.155.

(٢) Vasiliev , op. cit., 2, p. 193., Ostrogorsky, op. cit., p.384., Longnon, op. cit., p. 156.

البارونات الاسرى لدى ثيودور انجيلوس ، وفى الوقت نفسه كتب هونوريوس لثيودور يلومه على عمله الشائن هذا ويهدده بحرب صليبية . فما كان من ثيودور الا أن اطلق سراح المندوب البابوى والاسرى الاخرين ، وسلك مسلك أخيه ميخائيل دوقاس بأن وضع امارة ابيروس تحت حماية البابوية (١) .

وهكذا ولسوء حظ الامبراطورية اللاتينية أن أصبحت القسطنطينية وسالونيك فى ايدى النساء ، فقد وصلت الامبراطورية يولاندا الى القسطنطينية وتقلدت مقاليد الحكم بها ، على حين ترك يوستاش فلاندر سالونيك عام ١٢١٦م ، كما غادرها فى العام التالى بيرتولد كاتزنيللينبوجين Katzenellenboyon الى عكا ، فحكمت مارجريت المجرية أرملة بونيفاس مونتفرات وابنها القاصر ديمتريوس سالونيك بمفردهما . وكان ثيودور انجيلوس امير ابيروس يأمل أن يجرد كليهما مما يملكان ، على أن مركزه لم يكن مأموناً تماماً فى مقدونيا ، لذلك كان عليه قبل أن يقدم على الهجوم على سالونيك — كخطوة أولى للقسطنطينية — ان يكتسح بقية الحصون والاستحكامات اللاتينية فى تساليا ومقدونيا (٢) .

بدأ ثيودور حملته عام ١٢١٨م فى تساليا أولا ثم فى مقدونيا ، ونجح فى الاستيلاء على سائر القلاع والمدن والواقعة على الطريق البرى الى سالونيك والقسطنطينية ، وكان هذا يعنى العزلة والانفصال الكامل بين العاصمتين . كما تعرض الطريق البحرى للخطر بعد أن تحكم ثيودور انجيلوس فى بلاتامون Platemon — على بعد ٤٠ ك م من جنوب سالونيك — وسيطرته عليها ، تلك المدينة التى كانت تحرس المدخل الى خليج سالونيك (٣) .

---

(١) Nicol, The despotate, pp. 52-53., Longnon, op. cit., p. 156., Setton, op. cit., 2, pp. 212-13.

(٢) Nicol, op. cit., pp.54., Longnon, op. cit., p. 162., Cam. Med. Hist, 4, Part.I., pp.305-306.

(٣) Nicol, op. cit., pp. 58-59., Cam. Med. Hist, 4, Part.I, p. 308.

وازاء هجمات ثيودور على سالونيك ومحاولته تطويقها ، قام البابا هونوريوس بوضع مملكة سالونيك تحت حمايته رسميا ، وكتب للمندوب البابوى حنا كولونا ـ الذى أصبح وصيا على الامبراطورية اللاتينية مع كونون بيتون على أثر وفاة الامبراطورة يولاندا عام ١٢١٩م ـ يأمره باتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوفير الامن لديمتريوس ملك سالونيك ، وفى نفس الوقت أصدر البابا قرار الحرمان ضد ثيودور انجيلوس ، وأرسل تعليمات الى رئيس اساقفة برنديزى والنواحى المجاورة بتحريم نقل الخيول والاسلحة ، وتصدير القمح وارسال الجنود على سفن من ايطاليا الى ابيروس . وفى الوقت ذاته دعا البابا الى حملة صليبية من أجل الدفاع عن سالونيك ضد هجمات ثيودور انجيلوس ، وتقرر أن يقود هذه الحملة وليم مونتفرات أخو ديمتريوس ملك سالونيك غير الشقيق (١)

ونظرا لتوقع وصول الحملة الصليبية التى دعا اليها وأعدها البابا ضد ثيودور ، قام ثيودور انجيلوس امير ابيروس بحصار مدينة سالونيك فى أوائل عام ١٢٢٣م ، وصمد المدافعون عن المدينة على أمل وصول الحملة الصليبية التى أعدها البابا . ونظرا لتزايد هجمات ثيودور على سالونيك ، ولتأخر وصول الحملة فقد أرسل الامبراطور اللاتينى روبرت الكورتناى Rebert Courtenay (١٢٢١ ـ ١٢٢٨م) جيشا الى مقدونيا فى ابريل ١٢٢٤م لانقاذ سالونيك المحاصرة تحت قيادة ثيرى والينكورت Thierry Walincourt وقام هذا الجيش بفرض الحصار على قلعة سيرس Serres الى الشمال الشرقى من سالونيك ، والتى كان ثيودور انجيلوس قد احتلها منذ مارس عام ١٢٢١م ، وكان جيش روبرت على وشك الاستيلاء عليها ، ومتابعة سيره الى سالونيك ، غير أن جيش الامبراطور روبرت انسحب على اثر الكارثة التى حلت باللاتين على يد حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه فى بيمانينون Poimanenon فى آسيا الصغرى عام ١٢٢٤م (٢) .

---

(١) Nicol, The despotate, pp. 61-62., Longnon, op. cit., p. 162., Setton, op. cit., 2, p. 215.

٢) انظر ماسبق ص ٧٧ـ٧٨ .

وعند انسحابهم من سيرس قطع جيش ثيودور انجيلوس امير ابيروس الطريق عليهــم ، ووقع قادة جيش روبرت فى الاسر [١] .

هذا فى الوقت الذى كان فيه بلافيسينو Pelavicino الوصى علــى سالونيك وقائد الحامية اللاتينية التى تقوم بالدفاع عنها تحت الحصار منــذ عدة أشهر ، وفى أشد الحاجة الى المؤن والمساعدات ، وقطع انسحاب جيش الامبراطور روبرت من سيرس الامل فى الحصول على مساعدة من القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه وصلت الاخبار بأن الحملة التى طالما توقع وصولها لانقاذ سالونيــك لن تصل لموت قائدها وليم مونتفرات ، فاستغل ثيودور انجيلوس هذه الاوضــاع وتوج انتصاراته فى ديسمبر عام ١٢٢٤م بدخوله سالونيك منتصرا بعد أن استسلمت الحامية اللاتينية هناك ، وكان أن توج ثيودور امبراطورا على سالونيك ولبس الوشاح الارجوانى والاحذية الحمراء ووقع على مراسيمه بجميع القاب الاباطرة البيزنطيين [٢] .

كان استيلاء ثيودور امير ابيروس على سالونيك المدينة الثانية بعــــد القسطنطينية صدمة قاسية ابتليت بها الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، اذ حرمها من دولة اقطاعية ذات أهمية كبرى بالنسبة لها ، وانتزع منها الاقليم القريب من العاصمة الذى هو مصدر امنها وحمايتها . كما كان احتلال مملكة سالونيــك حــدثا خطيرا بالنسبة للاتين المقيمين فى اليونان ، اذ أصبحوا منــذ الان

---

١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 38., Nicol, The despotate, p. 63., Longnon, op. cit., pp.162-63.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.36., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 26., Nicol, op. cit., p.63., Vasiliev, op. cit., 2, p. 194., Longnon, op. cit., p. 163 Cam. Med. Hist, 4, Part I, P. 309.

تماما مقطوعى الصلة من الامبراطورية اللاتينية بواسطة دولة واسعة قادرة قوية امتدت من الادرياتيك الى ادريانوبل — على بعد ٢٠٠ ك ٠م من القسطنطينية — ووصلت جنوبا حتى حدود اليونان [١] .

وعلى النقيض من ذلك ، علا نجم ثيودور انجيلوس باستيلائه على سالونيك وامتد نفوذه على الاراضى الممتدة مابين البحر الادرياتيكى وبحر ايجه ، وبدت له القسطنطينية كما لو كانت هدفا قريبا من طموحه ، وانها أصبحت فريسة سهلة مؤكدة ، وان اليوم الذى سيدخل فيه كنيسة القديسة صوفيا قريب ، فالاستيلاء على القسطنطينية من سالونيك ايسر وأسهل من الاستيلاء عليها من نيقيه [٢] .

لهذا سرعان ما بدا أنه سيكون هناك تحكيم للقوة بين اثنين من الاباطرة البيزنطيين ثيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠ م) امبراطور سالونيك وحنا فاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤ م) امبراطور نيقيه اذ سعى كل منهما الى استرداد القسطنطينية ، وأصبح واضحا أن الامبراطورية اللاتينية مقدرا لها السقوط على يد واحد منهما ، ولم يعد أباطرة نيقيه هم وحدهم المطالبين بميراث بيزنطة ، بل أصبح لهم شريك آخر هو ثيودور انجيلوس الذى اجبر اللاتين على أن يعترفوا به امبراطورا ، ومن ثم لم يكن ممكنا أن يعيش الامبراطوران البيزنطيان ثيودور انجيلوس امبراطور سالونيك وأمير ابيروس وحنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه فى سلام ووئام وانسجام ، فقد اراد كل منهما أن يحظى بشرف استرداد القسطنطينية ، كما أن التعاون بينهما لتحقيق هذا الهدف كان أمرا عسيرا بسبب الحقد والغيرة التى انتهت بحرب سافرة بينهما كانت نتيجتها أن احتفظ اللاتين بامبراطوريتهم أو بملكيتهم للقسطنطينية فترة اطول [٣] .

(١) Ostrogorsky, op. cit., pp.385-86., Bon, La Moree Franque, p. 78.

(٢) Vasiliev, op. cit., 2, p. 195.

(٣) Cam. Med. Hist, 4, Part.I., p.309.

بدأت الحرب السافرة بين نيقيه وابيروس منذ العام الذى توج فيه ثيودور انجيلوس كامبراطور على سالونيك (١٢٢٤م) . وفى الوقت الذى انحسرت فيه الامبراطورية اللاتينية على حوائط عاصمتها . فقد أدى انتصار حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه فى بوماينتون عام ١٢٢٤م الى فتح سائر الممتلكات اللاتينية فى آسيا الصغرى تقريبا فى خلال شهور قليلة . ومدت امبراطورية نيقية نشاطها أيضا الى أوربا [1] . عندما استغاث مواطنوا أدريانوبل بفاتاتزيس من أجل أن يخلصهم من اللاتين . انتهز فاتاتزيس الفرصة وأقام حامية من جيشه فى مدينتهم . على أن ثيودور انجيلوس لم يطق صبرا على ذلك واتجه فى ربيع عام ١٢٢٥م نحو أدريانوبل وعسكر خارج حوائطها وبذلك وقف حاجزا بين ادريانوبل وامبراطور نيقيه . وادرك ثيودور ان سكان أدريانوبل لم يرغبوا فى نيقيه سوى من أجل الحماية من اللاتين لذلك عرض عليهم عروضا سخية تحقق لهم ما أرادوه من حماية وذلك اذا ما طردوا جيش فاتاتزيس . فقبل سكان ادريانوبل عروض ثيودور وفتحوا لجيشه بواباتهم . وبذلك انتقلت ادريانوبل من ايدى حنا فاتاتزيس الى ايدى ثيودور انجيلوس [2]

هدد ثيودور انجيلوس الوجود اللاتينى فى القسطنطينية باستيلائه أولا على سالونيك ثم على ادريانوبل لذلك سعى البارونات اللاتين فى محنتهم هذه الى الحصول على تأييد بلغاريا وفى نفس الوقت سعى ثيودور انجيلوس الى الاتحاد على بلغاريا فى خططه لغزو القسطنطينية . فقد قرر ثيودور انجيلوس ان الوقت قد حان ليؤمن مركزه فى تراقيا وذلك بالتحالف مع حنا اسن Jean Asen قيصر بلغاريا ومصاهرته . وأعد العدة لزواج ابنه مانويل من ابنة آسن غير الشرعية ماريا بيلوسلافا Maria Belcslava . وبهذه

---

١) انظر ما سبق ص ٧٩ .

٢) Acropolitas, op. cit., in C.S.H.B., pp.42-43., Nicol, The despotate, pp. 103-104.

المعاصرة أصبحت ممتلكات ثيودور في تراقيا ومقدونيا ـ التي كان لها حدا مشتركا مع بلغاريا ـ في مأمن من أي هجوم ، واستطاع ثيودور أن يعتمد على تشجيع ان لم يكن على مساعدة آسن ضد اللاتين ، وبذلك تعلق مصير القسطنطينية في الميزان ، ولكن كان حظ آسن هو الذي يمسك بالكفتين (١) .

عندئذ اسرع الامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناى الى الاتفاق مع منافسي ثيودور انجيلوس وخصمه وهو حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه ، ووقع معه عام ١٢٢٥م معاهدة تنازل فيها روبرت لفاتاتزيس عن آخر حصون الامبراطورية اللاتينية وقلاعها في آسيا الصغرى (٢) .

لم يعبأ ثيودور انجيلوس بذلك ، بل استمر في هجماته على الاقاليم اللاتينية يخربها ويدمرها حتى وصل الى مدينة فيزيا Vizya - في منتصف الطريق بين أدريانوبل والقسطنطينية ـ وبذلك اقترب ثيودور من أبواب القسطنطينية ذاتها ، غير أن مناعة المدينة وأسوارها القوية واستماتة الحامية اللاتينية في الدفاع عنها ، وعدم استعداد ثيودور انجيلوس نفسه لعمليات الحصار ، كل ذلك اضطره الى الانسحاب خاصة وانه في صيف عام ١٢٢٥م وصلته اخبار بأن وليم مونتفرات قائد الحملة التي أعدت لانقاذ سالونيك قد رسى في تساليا فأسرع ثيودور عائدا الى عاصمته ، على أن هذه الحملة فشلت اذ مات قائدها وليم مونتفرات (سبتمبر ١٢٢٥م) ومن ثم تفتت شمل قواته ، وبهذا زال التهديد القائم من الغرب ممثلا في هذه الحملة ، وأصبح ثيودور سيدا معترفا به على مملكة سالونيك ، ولم تعد هناك قوة يمكنها أن تعارض حقه في لقب امبراطور الرومان (البيزنطيين) (٣) .

---

(١) Acropolitae, p. 44., Nicol, op. cit., pp. 104-105., Cam. Med. Hist, 4, I, p.309. 527.

(٢) Acropolitae, p. 44., Longnon, op. cit., p.161.

(٣) Adropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 44., Nicol, the despotate, p. 105., Setton, op. cit., 2, p. 215.

ويبدو أن ثيودور انجيلوس ظل فى عاصمته ببنطس (١٢٢٦ ـ ١٢٢٨م) من أجل مباشرة ادارة امبراطوريته والاستعداد من جديد للهجوم النهائى على القسطنطينية . وفى تلك الاثناء ، بدا أن احوال القسطنطينية قد ساهمت فى تحقيق طموح ثيودور انجيلوس ، اذ ساءت خلالها أحوال الامبراطورية اللاتينية بانصراف الامبراطور اللاتينى روبرت عن الاهتمام بشئون الامبراطورية الى حياته الخاصة ، على أنه مالبث أن توفى فى اوائل عام ١٢٢٨م وانتقل العرش الى اخيه القاصر بلدوين ، ولهذا برزت مشكلة الوصاية وعرض حنا آسن القيصر البلغارى لقاء توليه منصب الوصاية ، أن يفى بجميع نفقات الامبراطورية اللاتينية ، وأن يسترد بأسمها جميع الاقاليم التى كان ثيودور انجيلوس قد كسبها حديثا (١) .

احدث عرض حنا آسن اثرا بالغا فى نفس خليفه ثيودور انجيلوس امبراطور سالونيك وامير ابيروس ، الذى ربما شك فى أن مسألة وصاية حنا آسن على القسطنطينية وعرضه فى مقابلها لايتلائم بأى حال من الاحوال مع شرط التحالف بين بلغاريا وابيروس ، لهذا وعلى الرغم من أن الطريق كان يزال مفتوحا امام ثيودور ليطبق على القسطنطينية من ادريانوبل التى تبعد عنها بخاتين ك.م . فقط ، الا أنه سارع بتوقيع هدنة مع اللاتين لمدة عام فى ١١ ديسمبر عام ١٢٢٨م وأصبحت نافذة المفعول فى ١٤ ديسمبر من نفس العام . وهكذا تجنب اللاتين هجوم ثيودور انجيلوس على القسطنطينية (٢) .

وبدأت الهدنة تأخذ مسارها ولكن كانت القسطنطينية بلا امبراطور ، اذ أن الوصى الجديد حنا بربين لم يصل اليها سوى مؤخرا فى عام ١٢٣١م . ولهذا أصبحت الامبراطورية اللاتينية فى الفترة من ١٢٢٩ ـ ١٢٣١م بدون

---

١) انظر ماسبق ص ٨٠ .

٢) Nicol, The despotate, p. 108., Longnon, op. cit., p. 169.

دفاع كافٍ وبدون حاكم كفء . هذا في حين كانت استعدادات ثيودور انجيلوس لمهاجمة القسطنطينية قد اكتملت قبل نهاية عام ١٢٢٩م (١)

وفي ربيع عام ١٢٣٠م ، ظهر أن جميع الاستعدادات قد اتخذت للمعركة النهائية التي ستعيد القسطنطينية الى البيزنطيين . وكان الوقت ملائما فالقسطنطينية بلا امبراطور كما انتهت مدة الهدنة بين اللاتين وثيودور انجيلوس . وربما خرج ثيودور بالفعل من سالونيك متجها نحو القسطنطينية على رأس قواته . وحاول أن يستغل ضعف الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وكله أمل في النجاح ولكن انعكست جميع التوقعات . فبدلا من أن يواصل ثيودور انجيلوس طريقه الى القسطنطينية استدار شمالا وراح يغزو بلغاريا (٢) .

اتهم المؤرخون البيزنطيون — الذين يحتفظون بالولاء لامبراطورية نيقيه — الفرصة ليكيلوا لثيودور الاتهام بالخيانة والغدر . ليلقوا تبعة الكارثة على اندفاعه وتهوره وعلى طموحه الزائد ومزاجه المتقلب . ولكن ثيودور نفسه كان لديه أسباب للشكوى من موقف حليفه حنا آسن الذى عرض مؤخرا غزو سالونيك لاجل اللاتين تصدع ذلك صداقته لثيودور انجيلوس . ومن أجل أن يؤمن جناح جيشه ولا يجعله عرضة للضرب من الخلف ، اختار أن يرجئ الهجوم على القسطنطينية حتى يتخلص من القيصر البلغارى حنا آسن . (٣)

حاصر ثيودور انجيلوس بلغاريا بجيش كبير من البيزنطيين والايطاليين . فتصدى له آسن بمساعدة قوات من الكومان . وفي معركة حاسمة عند كلوكوتنيتزا Klokotnitza على الطريق بين ادريانوبل وفيليبوبوليس — استطاع حنا آسن

(١ Bréhier , Jean Brienne, p. 706., Longnon, op. cit., p.171.

(٢ Nicol, The despotate, pp. 109-101., Cam. Med. Hist, 4, Part.I., p. 310.

(٣ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 44., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., pp. 27-28.

أن يحقق النصر على ثيودور انجيلوس الذى وقع أسيرا مع عدد من رجاله ، على أن حنا آسن عامل أسيره خير معاملة ، اذ مالبث أن أطلق سراحهم ، غير أن ثيودور حاول أن يتآمر ضده ، فقبض عليه وسمل عينيه (١) .

حطمت معركة كلوكوتنيتزا قوة ابيروس بضربة واحدة وأزالتها من الوجود وأنقذت الامبراطورية اللاتينية من خطر ثيودور انجيلوس الذى كان على وشك استرداد القسطنطينية من أيدى اللاتين . ومنذ ذلك الحين لم يعد الصراع على القسطنطينية بين ثلاثة متنافسين ولكن بين اثنين فقط هما امبراطور نيقية حنا فاتاتزيس ، والقيصر البلغارى حنا آسن الذى بعد انتصاره على ثيودور انجيلوس فى كلوكوتنيتزا ، استولى على ادريانوبل ومقدونيا وألبانيا حتى وصل الى دورازو تقريبا ، وسجل آسن فتوحاته على نقش فى ترنوفو حفر على عمود من المرمر الابيض فى كنيسة " الاربعين شهيدا Quarante Martyrs " جاء به : " قمت بالحرب فى رومانيا وهزمت الجيش البيزنطى ، وأسرت الامبراطور ثيودور انجيلوس نفسه وكل من معه ، واحتللت كل الارض من ادريانوبل حتى دورازو .... ان اللاتين يمتلكون القسطنطينية والمدن التى تجاورها فقط ، وانهم واقعون تحت سلطان امبراطوريتى وليس لهم امبراطور سواى بوجودى يحيون ، كذلك قضى الله " (٢) .

وهكذا انهارت كل الجهود التى جاهد من أجلها صاحب ابيروس ، ولم يتمكن خليفته وهو شقيقه مانويل من التطلع بعد هذا الى القسطنطينية فقد كان مانويل ظلا لقوة ثيودور انجيلوس السابقة ، وكان هذا علامة على خروج ابيروس ولو مؤقتا من حلبة التصارع على استرداد القسطنطينية .

---

(١) Acropolites, pp. 45-46., Gregoras, P.28., Nicol, op. cit., pp. 110-11.

(٢) Vasiliev, op. cit., 2, p. 199., Bréhier, vie et Mort, I, pp. 377-78.,
Cam. Med. Hist, 4, part. I, pp. 310, 428, 527.

الامبراطورية اللاتينية وامبراطورية طرابيزون :

بعد الاستيلاء على طرابيزون – على ساحل البحر الاسود – عام ١٢٠٤م بدأ الاختلاف يظهر بين شخصية كل من الكسيوس واخيه داود ، فبينما آثر الكسيوس سياسة العزلة وظل فى طرابيزون أو قريبا منها ، قام أخيه داود بهجوم موسع على طول شواطئ البحر الاسود من ناحية الغرب ، وبلغ بحملته الناجحة غربا نيقوميديا على شواطئ بحر مرمرة (١) . وفى ذلك الوقت – ولاشك – كان داود يضع نصب عينيه هدف امتلاك القسطنطينية واستعادة الامبراطورية البيزنطية ، وكاد ينفذ مخططه الطموح خاصة وان اللاتين فى ذلك الوقت لم يكن لديهم متسع من الوقت للتفرغ لقتاله ، فقد انسحبوا من آسيا الصغرى على عجل لصد الهجوم البلغارى المفاجئ على الامبراطورية اللاتينية عام ١٢٠٥م ولكن سياسة ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه النشطة قلبت مخططات داود رأسا على عقب (٢) .

اتخذ ثيودور لاسكاريس كافة الاستعدادات ليوقف حركة الفتح التى قام بها داود والتى حققت نجاحا متصلا على طول الشواطئ الجنوبية الغربية للبحر الاسود ، ونجح لاسكاريس فى أن يجبر داود على الاعتراف بهراقليا Heraclea على أنها الحد الغربى لممتلكاته ، واذا كان داود قد قنع بهراقليا كحد غربى لممتلكاته ، فان ثيودور لاسكاريس لم يقتنع وصمم على أن يطرد داود من هراقليا ، ووفقا لما يقوله نيقتاس خونياتس ، كان لاسكاريس سيأخذ هراقليا ، ويجبر داود

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Vasiliev, " The Foundation of the empire of Trebizond" in speculum, Vol, XI (1936) pp. 21-22., Miller, Trebizond, p. 15.

٢) Vasiliev, The Foundation , p. 23., Miller, op. cit., p. 16.

على الهرب ، لولا أن وصل الاخير الى اتفاق مع اللاتين الذين استولوا من لاسكاريس على نيقوميديا ، وبذا صرفوا اهتمام ثيودور لاسكاريس عن هرقليا (١)

عقد داود بالفعل معاهدة تحالف مع اللاتين في القسطنطينية ، اذ خشي أن يصبح بدون مساعدتهم غير قادر على أن يحمي فتوحاته وان يحتفظ بأملاكه وأعلن داود نفسه في عام ١٢٠٦م تابعا وتابعا للامبراطورية اللاتينية ، وقبل أن يحصل على هرقليا والبلاد المجاورة لها كاقطاع من الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر ، وطلب من اللاتين أن يدخل في عدادهم كواحد من رعاياهم في مواصلاتهم ومساعدتهم مع ثيودور لاسكاريس ، ويعلق فازيليف على ذلك بقوله : " لقد كان من مصلحة داود أن يفضل سيادة لاتينية اسمية على الانضمام الى جانب ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه " (٢) .

امد اللاتين داود بمساعدة مؤقتة ، اذ تركوا له حوالى ٣٠٠ من القوات المساعدة اللاتين حتى يستطيع بهم مواجهة هجمات ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقيه ، ولكي يكافأ داود اللاتين على مساعدتهم له ، أرسل الى القسطنطينية كميات من الغلة ولحم الخنزير ، وعبر داود بالقوات اللاتينية المساعدة نهر سنجاريوس Sangarios ، وقام بسلب ونهب بعض القرى الخاضعة لثيودور لاسكاريس ، ثم انسحب بعد ذلك بعدة أيام ، ولكن اللاتين الذين كانوا معه تابعوا تقدمهم عبر التلال بلا حذر ولا حذر ، وهاجمهم فجأة على غرة اندرونيقوس جيدوس Andronicus Gidos قائد ثيودور لاسكاريس في المعمرات الوعرة في نيقوميديا ، وهزمهم هزيمة ساحقة حتى انه لم يكد يبقى على رجل واحد

(١ Nicetas, Historia , in C.S.H.B., pp. 844, 45. Vasiliev, The foundation of the empire of Trebizond, p. 23.

(٢ Finlay, op. cit., 4, p. 325., Vasiliev, The Foundation, p. 24.

واحد يقى الكارثة لداود . ومن ثم لم تكن مساعدة اللاتين لداود كافية بالقدر الذى يخلصه من الخطر الذى كان يهدده من جانب امبراطور نيقيه [١] .

أصبح موقف داود فى مراقلية جد خطير بعد هزيمة حلفائه ، وفى سبتمبر عام ١٢٠٨م ظهر رسله فى شبه جزيرة البلقان ، أمام مدينة بامفيلون Pamphylon فى تراقيا — التى كان يحاصرها آنذاك الامبراطور اللاتينى هنرى بقواته — وأعلن رسل داود أن ثيودور لاسكاريس هاجم داود وانه لم يساعده الامبراطور هنرى ينقذه ، فسوف يفقد أرضه ، ويذكر المؤرخ المعاصر فالنسيان أن " الامبراطور هنرى تأثر لسماعه هذا الكلام ، فقد كان داود يحمل له دائما كل حب وود وولاء " [٢] .

استجاب الامبراطور هنرى لمناشدة داود بصورة مناسبة ، اذ أسرع الى القسطنطينية ببعض الفرق ، وعبر البسفور ونزل فى خلقدونيا ، وأجبرت هذه الحركة من جانب الفرق اللاتينية لاسكاريس على الانسحاب من هراقلية الى نيقيه ، بعد أن غرق نحو ألف من رجاله فى الانهار . ولم يستطع هنرى اللحاق بلاسكاريس بسبب حلول فصل الشتاء وسقوط الامطار الغزيرة ، فعاد الى القسطنطينية بفرقة ، ولم يكن لتلك الحملة اللاتينية أى صدى سوى أنها أجلت انهيار خطط داود الطموحة لا أكثر [٣] .

أفاد ثيودور لاسكاريس للغاية من معاهدة السلام التى عقدها مع اللاتين عام ١٢١٤م [٤] ، اذ استدار على حلفاء الامبراطور هنرى فى طرابيزون ،

(١) Vasiliev, The foundation of the empire of Trebizond, p. 24., Miller, Trebizond, pp.17-18., Finlay, op. cit., 4, p. 326.

(٢) Valenciennes, Histoire de l'empereur Henri, p. 335.

(٣) Valenciennes, op. cit., pp.335,37, Vasiliev, The Foundation , p.25.

(٤) انظر ما سبق ص ٢٤-٢٥ .

وواصل تقدمه على طول البحر الاسود حتى وصل الى سينوب Sinope ، ولكن أوقف تقدمه هناك تدخل السلطان السلجوقي عزالدين كيكاوس (١٢١٠ـ١٢١٩م) الذي أدرك أنه في حالة احتلال ثيودور لاسكاريس لسينوب ستفقد السلطنة منفذا حيا على البحر الاسود (١) .

كانت سينوب من أغنى مدن داود ، لهذا أسرع للدفاع عنها وبمعه ما استطاع أن يجمعه من قوات ، غير أن سينوب وقعت في يد السلطان السلجوقـــي في أواخر صيف عام ١٢١٤م وقتل داود (٢) .

وانقذ الكسيوس شقيق داود امبراطورية طرابيزون من الدمار بأن أعلـــن تبعيته للاتراك السلاجقة ، وقبل أن يدفع للسلطان السلجوقي جزية سنويـــة وان يمده بما يحتاج اليه من فرق عسكرية ، وذلك في مقابل أن يتعهد السلطان بأن يعترف بالكسيوس حاكم للمنطقة الواقعة غرب طرابيزون فيما عدا سينوب ، وان يكون السلطان السلجوقي كريما حياله (٣) .

ومنذ ذلك الحين فصلت امبراطورية طرابيزون عن الامبراطورية اللاتينيـــة في القسطنطينية وعن امبراطورية نيقيه ، وانحصرت سياستها الخارجية في العلاقات مع سلطنة قونيه وجورجيا ، وانفصلت طرابيزون عن غرب آسيا الصغرى ، واختفى بالتالي كل اثر للتبعية السابقة للامبراطور اللاتيني وحلت محلها التبعية للسلطان السلجوقي (٤) .

(١ Vasiliev, The foundation of the empire of Trebizond, p. 26.

٢) أورد المؤرخ الفارسي المعاصر ابن البيبي الوصف التفصيلي للاستيلاء على سينوب وهو ناصر الدين بن محمد المعروف بلقبه ابن البيبي ، عاش في القرن ١٣م في سلطنة سلاجقة الروم اذ توفي في عام ١٢٧٢م ، ومؤلفه المعروف جيدا هو سلجوق نامه ، وهو تاريخ للسلاجقة يبدأ من عام ١١٩٢م . ومن هذا المؤلف انظر :

Houtsma, Histoire des seldjoucides d'Asie Mineure d'aprés Ibn Bibi, , Vasiliev, The foundation, pp. 26-27.

٣) لمزيد من التفاصيل عن استيلاء السلاجقة لسينوب انظر :

Vasiliev, The foundation, pp. 27-29.

(٤ Miller, Trebizond, pp. 18-19.

وتجدر الاشارة الى أن هناك من الاسباب ما حال بين طرابيزون وبين القيام بدور ايجابى فى استرداد القسطنطينية على عكس ما قامت به امبراطورية نيقيـــــه وامارة ابيروس . ومن هذه الاسباب أن طرابيزون بحكم بعدها وبدرجة لاتمكنها من تنفيذ المخطط الطموح للاستيلاء على القسطنطينية هذا فضلا عن أن تاريخ طرابيـــــزون كان يهتم بصفة خاصة بالتطور الثقافى والاقتصادى أكثر من اهتمامه بالنظـــــام السياسى . ولهذا عاشت طرابيزون فى عزلة لاتؤثر ولا تتأثر بالكفاح من أجـــــل القسطنطينية . وغير مبالية أو مكترثة باسترداد القسطنطينية (١) .

وهكذا نرى أن البيزنطيين لم يستسلموا للحكم اللاتينى فى القسطنطينيـــــة بل سعوا الى التخلص منه واعادة عاصمتهم من جديد . وقامت امبراطوريـــــة نيقيه وامارة ابيروس بمحاولات عدة لاسترداد القسطنطينية . وقطعت كل منهـــــا شوطا بعيد المدى لتحقيق هذا الحلم . ولكن محاولات اباطرة نيقية وحكـــــام ابيروس باءت بالفشل حتى عام ١٢٥٤م . ويرجع ذلك الى النزاع والخـــــلاف بين نيقيه وابيروس . فقد أرادت كل منهما أن تحظى بشرف استرداد العاصمة البيزنطية . ونظرت كلاهما الى الاخرى بعين الحقد والغيرة . وانتهى الامـــــر بحرب سافرة بينهما . أطالت من عمر الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينيـــــة . ويرجع سبب فشل محاولات حكام نيقيه وابيروس فى استرداد القسطنطينيـــــة أيضا الى دور البابوية والبندقية فى العمل على الحفاظ على كيان الامبراطوريـــــة اللاتينية . فكثيرا ما قامت البابوية بمناشدة الغرب الاوربى من أجل أن يمد العـــــون والمساعدة للاباطرة اللاتين فى القسطنطينية . وكثيرا ما قامت البندقية وسفنهـــــا بصد اعتداءات اباطرة نيقيه بصفة خاصة على القسطنطينية .

* * *

Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, 2, p. 177., (1
Ostrogorsky, op. cit., p. 383.

الفصل الثالث

علاقة الامبراطورية اللاتينية بالبابوية

- موقف البابوية من الفتح اللاتيني للقسطنطينية عام ١٢٠٤م
- البابوية والبطريركية اللاتينية في القسطنطينية •
- محاولات توحيد الكنيستين الشرقية والغربية (١٢٠٤ ـ ١٢٦١م)
- دور فرق الفرسان الرهبان (الدومنيكان ـ الفرنسيسكان) في الامبراطورية اللاتينية •

البابوية والفتح اللاتيني للقسطنطينية عام ١٢٠٤م :

رأينا فيما سبق أن البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ ـ ١٢١٦م) عارض تحول الحملة الصليبية الرابعة منذ البداية ، فأصدر قرار الحرمان ضد الصليبيين والبنادقة بعد استيلائهم على مدينة زارا Zara المسيحية على ساحل دالماشيا عام ١٢٠٢م . ثم أنه عاد وأصدر قرار العفو عن الصليبيين على اثر سفارة ارسلوها له ، وقصر الحرمان على البنادقة وحدهم . ودعا هذا البعض الى اتهام البابا بأنه المسئول عن تحول الحملة نحو القسطنطينية ، اذ أن قراره بالعفو عن الصليبيين كان يعني تشجيعهم على المضي في الهجوم على أي بلد مسيحي آخر حتى ولو كان القسطنطينية ذاتها .(١)

ويبدو من خطاب كتبه البابا أنوسنت الثالث لبعض الأساقفة ممن كانوا في جيش الصليبيين ما شعر به البابا من آلام بعد الاستيلاء على زارا . وذكر البابا في هذا الخطاب الشروط الصارمة التي أصدر على أساسها غفرانه وعفوه ، وذكر الوعد الذي أخذه الصليبيون على أنفسهم بأن يقدموا الولاء للبابوية ويكونوا طوع أمرها . ويتضح في هذا الخطاب أيضا موقف البابا أنوسنت الثالث من اتجاه الحملة الى بيزنطه اذ جاء به : " لقد منعناهم من الاستيلاء على الأراضي البيزنطية ، ومن القيام بسلبها أو نهبها بأية صورة من الصور ، وتحت أية حجة حتى ولو لم يخضع البيزنطيون للكرسي الرسولي .. وحتى اذا كان امبراطور القسطنطينية قد استولى

---

١) انظر :

Patrologia Latina, T. 214, Col. CXXXVIII.,
Hendrickx, " Recherches sur les documents diploma-
tiques non conserves, Concernant La Quatrieme
croisade et l'empire latin de Constantinople".,
in Byzantina, T.2 (1970), pp.125-26., pp.121-22.

على الحكم بخلع أخيه بعد تعذيبه ... نحن نريد بدون شك أن تكون الكنيسة البيزنطية وكنيسة روما قطيع واحد وتحت راع واحد ، ولكن عنايتنا البابوية تحافظ قبل كل شيء على استمرار أولادها في الطريق السليم ، فاذا انحرفوا عنه فعلينا أن نعيدهم الى الطريق السوى ". (١)

ورغم شروط البابا أنوسنت الثالث الصريحة بأن الصليبيين لا يملكون الحق في التدخل في الحوادث الداخلية الخاصة بالبيزنطيين ، وتحذيرهم من مهاجمة الدولة البيزنطية ، فقد قبل الصليبيون عرض الأمير البيزنطي الكسيوس ، وعرضوا عليه المساعدة لاسترداد عرش أبيه . والمتأمل في هذا العرض ، يدرك أن بعضا من نقاطه تحقق أحلام البابوية وآمالها خاصة خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما .

واذا كان البابا أنوسنت الثالث قلق في البداية نبأ فتح القسطنطينية بتحفظ ، ولم يخف شكوكه في مدى صدق الكسيوس الرابع واخلاصه في تنفيذ عرضه وظل مرتابا في أمر الهجوم على القسطنطينية ، فان الامبراطور بلدوين فلاندر Baudouin Flandre (١٢٠٤ — ١٢٠٥ م) — الذى اعتلى عرش القسطنطينية بعد فتحها في ابريل ١٢٠٤ م — قدم للبابا من الحجج ما يكفى للحصول على موافقة البابا وتشجيعه بل وتأييده لفتح القسطنطينية اذ أرسل بلدوين للبابا وللعالم المسيحى أجمع خطابا عاما ، فسر فيه الأحداث التى أدت الى الاستيلاء على القسطنطينية وتتويجه امبراطورا لها . وأوضح بلدوين في هذا الخطاب أيضا : " ان الفتح تم بفضل العناية الالهيـة التى ساعدت اللاتين في احراز النصر ، وان التحول نحو القسطنطينية لا يمكن أن يكون الا من أجل كنيسة روما ومجدها ، وانقاذ الأرض المقدسة واستخلاصها . وليس أدل على ذلك مما أظهره شماسة وفرسان الامارات الصليبية في بلاد الشام — الذين حضروا حفل تتويجه — من سرور وسعادة من بين الجميع لعودة القسطنطينية اليهم

(١) Patrologia Latina, T. 215, Cols. 261-63.,
Belin, Histoire de la latinite de constantinople, p. 45.

ولانها من الآن فصاعداً سوف تكرس نفسها لحماية أعداء الصليب " • وفي نهايــة خطابه هذا طلب من البابا أن يرسل رجال الدين الى القسطنطينية من أجل الدعــوة للعقيدة الكاثوليكية وادارة الكنائس • ودعا الامبراطور بلدوين البابا أنوسنت الــى أن يأتي الى القسطنطينية من أجل أن يعقد بنفسه مجمعاً كنسياً بها وأن يكــون البابا على رأس هذا المجمع •(١)

ومما أغرى البابا وزاد من تحمسه للفتح اللاتيني للقسطنطينية ماتبع خطــاب بلدوين فلاندرز من خطابات أخرى أرسلها القادة الصليبيون • ومن بينهم بونيفاس مونتفرات Boniface Montferrat والكونت لويس دي بلوا Louisde Blois والقديـــس سانت بول Saint Pol • بل ودوج البندقية داندولــو Dandolo ذاته • وقد أكد القادة الصليبيون في خطاباتهم للبابا الخضــوع والطاعة العمياء للكرسي الرسولي في روما ـ واعترف دوج البندقية داندولو ـ الذي كان حتى الآن لايبالي بتهديدات الكنيسة ـ بالسلطة المطلقة للبابا من أجل أن يرضيه وأشار داندولو الى أن فتح القسطنطينية ماهو الا بداية لانقاذ الأراضي المقدسة(٢)

واعتقد البابا أنوسنت الثالث من خلال خطاب الامبراطور بلدوين وخطابات القادة الصليبيين أنه سيبلغ الهدف المزدوج الذي كان يسعى من أجله منذ اعتلائه عرش البابوية عام ١١٩٨م • متمثلاً في تحقيق السيادة لكنيسة روما واسترداد الأراضي المقدسة(٣) • ولهذا قرر البابا أن يحمي بلدوين ويبارك انتصاره • ووضعه هو والامبراطورية الناشئة تحت حمايته • بل واعتبره فصلاً تابعاً للبابا • ودعا البابا البطارقة والأساقفــــة والقساوسة وسائر رجال الدين • والملوك • والدوقات • والكونتات وسائر الأمراء • وكل الشعوب الى مساندة امبراطور القسطنطينية بلدوين وتأييده • ومد يد المساعدة لــه حتى يتمكن من الاستيلاء على الأراضي المقدسة • ودعا البابا أيضاً رجال الديــن

---

١) انظر نص خطاب بلدوين للبابا في :

Patrologia Latina, T.215, Cols.447-54.,
Dufournet, Les écrivains de la 4 Croisade, T.2, pp.437-40.,
Longnon, L'empire latine de Constantinople, p.52.

٢) Michaud, Histoire des Croisades, 3, pp.290-91.,
Délile, " Les Lettres inédits d' Innoncent III", in Bibliothéque de l'école des charts (1873), p. 408.,
Bréhier, l'Eglise et l'Orient, pp.169-170.

٣) Belin, op. cit., p. 52.

والصليبيين في القسطنطينية الى أن يتولوا عملية الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية وحمايتها كخطوة نحو فتح الأراضي المقدسة ، وأن يمدوا الامبراطور بلدوين بالنصح المفيد والعون الفعال . وانهى البابا خطابه بدعوة الامبراطور بلدوين الى تكريس حكمه لتحقيق هدف الكنيسة الرومانية في أن تكون كنيسة القسطنطينية والامبراطورية اللاتينية تابعة لها .(١)

ويبدو من خطاب البابا الى بلدوين أنه علق أهمية كبيرة على الفتح بالنسبة لمستقبل بيت المقدس . واعتقد البابا أن القسطنطينية ستصبح بعد فتحها مركزا لتنظيم الحرب الصليبية وقاعدة لتقديم المساعدات الضرورية للصليبيين في الشرق . كما أن البابا انوسنت الثالث علق أهمية كبيرة أيضا على فتح القسطنطينية فيما يتعلق بعودة الكنيسة الشرقية الى حظيرة كنيسة روما .(٢)

واذا كان البابا أنوسنت الثالث تحمس للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وتعاطف مع امبراطورها بلدوين فلاندرز ، ووضعه تحت حمايته ، فان حماسة هذا استحال غضبا وغيظا عندما سمع بما اقترن بالفتح اللاتيني للقسطنطينية من نهب المدينة وسفك للدماء وارتكاب كل ما يخالف الدين من أعمال ، فانتقد جوهه واستنكر هذه الأعمال في عبارات قوية حازمة مؤثرة " اننا لن نستطيع أن نعترف بما حدث دون عار أوألم ".(٣) كما كتب البابا للمركيز بونيفاس مونتفرات يؤنبه على فعلتهم هذه : " لقد حدتم عن طهارة نذركم عندما زحفتم على المسيحيين بدلا من المسلمين ، واستوليتم على القسطنطينية بدلا من بيت المقدس ، وفضلتم كنوز الدنيا على كنوز الآخرة ".(٤)

ومما أثار غضب البابا أنوسنت أيضا ، تسابق الصليبيين الى تصفية

---

١) Patrologia Latina, T.215, Cols. 454-55.

٢) Fliche, Histoire de L'église, 10, p.72., Longnon, op. cit., p.52., Bréhier, L'Eglise, pp.170-71., عبد القادر أحمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٦٥ .

٣) Fliche, op. cit., T.10., p. 71.

٤) انظر ترجمة هذا الخطاب الى العربية في : اسمت غنيم ، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية ، ص ١٠٠–١٠١ .

الامبراطورية البيزنطية دون استشارة المندوب البابوى ، واغتصابهم ممتلكات الكنيسة البيزنطية دون أن يتركوا للقساوسة والأديرة الا الضرورى لاعاشتها ومقاضيها . لهذا كتب البابا انوسنت الثالث للامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية ولدوق البندقية ولجميع الأساقفة والبارونات أنه : " لايمكن أن يقر أى ظلم أو جور أو اثم ، وانه لايستطيع أن يصدق على أى اتفاق جارح سواء بالنسبة لكنيسة روما أو بالنسبة لكنيسة القسطنطينية ".(١)

هكذا رأى البابا أنوسنت الثالث أن جشع البنادقة وفرسان الغرب وشراهتهم فى جمع ثروات رجال الكنيسة البيزنطية سيسوف يشكل عقبة فى سبيل اتحاد الكنيستين الذى توقع تحقيقه ، وادرك أيضا أن أمله فى انقاذ الأراضى المقدسة مستقبلا لم يكن سوى وهم .(٢)

ورغم موقف البابا أنوسنت الثالث هذا فمما لاشك فيه أن تأسيس الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية أدى الى اتساع النفوذ الروحى والدنيوى لكنيسة روماء فاذا كان البطريرك البيزنطى قد لجأ الى نيقيه ورفض أن يتصالح مع اللاتين فى القسطنطينية ، فقد وجد فى القسطنطينية بطريركا لاتينيا يخضع للبابا (٣).

---

١) Fliche , op. cit., 10, pp.71-72.

٢) Ibid , 10, p.72.

٣) Ibid, p. 73.

البابوية والبطريركية اللاتينية في القسطنطينية :

بعد اختيار بلدوين فلاندر ـ وهو من الفرنسيين ـ امبراطوراً في مايو ١٢٠٤ م، عين البنادقة ـ عملاً ببنود اتفاقية مارس عام ١٢٠٤ م[1] ـ رجال الدين التابعين لهم في كنيسة القديسة صوفيا، وهو" لا " بد وهم انتخبوا توماس موروسيني Thomas Morosini كأول بطريرك لاتيني، إلا أنه لم يكن موجوداً في القسطنطينية ساعة اختياره، كما أن رتبته الكنسية كانت مساعد شماس Sub - Deacon، وكان عليه قبل أن يرتدي الطيلسان Pallium أن يمر بثلاث مراحل من الترسيم، فيكون شماساً ثم قساً ثم أسقفاً ".[2]

علم البابا أنوسنت الثالث بانتخاب موروسيني كبطريرك لاتيني قبيل نهاية يناير عام ١٢٠٥ م، وعلم أيضاً بالطريقة التي تم بها هذا الانتخاب، ولذا ندد بشدة بهذا الاختيار باعتباره لا يتفق ودستور الكنيسة ولو أن موروسيني نفسه لم يكن عليه غبار، ولم يكن للبابا أي اعتراض على شخصيته، فقد انصب اعتراض البابا على أن رجال الدين " من البنادقة في كنيسة القديسة صوفيا فليس لهم حق اختيار أسقف لتلك الكنيسة، إذ أنهم لم يعينوا فيها سواء من جانبنا أو من جانب مندوبنا البابوي ".[3] إلا أن البابا خفف من احتجاجه عندما أعلن تصديقه على انتخاب موروسيني من أجل أن يرضي الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية، وليمارس الحق البابوي في تعيين الأساقفة في مقر الكرسي الرسولي في القسطنطينية، وليشجع البنادقة على

---

١) انظر بنود اتفاقية مارس ١٢٠٤ م في الفصل الأول ص ٢٧ ـ ٢٨

٢) Hazlitt, The Venetian republic, Vol., I, p.311.

٣) Patrowlogia Latina, T.215, Col. 512., Belin, op. cit., pp. 53-54.,
Wolff, " Politics in the latin patriarchate of Constantinople 1204-1261", in Dumbarton Oaks papers (1954) p. 228.

القيام بخدمات أكثر للكنيسة . كما أمر البابا الامبراطور بلدوين والدوج داندولـو أن يحسنا استقبال موروسيني بصورة ودية تنم عن الصداقة وأن يكرموه ويحسنوه ويبجلوه .(١)

عجل أنوسنت الثالث بعد ذلك بالكتابة الى موروسيني لكى يتنازل عن حقه فى تعيين البطاركة فى المستقبل ، على أن يتم اختيارهم طبقا لاجراءات القانون الكنسى اللاتينى . وأكد البابا لموروسيني أنه لم يقصد أبدا أن يتطاول على امتيازات رجال الدين البنادقة فى كنيسة القديسة صوفيا .(٢)

ومع ذلك اتخذ البابا أنوسنت الثالث خطوة ذات أهمية كبيرة فى مايو عام ١٢٠٥م لتحديد سلطات رجال الدين البنادقة فى كنيسة القديسة صوفيا فى انتخابات البطاركة فقد نصح البابا بأنه حين يصبح كرسى بطريرك القسطنطينية شاغرا ، ينبغى أن يجتمع جميع رؤساء أساقفة الكنائس الديرية المجاورة للقسطنطينية فى كنيسة القديسة صوفيا مع كهنتها ، ليتخاروا فى شأن انتخاب شخص مناسب يتفق عليه الجميع ، وكان هناك ثلاثون كنيسة ديرية مجاورة للقسطنطينية ، وهذا يعنى حرمان رجال الدين البنادقة فى كاتدرائية كنيسة القديسة صوفيا من انفرادهم بهذا الحق .(٣) وبالرغم من نفى البابا أنوسنت الثالث لأى قصد للتدخل فى سلطات رجال الدين البنادقة فان اعلانه البدئى لامتياز حق البابا فى انتخابات البطاركة ، كان هو الذى وضع السابقة التى تتبع فى المستقبل . ففى فترة وجود الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١٢٠٤—١٢٦١م) كان هناك ستة بطاركة ، صدق البابا أنوسنت الثالث على انتخاب

---

١) Patrologia Latina, T. 215, Col. 517., Hazlitt, op. cit. I, p. 312.,

٢) Wolff, Politics in the latin patriarchate, p. 229 . Patrologia Latina, T.215, Cols. 574-77.

٣) انظر نص الخطاب فى : Wolff, Politics in the latin patriarchate, Appendix, II, وترجمته بالعربية فى الملاحق .

الأول وهو توماس موروسيني (١٢٠٤ـ١٢١١م) ، ومن الثاني وهو جرفاسيوس Gervasius (١٢١٠ـ١٢١٩م) ومن الثالث وهو ماتثيوس چيسولو Matthaeus Jesolo (١٢٢١ـ١٢٢٦م) من قبل البابا أيضا بعد انتخابات في القسطنطينية كانت موضع نزاع . أما البطريرك الرابع وهو سيمون الصوري (١٢٢٩ـ١٢٣٣م) والسادس وهو بانتالون چوستنياني Pantaleone Giustiniani (١٢٥٣ـ١٢٦١م) فقد عينا من قبل البابا مباشرة دون انتخاب سابق من جانب كهنة كنيسة القديسة صوفيا . ويبدو أن البطريرك الخامس وهو نيكولاس كاسترو اركاتو Nicholas Castro Arquato (١٢٣٤ـ١٢٥١م) اختير بدون اشتراك من قبل البابا . ومن ثم كان للبابوات الدور الأكبر في اختيار البطاركة اللاتين في القسطنطينية .(١)

تصدى البابوات أيضا بنجاح لمحاولات رجال الدين البنادقة السيطرة على البطريركية اللاتينية في القسطنطينية . فبعد أن قرر البابا أنوسنت الثالث أن يصدق على انتخاب موروسيني (٢)، خلع عليه ـ في ٣٠ مارس ١٢٠٥م ـ الطيلسان مع تعليمات بارتدائه في الأيام المقدسة وعلى الصورة المعتادة ، ومنحه جميع امتيازات كنيسة

---

١) Mas Latrie " Patriarchs Latins de Constattinople", dans Revue de l'Orient Latin, T.3(1859), pp.433-35., Wolff, Politics, pp.229-30., Longnon, " Le Patriarcat Latin de Constantinople", dans Journal des Savents (1941), pp. 175-76.

٢) الوصف الأصلي لشخص توماس موروسيني يرسمه لنا قلم المؤرخ البيزنطي نيقتاس خونياتس الذي رآه في القسطنطينية في أخريات صيف عام ١٢٠٥م وبعد وصوله بقليل . كان توماس موروسيني يرتدي فيما يقول نيقتاس ملابسه الوطنية ، التي كانت محكمة عليه لدرجة يبدو معها وكأنها كانت منسوجة وبارزة على جسده مباشرة . وقد كان حالقا لدرجة يبدو معها وأنه يستعمل مزيل الشعر ، وكانت وجنتاه مثل وجنات صبي مكشوفه تماما . ويقول نيقتاس أيضا أنه كان في أواسط العمر ، سمين ، صدره مثل وجهه ورأسه لم يكن فيه شعر ، وكان يلبس خاتما في أصبعه وأحيانا قفازات جلدية .

Nicetas, Historia, in C.S.H.B., p.824., Longnon, L'empirelatin , p. 84.

القسطنطينية ، وأعطاه حق حمل الصليب أمامه أينما ذهب فيما عدا فى روما ذاتها أو فى مدينة فيها ممثل البابا • وفى نفس اليوم خلع البابا أنوسنت على توماس موروسينى امتيازات اضافية أخرى من بينها حق المفوضين الذين أساءوا بعنف لرجال الكنيسة مالم تكن الاساءة شديدة لدرجة ينبغى معها أن يذهب المسىء الى روما سعيا وراء العفو • كما منحه حق مسح الملوك بالزيت المقدس فى امبراطورية القسطنطينية ان هم طلبوا منه ذلك • وله أن يعين كهنة فى كنيسة القديسة صوفيا حيث أن مجمع رهبانها لم يضم غير القليل فى هذا الوقت • ومنحه أيضا حق الاستمرار — فى الوقت الحالى — فى الاحتفاظ بدخول الكنائس من أوقافها وجميع الدخل منها ، وغير ذلك من الحقوق التى حصل عليها موروسينى من البابا أنوسنت الثالث • (١)

غادر توماس موروسينى روما — بعد أن حصل على امتيازاته — وعاد الى البندقية ليودع عائلته حيث مكث هناك حتى صيف عام ١٢٠٥م • وهناك وعلى وجه التحديد فى ١٣ مايو تنازل موروسينى لصالح بطريرك جرادو Grado البندقى عن كل الحقوق والسلطة القضائية على الكنائس التى كان يملكها البنادقة من قبل فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى من الامبراطورية • وأعلن موروسينى بوصفه بطريرك القسطنطينية اللاتينى اعفاء هذه الكنائس من أية التزامات من جانبه أو من جانب خلفائه • (٢)

لم يكتف البنادقة بالتنازلات السابقة التى حصلوا عليها من موروسينى ، فانتزعوا منه قسما مؤداه الا يعين كاهنا ضمن جماعة رهبان كنيسة القديسة صوفيا الا اذا كان بندقيا ، أو قضى عشر سنوات فى البندقية ، وأن يبذل كل جهده من أجل أن يكون البطريرك بندقيا دائما • ويبدو أن هذا القسم كان قسما سريا • (٣)

---

(١) Patrologia Latina, T. 215, Cols. 574-76., Wolff, Politics, pp. 230-31.

(٢) Wolff , Politics in The latin Patriarchate, p. 234., Belin, op. cit., p. 84.

(٣) Wolff, Politics, p. 237., Longnon, Le Patriarcat Latin, p. 177., Hazlitt, op. cit., I, p. 312.

غير أن البابا كان للبنادقة بالمرصاد ، توقع حركتهم التالية هذه ، وكان مستعدا لمواجهتها بالفعل ، ففي ٢٠ مايو عام ١٢٠٥م كتب البابا أنوسنت الثالث لبندكت كردينال سانت صوفيا — الذى أوفده الى القسطنطينية مندوبا بابويا — يقول : " أنه منع من قبل البطريرك الجديد سلطة تعيين كهنة مناسبين فى كنيسة القديسة صوفيا ، فاذا أهمل البطريرك ذلك ، وظل يصر على اهماله حتى ينبهه القاصد الرسولى ، فان الأخير يكون حينئذ مخولا للقيام بالتعيينات بنفسه ، مع مراعاة أن يكون الكهنة الجدد أبناء ومن جميع الجنسيات ".(١)

ويبدو أن اصرار البابا على تعيين كهنة من جميع الجنسيات فى كنيسة القديسة صوفيا يكشف من شك البابا فى أن موروسينى سيحابى البنادقة على حساب الفرنسيين ويتضح ذلك من شكوى البابا أنوسنت الثالث فى ٢١ يونيه عام ١٢٠٦م الى مندوبيه البابويين بشكة بطرس كابوانو Pierre Capuno من أن البطريرك موروسينى يهمل واجبه ويزدرى رجال الكنيسة من الأمم الأخرى ، ولا يعين البنادقة فقط فى الكنائس وخاصة كنيسة القديسة صوفيا . وأمر البابا المندوبين البابويين بتنبيه موروسينى بألا يؤجل تعيين كهنة أبناء متصلين فى هذه الكنائس ، واذا لم يراع ذلك فعليهما تهديده بإلغاء مرؤوسيه من رجال الدين من حكم الطاعة له . كذلك أراد البابا أنوسنت أن يعرف ما اذا كان صدقا أن البنادقة انتزعوا من موروسينى قسما معينا أم لا ؟ . وما ان تأكد البابا من ذلك حتى أمر موروسينى بعدم مراعاة هذا القسم .(٢)

ويتضح من هذا خطة البنادقة للسيطرة على الكنيسة فى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، فهم لم يجبروا موروسينى على أن يتنازل عن السلطة القضائية على كنائسهم ذاتها حتى لا يتدخل بطريرك جرادو الدخل أو النفوذ ، بل حاولوا كذلك أن يضمنوا دواما السيطرة على البطريركية فى القسطنطينية ذاتها . واجبر

(١) Patrologia Latina, T. 215, Col. 628., Wolff, Politics in The Latin Patriarchate, p. 236.

(٢) Patrologia , T. 215, Cols. 715, 914., Wolff, Politics in the Latin Patriarchate, pp. 236-37., Belin, op. cit., pp. 67-69.

البنادقة موروسيني على أن يقسم بألا يعين كهنة في كنيسة القديسة صوفيا من غير البنادقة ، وعلى أن يعمل من أجل أن يكون جميع رؤساء الأساقفة في المستقبل في البطريركية اللاتينية من البنادقة كذلك ، وهو شرط لو نفذ لضمن سلطان البنادقة المحلي عبر الامبراطورية ـ وكان من الطبيعي أن تزعج خطة البنادقة المتطلبة البابا ، ولكن نظرا لأنه مازال يعول على البنادقة في العمل على استمرار الامبراطورية اللاتينية وتقويتها ، لذا اقتصر على ابطال قسم موروسيني للبنادقة وحذره من القيام بأية محاولة للالتزام به .

على أن البابا أنوسنت الثالث ما لبث أن نفذ تحذيره للبطريرك اللاتيني ففي يوليو عام ١٢٠٦م أقر البابا تعيين كاهنين جديدين في كنيسة القديسة صوفيا ، عينهما المندوبان البابويان بندكت وكابوانو ، وكان كلا الكاهنين من غير البنادقة ، كان أحدهما ايطاليا ولكنه ليس بندقيا وهو كلمنت ، وكان الثاني فلمنكيا (بلجيكيا) ويدعى والتر كورتيري Walter Courtrai (١) . وبذلت جهود مماثلة للبابا تجري في غير انتظام في بطريركية موروسيني ، ففي يوليو عام ١٢٠٧م أقر البابا أنوسنت الثالث أيضا تعيين ويبرت Wibert كاهنا في كنيسة القديسة صوفيا عن طريق المندوب البابوي الكردينال بندكت . وفي مارس عام ١٢١٠م طلب البابا من البطريرك موروسيني أن يتلقى ثلاثة كهنة فرنسيين جدد . وهكذا كافح البابا خطة البنادقة عن طريق تعيين غير البنادقة بواسطة مندوبيه . (٢)

انتهت الجولة الأولى بين البابوية والبنادقة بانتصار ساحق للبابا أنوسنت الثالث ، اذ مضى موروسيني يستقبل كل أولئك الكهنة الذين أمره البابا بقبولهم ، بل ووعد بحمايتهم . وسار البابوات خلفاء أنوسنت الثالث على نهجه

---

(١) Patrologia Latina, T. 215, Cols., 949, 951., Wolff, Politics in the Latin Patriarchate , p.238.

(٢) Wolff, Politics, pp. 239 .

هذا فيما بعد ، فكانوا أحيانا يعينون كهنة في كنيسة القديسة صوفيا ، وربما بغرض مكافحة النفوذ البندقي ، وربما لمجرد الابقاء على حقهم في هذا الصدد .

وعندما توفي البطريرك توماس موروسيني في سالونيك في يونيه عام ١٢١١م ، ظل منصبه شاغرا أكثر من أربع سنوات ، دارت خلالها مجادلات ومناقشات بين الكهنة الفرنسيين والبنادقة على منصب البطريركية . وانتهت هذه المجادلات بتعيين جرفاسيوس Gervasius (١٢١٥–١٢١٩م) بطريركا في القسطنطينية من قبل البابا أنوسنت الثالث ، وهو بندقي كسلفه ولكنه مرشح من قبل الكهنة الفرنسيين .[1]

ومع تولي جرفاسيوس بطريركية القسطنطينية ، خلف البابا أنوسنت الثالث بعد وفاته في يوليو عام ١٢١٦م البابا هونريوس الثالث (١٢١٦–١٢٢٧م) . ووصل جرفاسيوس القسطنطينية فيما يظهر في وقت متأخر من عام ١٢١٦م ، وكان الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر (١٢٠٦–١٢١٦م) قد توفي في يونيه من نفس العام ، ولكن البابا لم يكن يعلم بذلك ، ولذلك كتب في ١٢ أغسطس يأمر البطريرك جرفاسيوس بالتعاون مع الامبراطور هنري في كل شأن ، وأن يجعل شئون الامبراطورية الكنسية والسياسية على السواء موضع اهتمامه الشخصي .[2] وعندما اختار بارونات القسطنطينية بطرس الكورتناي Courtenay امبراطورا ، أرسل البابا هونريوس في ابريل عام ١٢١٧م تعليماته الى البطريرك جرفاسيوس بأن يرحب ببطرس الكورتناي ويساعده . وكان البابا هونريوس الثالث هو الذي توج بطرس امبراطورا في روما ، ولهذا حرص على أن يوضح لجرفاسيوس أن هذا التتويج لا يعد مخالفة لامتيازات البطريرك ذاته ، وان هذا التتويج من جانب البابا لامبراطور القسطنطينية كان الاستثناء لا القاعدة ، فيعد بطرس الكورتناي يتوج البطريرك الأباطرة .

---

١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المناقشات والمجادلات أنظر :
Wolff, Politics in The Latin Patriarchate, pp.246-52.,
Mas Latrie , Patriaches Latins de Constantinople, p.433.,
Longnon, Le Patriacate, pp. 177-78., Belin, op. cit., p.85.

٢) Wolff, Politics in the latin Patriarchate, p. 254.,
Longnon, L'empire Latin, p. 151.

٣) انظر ماسبق في الفصل الثاني ص ٩٨ .

توفي البطريرك جرفاسيوس في نوفمبر عام ١٢١٩م ، وواجه البابا هونريوس مثلما واجه سلفه أنوسنت الثالث نفس المجادلات والمناقشات بين الفرنسيين والبنادقة على منصب البطريركية . على أن البابا هونريوس حسم المسألة هذه المرة باختيار ماتثيوس أسقف جيسولو Matthaeus Jesolo ، وهو بندقي ، ورجل معروف بتقواه وعلمه ، كما كان راهبا فرنسيسكانيا ، ولهذا أمر البابا جماعة الرهبان في كنيسة القديسة صوفيا باستقباله بكل الاخلاص المناسب ، ومنحه كل الحقوق التي كان يتمتع بها موروسيني وجرفاسيوس وذلك في يناير من عام ١٢٢١م .(١)

كان ماتثيوس مثل موروسيني وجرفاسيوس متعطشا للسلطة والنفوذ ، كما كان عرضة وفي حاجة ماسة الى المال ، فقد كتب البابا هونريوس أن ماتثيوس اختلس فور وصوله الى القسطنطينية مبلغا كبيرا من المال من أموال الكنيسة في مدينة القسطنطينية . واتهم البابا هونريوس البطريرك ماتثيوس بأنه يقيم القداس بصورة غير منتظمة ، كما أنه منح الدفن الكنسي للبنادقة المحرومين من الكنيسة ، وتحدى عصيان المندوب البابوي باستقباله كنسيين كان قد أمره الا يستقبلهم حتى يذهبوا الى روما لينالوا العفو عما أسلفوه . ورأت البابوية أن بطريركية القسطنطينية قد وقعت للمرة الثالثة في يد قس بندقي تناسى أفاد من مركزه الرفيع ليغض الطرف عن مصالح البابا وأوامره .(٢)

غير أن البابا هونريوس واجه البنادقة والبطريرك بنجاح ، اذ خلع على الامبراطور روبرت الكورتناي Robert Courtenay (١٢٢١ــ١٢٢٨م) حق تقديم رجال الدين للكنائس الديرية بالعاصمة والمناطق المجاورة لها ، وحتى يكون هدف البابا من هذا العمل واضحا أشار الى حقيقة ان رؤساء الأساقفة لهم الحق في التصويت في الانتخابات البطريركية . ووضح ذلك في خطاب أرسله

---

(١) Mas Latrie, Patriarches Latins de Constantinople, pp.433-34.
Wolff, Politics, p. 254.

(٢) Wolff, Politics, pp. 278-79.

الى الامبراطور روبرت فى ٢٨ سبتمبر عام ١٢٢٢ م .(١)

كذلك واصل البابا هونريوس سياسة البابا أنوسنت الثالث فى التدخل فى شئون الكنسيين البنادقة فى كاتدرائية كنيسة القديسة صوفيا ؛ ففى ٢٦ أكتوبر عام ١٢٢٣ م أمر البابا هونريوس البطريرك ماثيوس بمنح مرسيلينوس Marcellinus رئيس شمامسة انكونا Ancona منصبا ترك شاغرا بوفاة أحد الكهنة . ويبدو أن البطريرك كان قد أعطى هذا المنصب من قبل لشخص آخر من أتباعه البنادقة يدعى ستيفن بولى Stephen Boli . فقام نزاع بين مارسيلينوس وبولى وحكم فيه البابا ، وصدر قرار البابا هونريوس فى ١٠ أبريل ١٢٢٥ م لصالح من عينه وهو مارسيلينوس ، وأمر البابا بأن يمنح بولى أى منصب آخر يكون شاغرا أو يعين على الأقل فى أول مكان يصبح شاغرا ، وحتى ذلك الحين يتلقى بولى نصف المخصصات المالية وغيرها التى يحصل عليها مرسيلينوس .(٢)

وحوالى نهاية عام ١٢٢٦ م مات ماثيوس ، ثم جرى الانتخاب المزدوج المعادى بعد ذلك وكان البابا هونريوس قد كتب فى ٢٣ ديسمبر عام ١٢٢٦ م الى حنـــا هالجرين Jean Halgrin رئيس أساقفة بيسانكون Besancon يعرض عليه المركز ويحثه على قبوله ، غير أن هالجرين ذهب الى روما واعتذر عن قبول هذا المنصب .(٣)

وفى ١٨ مارس عام ١٢٢٧ م توفى البابا هونريوس الثالث وخلفه جريجورى التاسع الذى عين فى منصب البطريركية رئيس أساقفة صور سيمون فى عام ١٢٢٩ م ، وهو كنسى مغمور لا يعرف موطنه ولا سابق حياته العملية . وقد أمره البابا جريجورى

---

١) انظر نص الخطاب فى :
Wolff, Politics, Appendix V, p. 301.
وبالملحق فى الملاحق .

٢) Brown, " The cistericians in The Latin empire of Constantinople", in Traditio, Vol. XIV (1958), pp. 105-106.; Wolff, Politics, p. 280.

٣) كان هالجرين من عائلة نورماندية نبيلة ، درس فى باريس وحصل على اجازة التدريس فقه الدين ، وعمل رئيسا لدير القديس فيكتور St.Victor ، وعميـــدا لكاتدرائية فى اميانس Amiens وذلك قبل أن يصبح رئيسا لأساقفة بيسانســـكون وعمل كذلك مندوبا بابويا فى أسبانيا . انظر :
Mas latrie Patriarchs, p. 434.

التاسع بأن يرحب بحنا برين الذى اختير وصيا على الامبراطور اللاتينى الصغير بلدوين الثانى (١٢٢٨ـ١٢٦١م) وان يقوم على خدمته ، وكان حنا برين فى طريقه الى القسطنطينية مع كثير من أتباعه .(١)

وفى أثناء بطريركية سيمون الصورى (١٢٢٩ـ١٢٣٣م) ظهرت حالتان يبدو من خلالهما أن البابا جريجورى التاسع غيَّر من سياسة سابقيه أنوسنت الثالث وهونريوس الثالث . ففى مارس ١٢٣٢م أصدر جريجورى حكما جديدا بأن يؤول حق تعيين رؤساء الأساقفة فى الكنائس الديرية فى القسطنطينية والمناطق المجاورة لها الى البطريرك ، وسبق أن منح البابا هونريوس هذا الحق للامبراطور روبرت ، ولم يكتف البابا جريجورى بذلك بل أمر بعزل رؤساء الأساقفة الذين عينهم الامبراطور ونائبه وعلى أن يعين البطريرك كنسيين مناسبين من اختياره لشغل الأماكن الشاغرة .(٢)

ويرجع التغيير فى سياسة البابوية الى رغبة البابا جريجورى التاسع فى تقوية مركز بطريرك القسطنطينية فى ظل الظروف الصعبة التى كانت تجتازها الامبراطورية اللاتينية .(٣) ويدل على ذلك اضافة مهام المندوب البابوى الى سيمون ، فجمع بذلك ـ ولأول مرة ـ بين وظيفة البطريرك ووظيفة المندوب البابوى .(٤)

وعندما توفى سيمون الصورى فى أوائل عام ١٢٣٣م ظل منصبه شاغرا لأكثر من عام حتى عين فيه نيكولاس سانتوار كواتو (١٢٣٤ـ١٢٥١م) أسقف سبوليتو Spoleto ونائب مستشار البابا . وفى أغسطس عام ١٢٣٤م خلع البابا جريجورى التاسع على نيكولاس وظيفة المندوب البابوى التى كان يشغلها من قبل البطريرك السابق . وعهد البابا الى نيكولاس بالتصرف فى كافة شئون البطريركية اللاتينية ، وهذا الامتياز لم يمنح للبطاركة الأول ولكن كانت الحاجة ماسة اليه الآن نظرا لسوء حالة البطريركية المالية تبعا لسوء حال الامبراطورية اللاتينية بصفة عامة ، تلك الحالة التى دعت بطريرك القسطنطينية الى طلب العون المادى من أساقفة

---

١) Wolff, Politics, p. 285.

٢) Ibid pp. 287-88.

٣) عن هذه الظروف انظر الفصل الثانى، ص ٨٧ .

٤) Wolff, Politics, p. 288 .

البورة (البيلوبونيز) يجب أن تقدم تقريبا كل دخل البطريركية وممتلكاتها.[١]

وحينما كان البطريرك نيكولا مريض في مدينة ميلان Milan عام ١٢٥١م وافته المنية، ومنذ وفاته وحتى فبراير عام ١٢٥٣م ظل كرسي البطريرك اللاتيني في القسطنطينية شاغرا، الى أن انتخب البابا أنوسنت الرابع — خليفة جريجوري التاسع — بانتليون جيوستنيانى Pantaleone Giustiniani وهو من عائلة بندقية نبيلة بارزة، وتم تعيين هذا البطريرك بناء على طلب دوج البندقية وشعبها وتوصيتهم الخاصة، وكتب البابا أنوسنت الرابع يقول: "نأمل أن تحقق كنيسة القسطنطينية مكاسب كبيرة تحت رعاية البنادقة لها". وهكذا اعترف بابا روما بالبنادقة وبأنهم الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها أن ينقذ الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية من الخراب.[٢]

وعندما اعتلى البابا أسكندر الرابع عرش البابوية في عام ١٢٤٥م، أعاد تعيين جيوستنيانى مندوبا بابويا، ومنحه الامتيازات التي حصل عليها سابقوه. وفي يوليو عام ١٢٥٧ أمر البابا رئيس الفرنسيسكان في الامبراطورية اللاتينية أن يساهم في تخفيف حدة الفقر الذي تعانيه البطريركية، فاستدعى مجلسا مكونا من جميع رؤساء الأساقفة من أجل تدبير مبلغ خمسمائة مارك من الفضة سنويا لاعانة البطريرك.[٣]

يتضح من العرض السابق لعلاقة البابوية بالبطريركية اللاتينية في القسطنطينية أن البنادقة حاولوا بسط نفوذهم على تلك البطريركية بشتى الطرق، غير أن البابوية كانت لهم بالمرصاد ونجحت الى حد كبير في الحد من ذلك النفوذ، وذلك عن طريق الاحتفاظ بحق التعيين الفعلي للبطريرك مع بعض التنازلات المحدودة للبنادقة حتى تضمن مساعدتهم للمشروعات البابوية الأخرى.

---

١) Wolff, Politics, p. 290, Belin, op. cit., p. 87.

٢) Mas Latrie, Patriarchs, p. 435., Wolff, Politics, p. 292.

٣) Wolff, " The Latin empire of Constantinople, and Franciscans", in Traditio, Vol.II (1944), pp.223-24.

على أية حال فان البابوية كانت تتطلع دائما الى هدفها الرئيسي وهو ازالة العداء بين البيزنطيين واللاتين ، وعندما أصبح واضحا أن وجود بطريرك لاتيني في القسطنطينية لايمكنه تحقيق هذه الغاية ، لهذا مهد البابوات للتضحية بالبطريرك اللاتيني على أمل تحقيق وحدة الكنيستين الشرقية والغربية .

محاولات توحيد الكنيستين الشرقية والغربية (١٢٠٤-١٢٦١م) :

حاولت البابوية بعد أن أصبح اللاتين سادة القسطنطينية أن تحقق الهدف الذى لم يكف البابوات عن متابعته الا وهو وحدة الكنيستين الشرقية والغربية . وأدرك البابا أنوسنت الثالث أن قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية سوف يفتح الطريق أمام تحقيق آمال البابوية الكاثوليكية وخاصة بعد أن أصبح نبيل من نبلائها بطريركا بالقسطنطينية وغدت شعائر الكاثوليكية قائمة بكنيسة القديسة صوفيا . ومن ثم كان على البابا أن يحدد موقفه تجاه السلطة العلمانية والشعب البيزنطى وأن يعمل على اخضاع باقى الأقاليم البيزنطية لكنيسة روما والتى ظلت مستقلة بعد عام ١٢٠٤م وعلى رأسها امبراطورية نيقيه .(١)

استخدم البابا أنوسنت الثالث كل مالديه من حيل ومهارة سياسية من أجل أن يكسب رجال الدين البيزنطيين . حقيقة أن البطريرك البيزنطى وكثيرا من رؤساء الأساقفة البيزنطيين تركوا مراكزهم وكراسيهم وقت الغزو اللاتينى ، ولكن بقى الأساقفة وعدد كبير من صغار رجال الدين البيزنطيين ممن لم يتركوا مناصبهم . فأوصى البابا بالاعتدال فى معاملتهم ، وملاطفتهم ، والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ، وعدم ترسيم الأساقفة الموجودين من جديد ، وألا يطلب منهم سوى قسم الطاعة . كما أصدر البابا أنوسنت أوامره بالاحتفاظ بالممتلكات الدينية مع عدم طرد الأساقفة والرهبان البيزنطيين الذين يعترفون بسيادة الكرسى الرسولى . وأن لايحل محل الرهبان المحليين البيزنطيين رهبان علمانيون الا فى حالة عدم وجود بيزنطيين أو لاتين من رجال الدين . وأدرك البابا أنوسنت كذلك

---

(١) Fliche , Histoire de L'Église, T. 10, p. 76., Vasiliev, op. cit., T.2, pp.217-18.

خطورة وضع كهنة من اللاتين وسط شعب بيزنطى أرثوذكسى لهذا سمح البابا بأن يعين فى الأبروشيات ـ التى يغلب عليها العنصر الأرثوذكسى على نحوه ـ أساقفة أرثوذكس ، وأن تقام بها الشعائر الأرثوذكسية . (١)

وفى ديسمبر من عام ١٢٠٤م ، وصل الى القسطنطينية المندوبان البابويان الكردينال بطرس كابوانو Peter Capuano وسوفريد Sofred وكان البابا قد أرسلهما الى فلسطين ، غير انهما عادا بدون اذنه . لعب الأول وهو كابوانو دورا لابأس به فى مسألة اتحاد الكنيستين فى الأيام الأخيرة من عام ١٢٠٤ ، استدعى الكردينال كابوانو رجال الدين البيزنطيين من أساقفة ورهبان وكبار السلطانيين البيزنطيين وذلك من أجل المحاورة والنقاش فى كنيسة القديسة صوفيا . وطلب منهم الاعتراف بسيادة البابا الدينية وسمو الروحى ، فأجابوا بلسان حنا ميساريتيس Jean Mesarités (٢) بأن لهم بطريركهم الذى يخضعون له ولن يعترفوا بسواه كرئيس لهم ، فغضب الكردينال كابوانو منهم وهددهم ، ففضل البيزنطيون الانسحاب على الاستمرار فى النقاش . (٣)

ويبدو أن الكردينال كابوانو لم يرغب فى الاستمرار فى العمل لتحقيق مشروع توحيد الكنيستين ، كما أنه لم يكن لديه أى تفويض لعمل ذلك ، اذ طلب البابا أنوسنت الثالث أن كتب لكابوانو يلومه على تركه فلسطين ومجيئه الى القسطنطينية ، وطلب منه أن يهتم بالشئون الدينية فى الامبراطورية اللاتينية حتى يصل اليها المندوب البابوى الجديد . (٤)

(١ Patrologia Latina, T. 215, Cols. 471-72., 965., Longnon, op. cit ., p. 65., Vasiliev, op. cit., T.2,p.218.

٢) ولد حنا ميساريتيس فى عام ١١٦٢م وكان أستاذا للبلاغة فى القسطنطينية ، وعندما استولى اللاتين على المدينة انسحب الى دير القديس جورج مانجانيس Saint Georges Manganes وتوفى فى ٥ فبراير ١٢٠٧م .
انظر :
Janin," Au Lendenain dela conquête de Constantinople, Les Tentatives d'union de Églises (1204-1208)",dans Échos d Orient (1932), p. 11, Note. I.

(٣ Ibid., p. 11.

(٤ Patrologia Latina, T. 215, Cols. 541-42.

وكتبه الامبراطور اللاتينى بلدوين فلاندر (١٢٠٤–١٢٠٥م) الى أن الكردينال كابوانو غير قادر على تحسين العلاقات بين البيزنطيين واللاتين ، فطلب من البابا أنوسنت الثالث ارسال مندوب بابوى للبحث فى المسائل المعلقة ، وطلب منه كذلك أن يعقد مجمعا كنسيا مسكونيا لمناقشة اتحاد الكنيستين (١) .

وفى ١٥ مايو ١٢٠٥م كتب أنوسنت الثالث للامبراطور بلدوين ، أنه عهد بهذه المهمة الى الكردينال بينوا سانت سوزان Benoit St. Suzanne الذى رحل من بويل Poui-lle فى طريقه الى القسطنطينية . (٢)

كان المندوب البابوى الجديد له طبيعة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة زميله بطرس كابوانو ، فهو يتسم باللباقة وحسن الذوق وبالعدل ، ذا تفكير حكيم عاقل وله رأى المستشار الحكيم وكان خير رجل يقوم بمهمة تحقيق مشروع توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . فقد تزود فى روما من كتب علم اللاهوت الشرقى ، واصطحب معه كترجمان رجلا أهلا للثقة وهو نيكولاس دوترانت Nicolas d'Otrante الذى كان متخصصا فى الطقوس الشرقية والذى أظهر مثل مواطنيه فى جنوب ايطاليا أنه مقتنع بالاتحاد مع روما . (٣)

لم يذهب الكردينال بينوا سانت سوزان الى القسطنطينية مباشرة ، ولكنه توقف فى الطريق فى أثينا وسالونيك ، وتحاور هناك مع مطران أثينا ميخائيل خونياتس Michael Choniates وغيره من الأساقفة البيزنطيين حول بعض المسائل المذهبية المتنازع عليها ، غير أن نتيجة المفاوضات لم تكن فى الحسبان فقد أظهر ميخائيل خونياتس أنه يفضل أن يترك المركز الذى يشغله منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وأن يمضى فى المنفى على أن يخضع لروما وكنيستها . وظاهريا يبدو أنه لم يوجد من يقدم الطاعة والخضوع لروما سوى ثيودور أسقف نيجروبونت Negroponte الذى

---

١) انظر نص خطاب الامبراطور بلدوين المنشور :
Dufournet, Les écrivaines des IV Croisade, T.2,p.439
٢) Patrologia Latina , T. 215, Cols. 699-702.,
Janin, Les tentatives d'union des Églises (1204 - 1208) , p. 12.

٣) Janin, Les tentatives d'union des Églises (1204-1208) , pp. 12-13.

ظل رغم ذلك على وفاق مع مطرانه السابق ميخائيل خونياتس[1].

وقبل وصول المندوب البابوى بنوا سانت سوزان الى القسطنطينية أجريت مباحثات ومناقشات فى القسطنطينية فى الأسابيع التى اعقبت تتويج الامبراطور هنرى فلاندر عام ١٢٠٦ م ـ لمحاولة كسب رجال الدين البيزنطيين فقد حدث عندما قام البطريرك اللاتينى موروسينى بترسيم الامبراطور هنرى أن نقل ايقونة السيدة العذراء[2] الى كنيسة القديسة صوفيا . وكان البيزنطيون يحترمون هذه الايقونة ويوقرونها بصفة خاصة ، ومن ثم أتوا يوم الثلاثاء الذى أعقب التتويج أفواجا مثلما تعودوا فى هذا اليوم من كل أسبوع ليؤدوا لها طقوسهم وشعائرهم الدينية . ولكن البطريرك موروسينى لم يبدأ أن يجعل القداس ذا صفة شرعية الا اذا ذكر رجال الدين البيزنطيون اسمه فى طقوسهم الدينية كعلامة على الطاعة له والاعتراف به كبطريرك . وعندما رفضوا قام بمنع كل قداس بيزنطى يقام فى القسطنطينية وأرسل موروسينى رجاله الى جميع الكنائس من أجل اجبار البيزنطيين على احترام ما أمر بمنعه وتحريمه ، واقتحم رجاله كنيسة القديس نيكولاس المجاورة لكنيسة القديسة صوفيا لمنع القداس ، فاستوقفتهم شخصية لاتينية ذات مركز سامى ، غالبا ماكانت تؤدى الصلاة هناك وربما هى شخصية البودستا البندقى الذى صرح لهم بأن هذا العمل بعيد كل البعد عن تعاليم المسيحية ، وانه لايوجد مسيحى لديه الرغبة فى الامتناع عن عرف آبائه وعاداتهم ليلتزم باتباع عادات أخرى[3] ، وأنه يجب التصرف باقناع لكسب رجال الدين البيزنطيين تدريجيا .

أتى مبعوثو البطريرك موروسينى لينبهوه بهذا الحادث العارض ، الذى أيقظ بطبيعة الحال كراهية البيزنطيين ، فاستدعى موروسينى القساوسة البيزنطيين للتفاوض والمداولة . وعقد الاجتماع فى ٣٠ أغسطس عام ١٢٠٦ م فى قصر البطريرك وحضره الى جانب موروسينى البودستا البندقى مارينو زينو Marino Zeno

---

١) Longnon, L'empire latin, pp.93-94., Setton, op. cit., 2, p. 196.

٢) رسم تلك الأيقونة شخص يدعى لوقاس Lucas ، وهو طبيب ورسام بيزنطى . وكانت هذه الايقونة مصدر ذى قيمة فى الدخول والايرادات ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا البودستا البندقى الى انتزاعها بالقوة فيما بعد رغم قرارات الحرمان التى أصدرها البطريرك ضده ، انظر : Patrologia Latina, T. 215., Col. 1077. Janin, "Les Sanctuaires de Byzance "dans Etudes Byzantines, T.2 (1944), p.140., Longnon , op. cit., p.94.

٣) Janin, Les tentatives d'union, p.14., Longnon, op. cit., p. 94., setton , op. cit., 2, p. 197.

وعدد من الشخصيات الهامة فى مجلسه ، وحضر من الجانب البيزنطى عدد كبير من رجال الدين فى القسطنطينية ، وعلى رأسهم نيكولاس ميساريتيس وحنا كوند وثيودورو Jean Condothéodorou شماس كنيسة القديسة صوفيا .(١)

سأل البطريرك موروسينى البيزنطيين لماذا يرفضون الاعتراف به كبطريرك لهم ؟ فعرضوا عليه الأسباب التى تدعوهم الى ذلك ، وكان من بينها انه من واجبه أن يُعلم ، ويرشد ، وينظم ويرتب وانكروا عليه السلطة القضائية لأنه لا يعرف لغتهم ، وفى رأيهم أن كل شعب يجب أن يكون له بطريرك من بنى جنسه . وفوق ذلك توجد بينهما اختلافات كبيرة فى العقيدة والطقوس ومن بينها موكب الروح القدس ، والخبز غير المختمر ، وزواج الأساقفة وما الى ذلك . ثم بذل ميساريتيس جهده من أجل أن يثبت أن القديس بطرس وأسلافه ، لم يكن لهم سلطة سوى على كنيسة روما . أما كنائس أنطاكية والاسكندرية والقسطنطينية ، التى أسسها أيضا الرسل والحواريون فقد تمتعت بنفس الحقوق التى تمتعت بها كنيسة روما ، وأن المسيح لم يؤسس سوى كنيسة واحدة عامة ، ليست رومانية ولا بيزنطية ولا انطاكية ولا اسكندرية ولا قسطنطينية ، وكان من بين الحواريين القديس بطرس الذى كان يمثل الاخ الأكبر وحسب .(٢)

ولم تصل هذه المحاورة الأولى الى أية نتيجة مباشرة اذ ظل كلا الفريقين على موقفه واعتقد كلاهما بصحة عقائده ، وحقيقة آرائه وبسمو تفكيره أيضا . فتفاخر البيزنطيون بتقاليد الكنائس الشرقية القديمة وثقافتهم ، وتباهى اللاتين بتفوقهم فى تعليم اللاهوت فى مدارسهم المشهورة .

حث هذا اللقاء الأول — الذى قرب بعض الشئ بين رجال الدين البيزنطيين واللاتين — المندوب البابوى الكردينال بنوا سانت سوزان على اقامة مناقشات ومداولات جديدة ، تمت بالفعل فى ٢٩ ديسمبر ، وفى ٢ أكتوبر عام ١٢٠٦ م . وكانت هذه المناقشات ميسرة وسهلة ، نظرا لوجود نيكولاس دوتران—

(١ Janin, Les tentatives, p.14., Longnon, op. cit., p.95.

(٢ Janin, Les tentatives, p. 15.

Nicolas d'Otrante قس كاسول ، ترجمان المندوب البابوى ، الذى كان مناصرا لوحدة الكنيستين ، واجتهد بدوره كوسيط لتسهيل الأمور .(١)

ورغم ذلك ، لم تفض هذه المناقشات الى نتائج عملية ، فقد ظل تقديم الطاعة للبابا بصفة عامة وللبطريرك موروسينى بصفة خاصة حجر عثرة . فلم يرغب البيزنطيون فى الاعتراف بهذا الأسقف الاجنبى كرئيسهم الدينى ، وهو المنشق الخارج ، صاحب الشخصية المتكبرة التى أثارت كراهيتهم وهو الذى كانت النزاعات والصراعات مع مواطنيه معروفة لهم ، وهو الذى لم يعين وفقا لقوانين كنيسة القسطنطينيـــة بصفة خاصة . كما أعرب البيزنطيون عن رغبتهم فى أن يكون لهم بطريرك من بنـى جنسهم ، يتحدث بلغتهم ويستطيعون التفاهم معه والتحدث اليه دون وسيـــط بلا ترجمان ، وهم الذين يعينوه وفق ارادتهم .(٢)

توفى البطريرك البيزنطى فى صيف عام ١٢٠٦ م ، وكانت رغبة البيزنطيين فى احلال بطريرك آخر محله ، فرصة لمحاولة جديدة للتقارب . فطلبوا من الامبراطور اللاتينـــى هنرى فلاندر (١٢٠٦ – ١٢١٦ م) السماح لهم بانتخاب بطريرك جديد ، ووضع لهم الامبراطور كشرط لذلك الاعتراف بأسبقية البابا . وتوجه البيزنطيون – بناء على نصيحته – مباشرة الى البابا أنوسنت الثالث ، وطلبوا منه الأذن باختيار بطريرك لهم من نفس العقيدة ، يتكلم لغتهم ويتلقى اعترافاتهم ، كما طلبوا منه ارسال ممثلين له من أجل أن يقوموا بتسوية المسائل الدينية موضع النزاع مع البطريرك الجديـــد . وتوسلوا الى البابا أن يعقد مجمعا مسكونيا فى القسطنطينية حيث يأتى ممثلـــوه ونوابه من أجل حل المسائل موضع الخلاف ، وتحقيق وحدة الكنيستين .(٣)

ولا نعرف على وجه التأكيد ماذا كان البابا قد أجاب للبيزنطيين طلبهم أم لا ؟ ولكن يبدو أن مناشدة رجال الدين البيزنطيين والتماسهم قد ذهب ادراج الرياح .(٤)

---

١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المناقشات انظر : Janin, Les tentatives d'union , pp.15-16.

٢) Longnon, l'empire , p.95.

٣) Longnon, op. cit., p. 96., Janin, Les tentatives d'union, p. 16.

٤) Nicol, The fourth crusade , p. 302.

ويبدو أن المحاولات الثلاث التي دارت بين البيزنطيين واللاتين خلال عام ١٢٠٦م في شهور أغسطس وسبتمبر وأكتوبر قد باءت بالفشل فضلا عن أنها أدت الى نتائج سياسية خطيرة، فكان من الطبيعي بعد خيبة أمل رجال الدين البيزنطيين في الحصول على اذن باختيار بطريرك من بني جنسهم أن يتحولوا نحو اخوانهم المتجمعين حول ثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris في نيقيه والذى تزعم حركة مقاومة اللاتين هناك. وقد رحب بهم لاسكاريس، وسمح لهم بوضوح عن طواعية بانتخاب بطريرك جديد. وكان أن تقرر تعيين ميخائيل الرابع اتوريانوس Michel IV Autorianos كبطريرك لامبراطورية نيقيه، ثم قام هذا البطريرك اليوناني بتتويج ثيودور لاسكاريس امبراطورا. وبهذا أصبح للبيزنطيين امبراطورا وبطريركا معينين من قبلهم وبمحض ارادتهم، وأدى ذلك الى تعميق الهوة بينهم وبين اللاتين، وازدياد حركة مقاومتهم للاتين في القسطنطينية وغدت الأرثوذكسية عندهم مرادفة للقومية.(١)

لم تطل بعثة الكردينال بنيلوا حيث كانت سوزان أكثر من نهاية عام ١٢٠٧م، وفي مارس من العام التالي كتب البابا أنوسنت الثالث الى امبراطور نيقيه ثيودور لاسكاريس يحثه على عقد السلام مع الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر، قائلا له انه عزم على أن يرسل مندوبا بابويا جديدا الى القسطنطينية، يعهد اليه بترتيب هذا العمل. ولم يضع البابا ذلك الأمر موضع التنفيذ، لأنه لاتوجد اشارة الى ارسال مندوب بابوى قبل عام ١٢١٣.(٢)

على أية حال كتب البابا أنوسنت الثالث للأمبراطور هنري يخبره بارسال مندوب بابوى جديد وهو الكردينال بلاجيوس البانو Pélage d'Albano ويطلب منه أن يستقبله بكل مظاهر التكريم والحفاوة الواجبة كممثل الكرسي الرسولى، ويطلب منه أيضا أن يتبع نصائحه. وفي نفس الوقت أعلن البابا قرار ارسال المندوب

---

١) انظر ماسبق في الفصل الثاني ص ٦.

٢) Patrologia Latina, T. 216, Cols. 1572-75., Janin, "Les tentatives d'union (1208-1214)" dans Échos d'Orient (1933) Part.2, p. 195.

البابوى بلاجيوس الى القسطنطينية لجميع رؤساء الاساقفة والأساقفة والقسس فى الامبراطورية ،وانتهز هذه الفرصة ليعبر عن شعوره نحو الكنيسة البيزنطيـة ، وأشار الى انها سيدة المقيدة ،ولكنها أخطأت وخرجت من حظيرة السيد المسيح على أن الله أخذها برحمته ، وأعادها الى كرسى القديس بطرس والى الاتحاد مع كنيسة روما . وأنه أرسل المندوب البابوى بلاجيوس أسقف البانو لعمل التغييرات اللازمة ولتسوية الأمور المعلقة ، ولهذا يجب على الأساقفة والأحبار أن يستقبلوه كما لـو كان البابا نفسه .(١)

أخذ المندوب البابوى بلاجيوس طريقه الى القسطنطينية ،واصطحب معـه نيكولاس أوترانت نفس الترجمان الذى سبق أن اصطحبه سلفه الكردينال بنوا سانـت سوزان وكان وجود بلاجيوس فى القسطنطينية ضروريا فى ذلك الوقت خاصة وأن كرسى البطريركية اللاتينية كان شاغرا منذ وفاة موروسينى عام ١٢١١م ، وحالت المنافسات دون تعيين صاحب الحق فى هذا المنصب .(٢) على أن اختيار بلاجيوس كوسيط للتفاوض مع البيزنطيين كان اختيار غير موفقا . فلم يتوافر لبلاجيوس الاعتدال ، أو التسامح اللذين كانا لدى سلفه الكردينال بنوا سوزان ،واللذين جعلا منه معبرا عن أحاسيس البابا ومشاعره . كان بلاجيوس متعاليا ،متسلطا ، صلب الرأى ، غير متسامح . وكان فى نظر البيزنطيين عنيفا قاسيا متصلفا ، هذا فضلا عن افراطه فى الفخامـة والعظمة الامبراطورية مما أثار اشمئزاز البيزنطيين عند لقائهم الأول به .(٣)

وظهر عنف بلاجيوس وصلابة رأيه وعدم تسامحه فور وصوله الى القسطنطينيـة فلم يشأ أن ينتظر وقتا طويلا ليجعل الوحدة الكنسية أمرا ممكنا ، بل استخدم أساليب الاكراه وأراد أن يرغم البيزنطيين بالقوة على الاعتراف بسيادة الكنيسة الرومانية ، فأغلق الكنائس ، ونفى الرهبان ، وحبس الأساقفة . وعززت هذه الاجراءات السياسيـة

(١ Patrologia Latina, T.216, Cols. 901-902., Janin, Les Tentatives d'Union, (1208-1214), pp. 196-97.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

(٢ Wolff, Politics, pp. 246-52.

Acropolitae, Annales, in C.S.H.B., p. 32.

العائلة الحاكمة التى أنجبت الامبراطور اللاتينى هنرى فلاندرز للخطر . وذهب جماعة من رجال الطبقة العليا البيزنطيين الى الامبراطور ، وعبروا له عن فزعهم وخوفهم على عقيدتهم ، فما كان منه الا أن توسط بينهم وبين المندوب البابوى بلاجيوس واتفق معهم على التسوية التى اعتقد أنها ترضى الجميع . فاعترف البيزنطيون بسلطة البابا وان كان اعترافا شكليا فحسب ، وقبل الحصول على هذا الاعتراف من جانب رجال الدين البيزنطيين فى القسطنطينية ، كان الامبراطور قد أطلق سراح جميع الأسرى والمسجونين ، وأعاد فتح الكنائس .(١)

على أن الاتحاد بين الكنيسة الشرقية والغربية لم يخط خطوة من ذى قبل ، ولكن على الأقل ساد الهدوء العام ، وهو النتيجة التى اكتفى بها الامبراطور هنرى . هذا فى حين أن المندوب البابوى بلاجيوس اعتبر أن هذا الخضوع الظاهرى من جانب رجال الدين البيزنطيين كافيا فى نظر الكنيسة اللاتينية .(٢)

على أن عددا من الأساقفة والرهبان البيزنطيين خافوا من الظلم والتعسف الذى أظهره بلاجيوس ، فاتجهوا نحو نيقية حيث استقبلهم هناك الامبراطور لاسكاريس والبطريرك ميخائيل اتوريانوس . وبعد وصولهم الى نيقية بوقت قصير ، أتى رسل من قبل بلاجيوس بغرض التفاوض . واستقبل لاسكاريس امبراطور نيقية رسل المندوب البابوى بلاجيوس ، وتفاوض معهم لمدة يومين ، عاد الرسل بعدها الى القسطنطينية (اكتوبر ١٢١٤م) . وأرسل تيودور لاسكاريس ـ الذى لم يكن معاديا للتقارب الدينى للوهلة الأولى والذى أظهر الدليل على الفكر المتفتح المتسع ـ سفارة الى القسطنطينية لمتابعة المفاوضات وكان على رأس وفده نيكولاس ميساريتيس الذى شارك ـ قبل ذلك ـ فى جدال وحوار أغسطس ١٢٠٦م والذى أصبح مطران افسوس . أبحر نيكولاس الى القسطنطينية حيث استقبله هناك عدد كبير من رجال الدين اللاتين ومن الأساقفة البيزنطيين ، وكان من بينهم نيكولاس أوترانت ترجمان الكردينال بينوا سانت سوزان ، الذى صحبه للمندوب البابوى بلاجيوس الذى

---

(١) Acropolitae, Annales, in C.S.H.B., pp.32-33.

(٢) Janin, Les tentatives d'union (1208-1214) pp. 197-98., Longnon, op. cit., p. 145.

كان فى انتظاره والذى استقبله بكرم واهتمام زائدين .(١)

تمت المفاوضة الأولى بين ممثل البيزنطيين ميساريتس وبين المندوب البابوى بلاجيوس فى كنيسة القديسة صوفيا . وبعد أن تم التقديم الرسمى أبدى ميساريتيس دهشته من أن بلاجيوس أسقف البانو — تلك المدينة الصغيرة فى اسبانيا — لم يأت امامه ليحييه وهو أسقف على سائر آسيا ، وصاحب مكانة ولقب فى الكرسى الرسولى . وعندئذ أظهر بلاجيوس قدمه اليمنى التى كان بها حذاء أحمر اللون ، وصرح بأن هذا الشعار الامبراطورى ، قد أعطى لممثلى روما حق السبق على جميع أصحاب المناصب الدينية الرفيعة . فما كان من ميساريتيس ، الا أن رفع ثوبه حتى ركبتيه وأشار أيضا الى حذائه الذى كان باديا من الخارج ليليق بخدام المسيح الحقيقيين وكان أحمرا من الداخل كدليل على منصبه الشرفى ، وعلى أنه أيضا يمثل الامبراطور. ولهذا هددت المفاوضات بالخطر ، اذ أن ميساريتيس تجاوز الهدف من بعثته الى الدفاع عن المنفيين والمطرودين من رجال الدين ، واكال المديح والثناء على الامبراطور ثيودور لاسكاريس وسلطانه ومقدرته . فرد عليه الكردينال بلاجيوس بأن ثيودور اذا لم يكن قد ظهر كابن مخلص للكنيسة الرومانية ، لما استطاع الرهبان أن يعودوا الى أديرتهم ، ولما قام البيزنطيون بطقوسهم فى حرية وفقا لشعائرهم الدينية .(٢)

وفى ٢٢ فبراير من عام ١٢١٤م دارت المناقشات من جديد ، وكانت هذه المرة حول مسألة الخبز غير المختمر (وهو ما يعرف بالقداس بعد الصلاة عليه) . وهنا أظهر ميساريتيس فصاحته ودقته اللذين كانا لهما تأثير أكيد على اللاتين . وفى ٢٥ نوفمبر من نفس العام انتهت مهمة ميساريتيس ، فاستأذن المندوب البابوى بلاجيوس من أجل العودة الى الامبراطور ثيودور لاسكاريس ، فأرسل بلاجيوس معه شخصين هما نيكولاس اوترانت الترجمان واسقف اسبانى ذاعت شهرته القضائية ، وذلك من أجل أن ينقلا للامبراطور ثيودور رد بلاجيوس على مقترحاته .(٣)

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 33., Janin, Les tentatives d'union (1208-1214) p.199., Longnon, op. cit., p. 146., Fliche, op. cit., T.10, p. 84.

(٢) Janin, Les tentatives d'union (1208-1214) pp. 199-200. Longnon, op. cit., pp. 146- 47.

(٣) Janin, op. cit., pp. 200-201.

عبر ميسارينقصر ورسل بلاجيوس المسفور ، واخذوا طريقهم الى نيقيه ، غير أنهم وجدوا الامبراطور ثيودور فى هراقليا بونت Heraclée de Pont على ساحل البحر الأسود . واستقبل ثيودور رسل المندوب البابوى بلاجيوس بالحفاوة والتكريم ، وفى حضوره تولقش من جديد موقف الكنيسة والسمو البابوى . ومع أن روح الاعتدال ظهرت من جانب كل من البيزنطيين واللاتين ، الا أنه لم يتم التوصل الى نتيجة ، وفى النهاية انسحب الرسولان اللاتينيان ، محملين بهدايا ثيودور وعادا الى القسطنطينية . (١)

وعلى الرغم من الرغبة الصادقة لقيام الوفاق من كلا الجانبين البيزنطى واللاتينى ، فقد ظهر من خلال المفاوضات التى بدأت منذ عام ١٢١٣م أن اتحاد الكنيستين غير ممكن . ويرجع السبب فى ذلك أولا الى صلف بلاجيوس وضغطه على رجال الدين الأرثوذكس فى العاصمة ، وتهديه بوجوب الاعتراف بسلطة البابا ، مما حال دون الوصول الى التفاهم بين الكنيستين . ودخلت المناقشات بينهما فى بحر من الفقه الدينى وعلم اللاهوت ، مما قطع الأمل فى الاتفاق . يضاف الى ذلك حساسية البيزنطيين فى نيقيه لكرامتهم على نحو يتفق ووضع ورثة بيزنطة فقد كدرهم أن يرفض البابا مخاطبة ثيودور لاسكاريس على أنه امبراطور ، كما أن مندوبه بلاجيوس الذى لا يزيد من كونه اسقفا كان يعتبر نفسه أعظم من ميساريتيس مطران افسوس ، بل انه كان ينظر الى البطريرك فى نيقيه على أنه مجرد رئيس أساقفة . على أن خير ما يمكن قوله أن " البيزنطيين واللاتين افترقوا على صحبة ". (٢)

واذا كانت هذه المفاوضات قد فشلت فى تحقيق الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية فانها نجحت فى المجال السياسى ، اذ أسفرت عن اتفاق وقع بين الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وبين امبراطورية نيقيه البيزنطية . (٣)

ورغم فشل المفاوضات مع الكردينال بلاجيوس ، فان ثيودور لاسكاريس امبراطور

---

١) Fliche, op. cit., T.10, p. 84., Longnon, op. cit., p.147

٢) Nicol, The Fourth , p. 303.
Nicol, The Fourth, p. 304.

٣) انظر ما سبق فى الفصل الثانى ص ٧٤ ـ ٧٥

نيقيه لم يعدل عن فكرة التقرب من روما والتفاوض من أجل الاتحاد ، وكان يهدف من وراء ذلك الى مجرد التحايل لتجنب هجوم اللاتين على امبراطوريته حتى يتفرغ لتحقيق حلمه وهو استرداد القسطنطينية . وربما ظن ثيودور أن اختفاء البابا أنوسنت الثالث ، الذى توفى فى عام ١٢١٦م والذى لم يرغب فى الاعتراف به كامبراطور ، سيسهل الاتفاق بدون أن تضحى الكنيسة البيزنطية بأية امتيازات . على أنه قبل الشروع فى المفاوضات مع الكرسى الرسولى والبابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) ، رغب الامبراطور ثيودور لاسكاريس فى الحصول على موافقة بطارقة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس الأرثوذكس ، فقرر أن يعرض عليهم الاجتماع فى نيقيه أولا من أجل وضع قواعد الاتفاق مع الغرب ، ثم يرسل بعد ذلك سفارة للبابا مع المقترحات والآراء التى اتخذها لوضع نهاية للشقاق . ولم يوضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، كما أثار معارضة من جانب كبار رجال الدين البيزنطيين .(١)

وبعد وفاة ثيودور لاسكاريس أظهر خليفته حنا فاتاتزيس Jean Vatatzes (١٢٢٢-١٢٥٤م) ميله الى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وكان الدافع هنا أيضا هو نفس الدافع الذى دعا ثيودور الى التقرب من روما وهو تجنب مشروعات اللاتين ضده وابعادها عنه . وقلق الامبراطور فاتاتزيس لاختيار حنا برين (١٢٢٩-١٢٣٧م) الملك السابق لبيت المقدس ، ذلك الملك الشجاع الباسل ، وصيا على الامبراطور اللاتينى الصغير بلدوين الثانى (١٢٢٨-١٢٦١م) . وأكثر من ذلك قدم البابا لحنا برين كل المساعدة والتأييد ، ثم ان حنا برين بدأ يتبع سياسة هجومية خطرة تجاه امبراطورية نيقيه . لهذا بذل فاتاتزيس امبراطور نيقيه ما وسعه الجهد من أجل أن يصرف انتباه البابا جريجورى التاسع عن اهتمامه الشديد بالامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ومساعدته لأباطرتها .(٢)

---

(١) Fliche, op. cit., T.10, pp.446-47., Vasiliev, op. cit. T. 2, p. 220-21.

(٢) من مظاهر اهتمام البابا جريجورى التاسع بالامبراطورية اللاتينية تلك الخطابات العديدة التى تبادلها البابا مع فاتاتزيس ومن ذلك انظر :
Van Den Gheyn , " Lettre de Grégoire IX Concernant l'empire Latin de Const." dans Revue de l'Orient latin , T.IX (1902) pp. 230-43., Grumel, " L'authenticité de la lettre de Jean Vatatzes, au pape Gregoire IX" dans Échos d'Orient (1930) pp. 452-56.

ويبدو أنه بناءً على اقتراح حنا فاتاتزيس بدأ جرمانوس Germanus بطريرك (١) نيقيه في عام ١٢٣٢م ، مراسلة البابا جريجورى التاسع وكرادلة كنيسة روما للتطرق لمسألة الاتحاد . ويبدو أن جرمانوس كان متأثرا باقتراح خمسة من الفرنسيسكان غير معروفة أسماؤهم ، كانوا قد وصلوا بالصدفة الى نيقيه في طريق العودة الى بلادهم من الأراضى المقدسة وقد حملوا معهم رسائل جرمانوس الى روما . (٢)

رحب البابا جريجورى التاسع برسائل جرمانوس ، وبإعادة المفاوضات من أجل توحيد الكنيستين وباستعداد نيقيه وبطريركها من أجل اتمامه وأرسل اليهم اثنين من الدومنيكان واثنان من الفرنسيسكان . (٣) وسافر المبعوثون عن طريق القسطنطينية ، ووصلوا نيقيه فى ١٥ يناير عام ١٢٣٤م ، حيث قوبلوا بحفاوة بالغة ، كما عقدوا سلسلة من الاجتماعات مع البطريرك جرمانوس والامبراطور حنا فاتاتزيس بشأن النقطتين الرئيسيتين فى موضوع النزاع بين الكنيستين وهما : ما اذا كانت الروح القدس جاءت من الابن ، كما جاءت من الأب سواء بسواء ؟ وما اذا كان من الصواب أن يصنع العشاء الربانى من خبز غير مختمر ؟ . وبالنسبة لهاتين المسألتين كان اللاتين يتخذون على الدوام جانب القول بالايجاب . (٤)

وبعد أيام عدة من التشاور الذى اتسم بروح الود ، اقترح البيزنطيون عقد مجمع عام يضم بطاركة نيقيه ، وبيت المقدس ، وانطاكية ، والاسكندرية . ولكن السفراء رفضوا الحضور ، لأن الأوامر التى لديهم من البابا لم تبلغ ذلك المدى ، فاقترحوا العودة الى القسطنطينية حيث ينتظرون نتائج مجمع يعقده البيزنطيون بدونهم . وعلى الرغم من النشاط الذى مارسه بطريرك نيقيه والامبراطور فاتاتزيس على السفراء ، الا أنهم لم يوافقوا على حضور هذا المجمع . (٥)

---

٢) Roncaglia, Les Fréres Mineurs et l'eglise Grecque orthodoxe , pp. 29-30, 33-35., Wolff, "The Latin empire of Const, and Franciscans" in Traditio, Vol.2(1944) p. 225., Fliche, op. cit., 10, p. 447.

١) إنتخب جرمانوس بطريركا لنيقيه عام ١٢٢٢م ، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٢٤٠م . انظر : Gill, " An unpublished Lettre of Germanus, Patriarch of Constantinople (1222-1240)" in Byzantion (1974), p.138.

٣) الدومنيكان هما بطرس سيزان Pierre de Sézanne وهيو Hugues وغير معروف لقبه الثانى أو جنسيته . أما الفرنسيسكان فهما رودولف ريمس Rodolphe de Reims و Haymon de Faversham انظر : Roncaglia, op. cit., pp.43-45.

٤) Ibid., pp.53-54., Wolff, The Latin empire of Constantinople and Franciscans p.226.

٥) Wolff, The Latin empire and Franciscans, pp.226-27., Roncaglia, op. cit., pp. 68-70.

ومهما يكن من أمر ، فقد عاد المبعوثون من الفرنسيسكان والدومنيكان الى آسيا الصغرى ، ثم دعوا الى نيمفايوم Nymphaeum فى ليديا Lydia بآسيا الصغرى ، حيث اشتركوا عن كره منهم فى محاورات المجمع المقدس ، التى انفضت باتهامات متبادلة عنيفة . أكد البيزنطيون أن حقدهم العدائى تجاه الكنيسة الرومانية انما يعزى الى السلب والدمار الذى حل فى نهب القسطنطينية عام ١٢٠٤ م ، بينما رد الرهبان الفرنسيسكان بأن ذلك ما كان يمكن أن تلام عليه الكنيسة ، واذا كان الصليبيون خطائين فقد صدر ضدهم قرار الحرمان .(١)

كذلك لم تنجح مقابلة أخيرة مع فاتاتزيس ثمرة ما ، فقد حاول أولا أن يرشى المبعوثين بوعدهم بالهدايا القيمة للبابا ثم اقترح المصالحة التى كان قد نوى عليها بصورة جدية على أساس أن يستخدم البيزنطيون خبزا غير مختمر فى العشاء الربانى اذا أسقط اللاتين عبارة (الابن Filioque) من العقيدة .(٢) ولم يثمر الاجتماع سوى عن تأكيد نقاط الاختلاف فى المسائل العقائدية بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وترك مبعوثو البابا الاجتماع تحت صياح وتشهير الأساقفة البيزنطيين ورحلوا الى القسطنطينية ، تاركين وراءهم الكثير من متاعهم .(٣)

تتابعت المفاوضات فى تلك الأثناء على الرغم من هجوم حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيه وحليفه حنا آسن قيصر بلغاريا فى عام ١٢٣٥ م على القسطنطينية لاسترادها .(٤) ، وصحب هذا الهجوم تبادل الخطابات العنيفة بين البابا جريجورى التاسع والامبراطور حنا فاتاتزيس ، الذى أصر على رغبته فى التقرب من روما ، وذهب الى حد أن عرض على البابا خضوع الكنيسة البيزنطية ، اذا ما وافقت روما على أن تحل محل بطريرك القسطنطينية اللاتينى ، بطريرك يونانى تابع له . ولكن هذا الاقتراح لم يحالفه أى نجاح اذ رفضه بطريرك نيقيه ، وقاومه رجال الدين البيزنطيون .(٥)

---

١) Wolff, op. cit., p. 227 .

٢) (والابن Filoique) عبارة تعنى أن الروح القدس لم ينبثق من الاب فحسب ، بل ومن الابن أيضا . انظر : السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٢٢ .

٣) Roncaglia, op. cit., pp.82-84., Fliche, op. cit., T.10., p. 448., Vasiliev, op. cit., 2, p. 222.
أسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الهجوم انظر ما سبق فى الفصل الثانى ص ٨٢

٥)

ويبدو من هذا أن القضية السياسية حالت دون الوصول الى حل للمشكلة الدينية ، وظهر أن وجود اللاتين فى القسطنطينية لم يساهم فى القضاء على الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية بل أقام عقبة فى سبيل اتحادهما .

تنبه البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٢—١٢٥٤م) خليفة جريجورى التاسع الى أن اتحاد الكنيستين سيظل مستحيلا وغير ممكن ، طالما ظل اللاتين على شواطىء البسفور ، ورأى أن الامبراطورية اللاتينية وليدة الحملة الصليبية الرابعة قد أنهكتها المنازعات الداخلية ، وهدد البيزنطيون والبلغار حدودها ، وفوق ذلك اخفقت فى أن تبرهن على أنها أداة فعالة فى اعادة وحدة الكنيسة ، ولم تصبح قاعدة فعالة تنطلق منها الحملات الصليبية الى الأراضى المقدسة . لهذا كله بدأ البابا إنوسنت الرابع يخطط لوضع سياسة جديدة ، سعى من خلالها الى استئناف المفاوضات ثانية مع البيزنطيين بهدف فصم عرى التحالف الذى تم بين امبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس وبين عدو البابوية اللدود فردريك الثانى وليضحى فى سبيل سياسته هذه بالامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية . (١)

وفى مجمع ليون عام ١٢٤٥م صرح البابا أنوسنت الرابع ، بأنه حزن لانشقاق الكنيسة البيزنطية التى ظلت منفصلة — بأنفة وكبرياء وافراط — عن أمها ، كما لو كانت ابنا غريبة أو امرأة أب . وعبر أنوسنت كذلك عن رغبته فى أن يرى البيزنطيين عائدين الى كنيسة روما . (٢)

بدأت المفاوضات بالفعل بين البابا أنوسنت الرابع وامبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس على أثر سفارة أرسلها البابا أنوسنت الى امبراطور نيقيه فى عام ١٢٤٩م ، وكان القائد الفرنسيسكانى حنا البارمى Jeande Parme على رأس هذه السفارة ، التى كانت تهدف الى جانب تحقيق وحدة الكنيستين الى فض التحالف القائم بين حنا فاتاتزيس وفردريك الثانى . واعتبر حنا فاتاتزيس بعد هذه السفارة —

---

١) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جـ٢ ، ص٣٠٨ .
Fliche, op. cit., T.10, p.448 .
٢) Vasiliev , op. cit., T.2, p. 222 .

ان الهوهنشتاوفن Hohenstaufen (١) شيء ضائع ومفقود ، ووافق على التعاون مع البابا ، وأرسل بدوره سفارة اليه.(٢)

أدى تبادل السفراء بين البابا وفاتاتزيس الى غضب فردريك الثاني ، حليف فاتاتزيس وصهره ، واستوقفهم عن أسره لمدة ، فاتاتزيس ، بينما هي تعبر جنوب ايطاليا ، متجهة الى مقر البابا ، ولكن توفى فردريك الثاني بعد ذلك بقليل في ١٣ ديسمبر عام ١٢٥٠م ، واسترد السفراء البيزنطيون حريتهم ولحقوا بالبابا أنوسنت الرابع في بيروجيا Perousso .(٣)

وبموت فردريك الثاني ، عادت المفاوضات بين روما ونيقيه ، فوصلت سفارة جديدة من نيقيه الى روما في عام ١٢٥٤م ، وعرض فاتاتزيس أن يعترف بسيادة البابوية في مسائل العقيدة ، وأن يدعو الى مجمع للنظر في عبارة (والابن) ، وطلب لقاء ذلك أن تعود القسطنطينية للبيزنطيين ، وأن يعود عرشها البطريركي الى بطريركه ارسينوس Arsenius ، وكانت البابوية ترفض النظر في مثل هذه المطالب من قبل ، أما الآن فقد وعد البابا القيام بمساعي حميدة تلهت في المسائل الموضوعة تحت البحث بين الاباطرة اللاتين والبيزنطيين ، وسمح البابا أنوسنت الرابع لنفسه أن يلمح بأن الخضوع الكامل من جانب نيقيه لروما يمكن أن تتبعه مساعدة بابوية من أجل اعادة الحكم البيزنطي الى القسطنطينية ، كما أبدى البابا أنوسنت استعداده لأن يعترف بطريرك نيقيه بطريرك القسطنطينية ثم بعد شهر ذلك ، أن تسقط القسطنطينية في يد فاتاتزيس امبراطور نيقيه ، ويعيد أنوسنت الرابع البطريرك البيزنطي لمركزه القديم .(٤)

---

١) هوهنشتاوفن ، قصر قديم بين أعمال سوابيا ، وقد اتخذت أسرة سوابيه شهيرة اسمها منه ، وتولى افراد هذه الأسرة عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة من (١١٣٨—١٢٠٨م) ، ثم من (١٢١٤—١٢٥٤م) ، ومن أشهرهم فردريك بربروسا وابنه هنري السادس ، انظر : دليل ه البندقية جمهورية ارستقراطية حاشية ٢ ، ص ٠.

٢) Fliche, op. cit., T.10., p. 449., Brehier, Vie et Mort, I, p. 382.

وعن التحالف بين فردريك الثاني وامبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس أنظر مايلي : في المدن الرابع ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

٣) Fliche, op. cit., 10, p. 449., Brehier, op. cit., I, p. 383.

٤) Setton, op. cit., 2, p. 227 .

ويتضح من هذا أنه من أجل اعادة وحدة العالم المسيحي ، كان البابا مستعدا لأن يضحي بالامبراطورية اللاتينية التي أسسها الصليبيون ، كما أن فاتاتزيس امبراطور نيقيه كان مستعدا لأن يضحي باستقلال الكنيسة البيزنطية من أجل استرداد عاصمة الامبراطورية . وهكذا ترك كلا الجانبين سياستهما التقليدية تماما . وكان البابا أنوسنت الرابع ، هو البابا الوحيد ، الذي فهم في القرن الثالث عشر أن مصائر الكنيسة لا ترتبط بمصائر الامبراطورية اللاتينية ، وأن توحيد الكنيستين يجب أن يقوم على قواعد تختلف جميعها عن تلك التي وضعت حتى ذلك الحين .

ولكن لم يلبث أن توفى حنا فاتاتزيس في نوفمبر عام ١٢٥٤م ، كما توفى البابا أنوسنت الرابع في ديسمبر من نفس العام ، فانطوت بذلك صفحة من تاريخ المفاوضات من أجل توحيد الكنيستين الشرقية والغربية .(١)

استؤنفت المفاوضات من جانب البابا اسكندر الرابع وامبراطور نيقيه الجديد ثيودور لاسكاريس الثاني في عام ١٢٥٦م ، فقد نهج ثيودور نهج والده فاتاتزيس ورأى في توحيد الكنيستين أداة حسنة لاستعادة القسطنطينية ، ولهذا أرسل ثيودور في عام ١٢٥٦م الى البابا اسكندر اثنين من نبلاء قصره ، ليتوسلا الى البابا بأن يفتح من جديد باب المفاوضات من أجل الاتحاد ، على نفس الأسس التي كان فاتاتزيس قد اقترحها في مجمع نيمفايوم في عام ١٢٣٤م . ووافق اسكندر الرابع على اقتراح الامبراطور ثيودور ، وأرسل بعد عشرة أيام من وصول رسل امبراطور نيقيه — الأسقف قسطنطين أورفيتو Constantine Orvieto الى نيقيه لتحقيق هذه الغاية . وكان لدى مندوب البابا قسطنطين تعليمات رسمية وتفويض من البابا بالدعوة الى مجمع كنسي ، وترأسه بصفته نائب البابا ، وأن تحرر قرارات المجمع وفق رغبته .(٢)

---

١) Vasiliev, op. cit., 2, p. 222.
Bréhier, op. cit., I, p. 383 .

٢) لمزيد من التفاصيل عن المفاوضات بين البابا اسكندر الرابع وثيودور الثاني لاسكاريس انظر :
Laurent, " Le pape Alexandre IV (1254-1261) et l'empire de Nicée", dans Échos d'Orient (1935), pp. 34-55.

تحسنت ظروف ثيودور السياسية والعسكرية بعد أن أحرز عدة انتصارات على البلغار ، ليس من خلالها ضعف اللاتين وقرب أجلهم[1] لهذا ما ان وصل مندوب البابا لقسطنطين الى نقدونيا حتى امتنع ثيودور عن مقابلته ، وأصر على ترك الأقاليم التابعة لسلطانه والعودة .[2] ومع أن هذه السفارة لم تسفر عن شيء الا أنها أوضحت قلة اهتمام البابوات بالامبراطورية اللاتينية ، وضعف ثقتهم في قوتها ، فقد فشلت هذه الامبراطورية في تحقيق آمال البابوية بشأن استرداد الأراضي المقدسة ، وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، مما دفع البابا أنوسنت الرابع ومن بعده اسكندر الرابع الى التخلص منها .

وما لبث ثيودور الثاني لاسكاريس أن توفى في أغسطس ١٢٥٨م ، ووضع موته نهاية لمحاولات توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . وفي عام ١٢٦١م نجح ميخائيل باليولوجوس في استرداد العاصمة البيزنطية والاحتفاظ باستقلال الكنيسة الأرثوذكسية دون مساعدة من البابا .

دور فرق الفرسان الرهبان في الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية :

تكونت فرق الفرسان الرهبان من الفرسان النبلاء الذين سيطرت عليهم روح الدين ، والذين نذروا أنفسهم لقتال الوثنيين ، ونشأت فرق الفرسان الرهبان في البداية على حياة التقشف والفقر والطاعة ، والعمل في المجالات الخيرية والاجتماعية الانسانية ، ثم تطور نشاط هذه الفرق الى المجالات السياسية والحربية حيث أثبتت هذه الفرق مهارة وكفاءة حربية عالية . وتمثلت فرق الفرسان الرهبان في الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية في طائفتين وهما : الاسبتارية والفرنسيسكان[3]

---

١) انظر مايلي في الفصل الخامس ص ٢٣٤ـ٢٣٥ .
٢) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .
٣) لمزيد من التفاصيل عن فرق الفرسان والرهبان انظر :
نبيلة مقامي ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢ و ١٣ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٥ .

مع سقوط القسطنطينية على أيدى اللاتين عام ١٢٠٤م ، وجدت طائفة المسترشيان — وهم الرهبان البيض أو الرماديون — نطاقا ومجالا جديدا تعمل فيه ، اذ اشترك المسترشيان اشتراكا ايجابيا وفعالا فى الحملة الصليبية الرابعة ، وكانوا على استعداد للاشتراك فى عملية الاستيطان التى تلت فتح الامبراطورية البيزنطية . (١)

بدأ نشاط المسترشيان فى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية بالدور الذى لعبوه فى الاعداد للحملة الرابعة ، تبشير بعضهم بالحملة ودعا لها ، وحمل البعض الآخر الصليب ، وأمان الجميع الحملة بالمال . (٢) وصاحب عدد كبير من المسترشيان الجيش الصليبى الى زارا والقسطنطينية ، وحين اتفق قادة الجيش الصليبى على مساعدة البنادقة فى الاستيلاء على زارا ، شعر المسترشيان بشئ من التردد حيال الاشتراك فى الهجوم على مدينة مسيحية وكان هذا أمرا طبيعيا . فيذكر الراهب جونثر Gunther أن الأب مارتن من باريس Martin of Pairis وهو مسترشيانى ، حاول أن يغرى المندوب البابوى بطرس كابوانو بأن يعفيه من نذوره الصليبية ووعوده ، وأن يسمح له بالعودة الى ديره نظرا لمعارضته للحملة ، الا أن كابوانو رفض ذلك ، بل وجعل مارتن مسئولا من المشتركين فى الحملة من الالمان ، كما أمر المندوب البابوى كابوانو مارتن وآخرين من رجال الكنيسة الذين كان من بينهم — فيما يبدو — ثلاثة من رؤساء أديرة المسترشيان بالبقاء مع الصليبيين والقيام بجهد كبير قدر الامكان لمنعهم من اراقة الدم المسيحى . (٣)

كما أن بطرس لوسيديو Peter of Locedio وهو من طائفة المسترشيان أيضا ، وأحد أتباع المركيز بونيفاس مونتفرات Boniface Montferrat قائد الحملة الرابعة هو الذى حمل خطاب البابا الذى يحرم

---

(١) Brown, " The cistercians in the Latin empire of Constantinople", in Traditio, Vol.XIV (1958), p.63

(٢) لمزيد من التفاصيل عن دور المسترشيان فى الدعوة للحملة وتقديم العون المالى لها انظر :

Brown, The Cistercians, pp.64-72.

(٣) Ibid., p.73., Queller and Others, " The Fourth Crusade, The Neglected Majority", in Speculum (1974), p.449-51.

فيه الصليبيين من رحمة الكنيسة اذا ما هاجموا مدينة زارا Zara . وبعد أن سلم الخطاب للجيش الصليبي ، كان جي Guy ، رئيس دير فو دى سيرناى Vaux de Cernay السسترشيانى ، هو الذى قرأ خطاب البابا على جمع من الصليبيين فى نوفمبر ١٢٠٢م قبل حصار زارا مباشرة ، وحذرهم من مهاجمة المدينة.(١) كما أن جى هذا كان واحدا من أعلى الأصوات المعارضة للعرض الذى أرسله فيليب السوابى وصهره الكسيوس الى الجيش الصليبي فى ديسمبر ١٢٠٢م ، أو بداية عام ١٢٠٣م وكان هذا العرض يحمل بين طياته فكرة الذهاب الى القسطنطينية.(٢)

وعندما أرسل الصليبيون وفدا الى البابا فى روما لطلب العفو والغفران ، كان مارتن من باريس — كما يذكر الراهب جونتر — واحدا من المبعوثين الثلاثة الذين أرسلهم الصليبيون الى روما لطلب العفو.(٣)

وفى أغسطس عام ١٢٠٣ م ، بعد استيلاء الصليبيين على القسطنطينية ، كتب الامبراطور البيزنطى الكسيوس الرابع الى البابا أنوسنت الثالث ، يعترف له بالسيادة ، ويعده بتشجيع الكنيسة الشرقية على الاعتراف بسيادته . وفى الخطاب ذكر الكسيوس أن بطرس من لوسيديو السسترشيانى هو أحد الذين ساعدوه على الوصول الى هذا القرار.(٤)

اشترك مارتن من باريس فى نهب القسطنطينية بعد سقوطها فى أيدى اللاتين فى ابريل عام ١٢٠٤م.(٥) ويذكر الراهب جونتر أنه بعد فتح أراضى الامبراطورية البيزنطية وتقسيمها حث بونيفاس مونتفرات مارتن على أن يأتى معه الى سالونيك فيأخذ اسقفية هناك ، ولكن رفض مارتن عرض بونيفاس ، وعاد الى الغرب ، ووصل باريس فى يونيه عام ١٢٠٥م محملا بما نهبه.(٦)

---

١) عن خطاب التحريم انظر :
Patrologia Latina, T.214, Col. CXXXIX.

٢) عن عرض الكسيوس انظر الفصل الاول ص ١٦
وعن معارضة جى لهذا العرض انظر :
Villehardouin, La Conquete de Constantinople, pp.55,57.

٣) لم يذكر فيلهاردوان الا مارتن من بين رسل الصليبيين للبابا . وقد أورد أسماء هؤلاء الرسل على النحو التالى : اثنان من الفرسان هما : جان فرايز Jean Frisize وروبرت بوف Robert de Boves ، واثنان من شماس الكنيسة وهما نيفلون Nevelon أسقف سواسون وجنا نويون Jean de Noyon
انظر :
Villehardouin, op. cit., pp.59-61.

٤) Patrologia Latina, T. 215, Col. 237.

٥) عن دور مارتن فى السلب انظر :
Queller and Others, The Fourth Crusade, pp. 451-62.
اسحق عبيد ، روما وبيزنطة ص ٢٤٢—٢٤٣ .

٦) Brown, The Cistercians, p. 77 .

وعندما انتهى القتال وحان الوقت لتسوية الشئون السياسية في الامبراطورية اللاتينية ، كان الأب بطرس لوسيديو من بين رجال الدين الذين اشتركوا في انتخاب أول امبراطور لاتيني يعتلى عرش القسطنطينية . (١)

أصبح للسسترشيان بعد فتح القسطنطينية العديد من الأديرة في الامبراطورية اللاتينية ومنها على سبيل المثال ، دير الكورتايتون Chortaiton وهو الدير الذى قدم عام ١٢٠٥م بمثابة منحة من ممتلكات ملك سالونيك (١٢٠٤-١٢٢٧م) ، كأول هبة لطائفة السسترشيان في الامبراطورية اللاتينية ، وقد خلصه بونيفاس على الأب بطرس من لوسيديو الذى بعد أن تسلمه ، عين جوفرى Geoffrey وهو راهب من لوسيديو — رئيسا له . ومن الجدير بالذكر أن هذا الدير يقع على جبل قرب سالونيك ، هجره السكان البيزنطيون وقت الفتح . (٢)

ومنح أوتو دى لاروش Otto de la Roche دوق أثينا (١٢٠٥ — ١٢٢٥م) السسترشيان في وقت مبكر من حكمه دير دفنى الاغريقى العتيق ، ويبدو أن السسترشيان امتلكوا هذا الدير في عام ١٢١٧م . (٣)

أما الدير السسترشيانى الثالث الذى قدر له أن يؤسس في الامبراطورية اللاتينية فهو دير القديس ستيفن St. Stephen الذى كان يقع على مقربة من القسطنطينية ، ويمكن القول بأن جماعة السسترشيان ، شغلت هذا الدير في عام ١٢٠٨م . (٤)

وإلى جانب هذه الأديرة الثلاثة آل إلى السسترشيان العديد من الأديرة الأخرى في الامبراطورية اللاتينية ، حتى أصبحت أديرتهم منتشرة من القسطنطينية

---

١) انظر خطاب الامبراطور بلدوين فلاندر للبابا أنوسنت في :
Patrologie Latina, T.215, Col.451.,
٢) Dufournet, Les écrivains, 2, p.436.
Brown, The cistercians, p. 80.
٣) Ibid, p. 82.
٤) عن دير القديس ستيفن انظر :
Janin, " Les sanctuaires de Byzance", dans Études Byzantines, T.2 (1944), p. 131.

حتى ميناء مودون فى الطرف الجنوبى الغربى من المورة (البلوبونيز) • ومع أن فترة سلطانهم القصار لم يطل أحدها • فان رؤساء أديرتهم كانوا شخصيات هامة فى حياة الامبراطورية اللاتينية السياسية والدينية • وعهد اليهم البابوات فى تلك الفترة بأعمال عديدة • (١)

لعب السسترشيان دورا هاما ذا دلالة هامة فى العلاقات بين البابوية والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية • فيما بين عامى ١٢١٧-١٢٤٠م • كان الرهبان السسترشيان فى الامبراطورية اللاتينية أهل عون كبير للبابوية • ففى خلال هذه الفترة كان البابوات يدعونهم غالبا للعمل نيابة عنهم • وأحيانا كان يطلب اليهم تنفيذ القرارات البابوية • وأحيانا أخرى للعمل بوصفهم وكلاء ماليين للبابوية • كذلك عينهم البابوات للقضاء فى قضايا عديدة داخل بطريركية القسطنطينية اللاتينية • فخلال هذه الفترة كان السسترشيان مؤيدين للبابوات فى صراعاتهم مع بطاركة البطريركية اللاتينية فى القسطنطينية • (٢)

ففى عام ١٢١٨ ثارت قضية تتضمن اتهام البطريرك جرفاسيوس Gervasius (١٢١٥-١٢١٩م) بطريرك القسطنطينية اللاتينى باغتصابه للسلطة • وهناك خطاب يصف الخطوات الملتوية التى اتخذها وسلكها هذا البطريرك لتدعيم سلطانه • (٣) وقد اتجه البابا هونريوس الثالث فى هذه القضية الى رئيس دير كورتايا السسترشيانى ليبطل أى اجراءات اتخذها جرفاسيوس من أجل تدعيم مركزه • (٤)

وفى عام ١٢٢٣م • دعا البابا هونريوس الثالث رئيس دير سان انجيلوس • ورئيس دير سان ماري فى بيت لحم وهما من السسترشيان للعمل ضد بطريرك القسطنطينية اللاتينى ماتيوس جيسولو Matthaeus Jesolo (١٢٢١-١٢٢٦م) الذى أخطأ تفسير قانون أصدره المندوب البابوى بلاجيوس • واستولى بمقتضاه

---

(١) Brown, The cistercians in the Latin empire , p. 78.

(٢) Ibid, pp.96-97.

(٣) انظر نص هذا الخطاب فى :

Ibid, Appendix I, p. 119.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

Ibid, pp. 102-103.

على تلك التركات التي يتركها الأموات للأساقفة والرهبان في القسطنطينية . ولهذا أمر البابا هونوريوس رئيس دير سان انجيلوس السسترشيان بإيقاف البطريرك عند أخذ تلك مثل هذه التركات .(١)

ولم يقتصر نشاط السسترشيان على العمل كوكلاء للبابوية في القسطنطينية وفي المعاملات مع البطاركة اللاتين ، فقد دعاهم البابوات للعمل كمشرفين نيابة عنهم . ففي عام ١٢٣٧م ، رفع جوفري الثاني فيلهاردوان Geoffrey II Villehard-ouin — أمير آخايا — التماسا أمام البابا جريجوري التاسع بخصوص المستشفى والكنيسة اللتان أسسهما أبوه في أندرافيدا Andravida تكريما لجيمس المبارك Blessed James بتصريح من المندوب البابوي بلاجيوس .
ولما كان بلاجيوس قد منح المستشفى والكنيسة امتيازا بالاعفاء ، وأكد البابا هذا الامتياز ، فقد طلب جوفري نقلها الى طائفة التيتون Teutonic في الامبراطورية اللاتينية ، ووافق البابا جريجوري التاسع على طلب جوفري الثاني ، واتجه نحو السسترشيان لينفذوا قراره . وأمر رئيس دير سراسز Saracez السسترشيانى بفحص اعفاء المستشفى ، فاذا وجده سليما فعليه السماح بالنقل .(٢)

وبناء على طلب رئيس الأساقفة الترمين امالفى Wather of Amalfi أمر البابا اسكندر الرابع في عام ١٢٥٧م ، رئيس دير سان انجيلوس بحراسة ممتلكات كنيسة الامالفيين في الامبراطورية اللاتينية وحمايتهم ، على أن تظل هذه الحماية لفترة ثلاثة سنوات .(٣)

استخدمت البابوية كذلك رؤساء أديرة السسترشيان في الامبراطورية اللاتينية لفرض التدابير المالية التي قامت البابوية بها دفاعا عن المستوطنات اللاتينية في

(١ Wolff, The Latin Patriarchate, p. 279 .
Brown, The Cistercnins, pp. 103-104.
(٢ Brown, The Cistercians, pp.107-108.
(٣ Ibid, p. 108.

مناسبتين أولهما : عام ١٢٢٤م حيث أمر البابا هونوريوس رجال الكنيسة سواء في مملكة سالونيك أو في داخل القسطنطينية أو في خارجها بما فيهم السسترشيان ، وفرسان الداوية والاسبتارية الذين اعفوا فيما بعد من هذه الضرائب — بمنح نصف دخولهم السنوية ، وكل المنقولات ، فيما عدا كنوز الكنيسة لمساعدة الحملة الصليبية التي سيقودها وليم مونتفرات William Montferrat ضد ثيودور انجيلوس امبراطور ابيروس .(١) وأمر هونوريوس رئيس دير كورتاتون السسترشياني ، ومركيز مونتفرات ورئيس أساقفة بتراس Patras بانتداب أو ارسال أولئك الذين سوف يذهبون لجمع هذه الأموال .(٢)

أما المناسبة الثانية التي استخدمت فيها البابوية رؤساء أديرة السسترشيان فقد حدث في عام ١٢٣٦م أن كانت الامبراطورية اللاتينية في حالة شديدة من الانهاك والضعف رغم نجاحها في صد هجوم حنا فاتاتزيس امبراطور نيقية ، وحنا آسين قيصر بلغاريا ، وذلك بمساعدة جوفرى فيلهاردوان أمير آخايا والمدن الايطالية وكانت هزيمة العدو حاسمة .(٣) الا أن الامبراطورية كانت بحاجة الى العون والمساعدة ومن أجل ذلك ذهب بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية الى الغرب سعيا لطلب المعونة ، وربما كنتيجة لزيارته هذه ، أن عطف جريجورى التاسع من جهوده لصالح الامبراطورية اللاتينية ، فأمر في ديسمبر عام ١٢٣٦م ، رئيس أساقفة بتراس ومساعديه وسائر رجال الدين أن يعطوا عشر دخل كنائسهم ، ومناصبهم السنوى كمساعدة لمن يقاتلون من أجل سلامة الامبراطورية اللاتينية وأمنها ، ويتعرضون في سبيل ذلك للمصاعب . وأعطيت تعليمات لرئيس دير سراسز Saraces السسترشياني ، وللسيد بطرس مستشار آخايا ، ومساعد الشماس البابوى ، وكاهن بتراس وغيرهم بأن يجمعوا هذا المال ويوزعونه بتدبير لاستخدامه في الحرب تبعا لنصح ومشورة جوفرى أمير آخايا .(٤)

---

١) عن هذه الحملة انظر الفصل الثاني ص ١٠٢

٢) Brown, op. cit., pp. 108-109.

٣) انظر تفاصيل هذا الهجوم المشترك على الامبراطورية خلال عامي (١٢٣٥ — ١٢٣٦م) في الفصل الثاني ص ٨٢ — ٨٥

٤) Brown, The cistercians, p. 109.

هكذا لعب المستريشيانى دورا ذا أهمية فى شئون الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فكانوا منذ عام ١٢١٨م وما بعده أداة البابوية ، التى استخدمتها فى التعامل مع البطاركة اللاتين وفى تنفيذ قراراتها ، والعمل كوكلاء لها ، ومساعدتها فى جمع الأموال اللازمة للدفاع عن الامبراطورية اللاتينية .

واذا كان هذا هو دور المستريشيان فى الامبراطورية اللاتينية ، فقد نجح الفرنسيسكان[1] فى ادخال امبراطورا لاتينيا فى زمرتهم وهو " حنا برين Jean Brienne " . كما كان الفرنسيسكان المستشارين المقربين لامبراطور آخر وهو بلدوين الثانى ، كما أنهم تعاونوا مع البابوية شأنهم فى ذلك شأن المستريشيان ، ومع البطاركة اللاتين فى القسطنطينية حتى تعيش البطريركية اللاتينية فى سلام وتنعم بالاستقرار المالى ، وفوق ذلك قام الفرنسيسكان بدور بارز وجهد مبذول لتحقيق وحدة الكنيستين الشرقية والغربية .

كان تنظيم الفرنسيسكان يقوم بوظيفته فى القسطنطينية منذ عام ١٢٢٠م ، ومنذ ذلك التاريخ يتزايد الدليل على أهمية تلك الطائفة فى الامبراطورية اللاتينية ، اذ كان الفرنسيسكان أصحاب نفوذ فى البلاط الامبراطورى ، وبدأ نفوذ الفرنسيسكان فى هذا البلاط مع حكم حنا برين (١٢٢٩–١٢٣٧م) ملك بيت المقدس السابق ، وامبراطور القسطنطينية ، وحمو فردريك الثانى وبلدوين الثانى . وظل الفرنسيسكان أصحاب نفوذ فى بلاط خليفة حنا برين وهو الامبراطور اللاتينى بلدوين الثانى (١٢٢٨ – ١٢٦١م) ، فقد كان بلدوين على صداقة مع القديس بندكت من أرزو Benedict of Arezzo الفرنسيسكانى ، وكان يستشيره فى شئون الامبراطورية اللاتينية الهامة ، وكان يعلى من مكانته وشأنه ، ويرى فيه نبيا[2] .

وفى عام ١٢٤١م نجح اثنان من الفرنسيسكان فى الحصول من بلدوين الثانى على

---

١) يسمى الفرنسيسكان أيضا بالرهبان السود والأخوة الصغار ، وينتسبون الى القديس فرنسيس الأسيسى ، الذى ولد فى أسيس بايطاليا عام ١١١٨م ، وتوفى فى عام ١٢٢٦م . انظر منيس عبد النور ، فرنسيس الأسيسى ، ص ٧ .
Belin, op. cit., p. 77.

٢) Wolff, " The Latin empire of constantinople and Franciscans", in Traditio, Vol. 2 (1944), pp.214-22

مجموعة ذات بال من الآثار لاضافتها الى تلك المجموعات التى كانت فى حوزة القديس لويس St. Louis ، وهو الذى تلقى قبل ذلك بعامين اكليل الشوك من بعض جماعة من الدومنيكان . (١) ففى عام ١٢٤٠م بلغت القديس لويس أنباء عن وجود قطعة من الصليب الحقيقى فى بلاد الشام ، فأرسل لويس اثنين من الفرنسيسكان الى الامبراطور بلدوين الثانى ليحصلا منه على تصريح مرور ، فيمكنهما بذلك المضى من القسطنطينية الى بلاد الشام من أجل الحصول على تلك التحفة الجديدة . فضلا عن ذلك نجح الفرنسيسكان فى الحصول من بلدوين الثانى على مجموعة نادرة من بينها الرمح المقدس ، وصليب النصر الذى استخدمه الامبراطور قسطنطين كعلم ، وقطعة القماش التى مسح بها المسيح اقدام اتباعه فى العشاء الربانى الأخير ، وعباءة العذراء ، وعصا موسى . (٢)

والى جانب ما كان للفرنسيسكان من نفوذ شخصى — على هذا النحو على كل من حنا برين وبلدوين الثانى ، نراهم قد لعبوا دورا كبيرا فى حياة الامبراطورية اللاتينية فى أيامها الأخيرة ، بل وكانوا ذوى قوة فى شئونها الكنسية . فقد أرسل البابا اسكندر الرابع فى يوليو ١٢٥٧م رسالة الى رئيس الفرنسيسكان فى الامبراطورية اللاتينية ، يطلعه فيها على حالة البطريرك اللاتينى المالية السيئة نتيجة للهجمات الكثيرة المتكررة التى يشنها البيزنطيون ، وأمر البابا رئيس الفرنسيسكان أن يدعو لاجتماع عام يحضره جميع رجال الكنيسة فى الامبراطورية اللاتينية ، ويقرر أن يدفعوا خمسمائة مارك سنويا للبطريرك مع عدم اجبارهم على دفع أكثر من ذلك . كما طلب البابا من رئيس الفرنسيسكان فى الامبراطورية اللاتينية أن يستخدم التهديدات البابوية التى تساعده على تنفيذ ما أمره به . (٣) وبهذا اتجه البابا الى الفرنسيسكان من أجل اعادة النظام فى شئون البطريركية التى انتابتها الفوضى ، ومعالجة أمر من الأمور المالية دقيق حساس .

---

(١) Longnon, " L'arrivée de la couronne d'Epines en France", dans Revue des deux monde (1939), p. 210.

(٢) Wolff, The Latin empire of Constantinople and Franciscans, p. 222.,
Ebersolt, Orient et Occidendent, recherches sur les influences Byzantins au France, p. 84.

(٣) Wolff, The Latin empire and Franciscans, pp.233-24.,
Wolff, Politics in the Latin Patriarchate, pp.293-94.

وهكذا يبدو جليا أن الامبراطور ، والبطريرك ، والبابا على السواء كانوا جميعا يعولون بصورة كبيرة على الفرنسيسكان ، ويعهدون اليهم بالأعمال الهامة في شئون الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، والى جانب هذه الأعمال داخل القسطنطينية ذاتها لعب الفرنسيسكان دورا هاما في المحاولات التي بذلتها البابوية لاعادة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية. (١)

من العرض السابق لعلاقة البابوية بالامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية يتضح أن البابوية تحولت الى مؤيد ومساند قوى للامبراطورية اللاتينية ، واعتبرت امبراطورها تابعا وخادما للبابا ، كما أولتها كثيرا من الاهتمام ، وأمدتها بالمال والرجال وحالت بين البنادقة وبين محاولة بسط سيطرتهم عليها . والحق أن البابوية كانت تأمل وتتطلع الى أن تتخذ من الامبراطورية اللاتينية أداة لتحقيق ما كانت تصبوا اليه من آمال ، ممثلة في استعادة الأراضي المقدسة وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وبذلت البابوية جهودا كبيرة في سبيل تحقيق هذه الآمال ، غير أنها فشلت في أن تحقق أى منها في ظل وجود الامبراطورية اللاتينية لهذا سعت الى التخلص من هذه الامبراطورية .

* * *

---

١) عن هذا الدور انظر نفس الفصل ص ١٤٤ — ١٤٦

الفصل الرابع

الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية والقوى الاوربية المعاصرة

- علاقة الامبراطورية اللاتينية بالمدن التجارية الايطالية
  1) البندقية .
  2) جنوة وبيزا .
- موقف الامبراطورية الرومانية المقدسة من الامبراطورية اللاتينية .
- فرنسا والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .
- علاقة الامبراطورية اللاتينية بأسبانيا المسيحية .

البندقية والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية :

سبق أن رأينا الدور الكبير الذي لعبته مدينة البندقية في الاعداد والتنفيذ للحملة الصليبية الرابعة ، كما لعب البنادقة دورا هاما في قيام الامبراطورية اللاتينية.[1]

وبعد أن تم اختيار بلدوين فلاندر Baudouin de Flandre في مايو ١٢٠٤م كامبراطور ، عين البنادقة — عملا بما يطابق بنود اتفاق مارس ١٢٠٤م — رجال الكنيسة التابعين لهم في كنيسة سانت صوفيا ، وهؤلاء بدورهم انتخبوا توماس موروسيني Thomas Morosini كأول بطريرك لاتيني ، وحاول البنادقة عن طريقه احتكار البطريركية اللاتينية في القسطنطينية ولكن تصدت البابوية لمحاولاتهم.[2]

وعند تقسيم الامبراطورية البيزنطية مثل دوق البندقية داندولو في القسطنطينية يتابع عن قرب أعمال الموزعين الذين عهد اليهم وفقا لاتفاق مارس ١٢٠٤م بتقسيم الامبراطورية البيزنطية وتوزيعها على الفاتحين ، وبمقتضى اتفاق مارس خصصت ربع الأراضي البيزنطية للامبراطور ، وقسم الباقي بالتساوي بين الصليبيين والبنادقة ، ولعل هذا مايفسر اللقب الذي حصل عليه الدوجات البنادقة وهو لقب " سادة الرابع ونصف ربع الامبراطورية الرومانية وظل الدوجات يحتفظون بهذا اللقب حتى عام ١٣٥٦م.[3] وكانت حصة البندقية — كما جاء في التقسيم — تشمل :

---

١) انظر ماسبق ص ١٤ — ٢١ ، ٢٧ — ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ — ٣٦ ، ٤١ — ٤٢ .
٢) انظر ماسبق في الفصل الثالث ص ١٢١ — ١٣٢ .
٣) Thiriet, La romanie. pj. 76., Vasiliev, Histoire de L'empire Byzantin 2, p.114.,
Tout, The empire and the papacy, p. 349.,
Ostrogorsky, History of the Byzantin state, p. 376.
ديل ، البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٤٣ .

١) ابيروس، اكارنانيا Acarnanie، وايتوليا Etolie بمدن دورازو وارتا ... الخ.

٢) الجزر الايونية، ومن بينها كورفو، وكيفالونيا Cephalonie وزانت Zante وكانت محددة بصفة خاصة.

٣) البيلوبونيز التي أشير اليها في الاتفاق بمدن بتراس وأوستروفا Ostrova وجيرون وغيرها.

٤) جزر بحر ايجة الارخبيل، ومن بينها ناكسوس Naxos واندروس Andros وايبيا نيجربونت Négrebont).

٥) سلسلة من المدن الواقعة على طول الشاطئ الأوربي لمضيق الدردنيل وبحر مرمرة، ومن أهمها غاليبولي ورودستو وهراقليا.(١)

٦) بعض المدن في داخل تراقيا، ومن أكثرها أهمية أدريانوبل بالاضافة الى ذلك جزيرة كريت التي حصل عليها البنادقة من المركيز مونتفرات.(٢)

وهكذا حصلت البندقية على شهرة ومجد وسكان وأرض، وأعطت مجالا لتجارتها، ووسعت رقعة أملاكها الاقطاعية، ونصب علم الجمهورية على كل مدينة وميناء يقع على الطريق البحري الطويل من البندقية الى القسطنطينية. وحققت البندقية بذلك هدفا من أهدافها وهو السيطرة على الطرق التجارية المؤدية الى القسطنطينية، وضمنت لنفسها السيادة المؤكدة على البحار الشرقية بتحكمها في بحر ايجه ومرمرة والادرياتيك، هذا فضلا عن أنها نجحت في أن تطرد خصومها الجنوية والبيازنة من أقاليم الامبراطورية البيزنطية، كما أن توزيع الاقاليم في

---

١) Heyd, Histoire du commerce, I, p.270, Thiriet, la romanie, pp.76-77., Thiriet, Histoire de Venise, p. 44., Miller, The Latins in Levant, p.29.

٢) حصل بونيفاس على جزيرة كريت من الامبراطور البيزنطي الرابع انجيلوس، غير أنه لم يكن لديه وسيلة يمكن بواسطتها احتلال الجزيرة، ومن ثم فكر بونيفاس في وقت ما أن يتنازل عنها للجنوية، غير أن البنادقة عرضوا عليه مبلغا أكبر لقاء حصولهم على كريت، وتم لهم ما أرادوا اذ تنازل بونيفاس في ١٢ أغسطس ١٢٠٤م عن كل حقوقه على الجزيرة مقابل الف مارك من الفضة. لمزيد من التفاصيل انظر:
Thiriet, La romanie, pp. 75-76., Heyd, op. cit., I, p. 276., Miller, The Latins, p. 29., Miller, Essays on The Latin Orient, p. 177., Lebeau, Histoire du Bas empire, 17, pp.183-84.

تراقيا ، وضع بطريقة تساعدها على الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية أو عن عاصمتها على الأقل . (١)

وفوق ذلك أصبح دوج البندقية اذ ولو يتمتع بلقب Despot وبالتالي أصبح له الحق في ارتداء الأحذية الارجوانية مثل الامبراطور نفسه ، واعفى الدوج كذلك من القيام بمراسيم الطاعة للامبراطور الجديد ، بل وبدا أقوى الشخصيات في الامبراطورية اللاتينية . (٢)

يتضح مما سبق أن البندقية كانت المستفيد الوحيد من اتفاق التقسيم (اكتوبر ١٢٠٤م) ليس لما حصلت عليه من أراض وممتلكات سمحت لها بالسيطرة على العديد من البحار ، وضمان حركة المرور والنقل التجارى فحسب ، بل وأصبحت مدينة القسطنطينية هي البندقية الثانية . (٣)

وأدرك البنادقة انهم اذا أرادوا حقا احتلال كل الأراضي التي حصلوا عليها - وفق اتفاق التقسيم - فانه لابد من تجنيد جهد كبير ، تتكبده الجمهورية لسنوات طوال ، وأن تتشر فوق هذا الجهد في نقاط مختلفة مع بذل النفقات الطائلة التي قد لا تتناسب مع القيمة الحقيقية لهذه الممتلكات ونوع القاعدة البحرية التي تجنيها البندقية من ورائها . وعلى هذا فقد تخير البنادقة - مدفوعين بروح عمليتواضحة - بعض هذه الممتلكات ، ولم يحتفظوا منها الا بما بدا لهم نافعا أو ضروريا . (٤)

ففي ابيروس ، قنع البنادقة بالاحتفاظ بدوقية دورازو على الشاطئ الشمالي الشرقي للادرياتيك وتنازلوا عن بقية الحقوق التي اكتسبتها البندقية - وفقا لاتفاق التقسيم - في بقية ابيروس ، وكارنانيا وإيتوليا لميخائيل انجيلوس أمير ابيروس (١٢٠٤-١٢١٥م) على أن يسمح للبنادقة بحرية التجارة في أراضيه . (٥)

---

١) Hazlitt, The VenetionRepublic, I, p. 318., Thiriet, La romanie, p. 78., note. 4.

٢) انظر ما سبق الفصل الأول ص ٤٢

٣) Thiriet , Histoire de Venise, p. 45.

٤) Heyd, op. cit., I, p. 270.

٥) لمزيد من التفاصيل عن الصراع بين البندقية وميخائيل انظر : الفصل الثاني ص

وفي المورة فأسس كل من جوفري فيلهاردوان Geoffroy Villehardouin ووليم شامبليت William Champlitte امارة آخايا Achaia (المورة) غاريين عرش العاطل بحقوق الجمهورية هناك . لهذا احتل البنادقة في عام ١٢٠٦م ميناءي مودون Modon وكورون Coron في جنوب المورة ، وهما تقطتان صالحتان لمراقبة تجارة الشرق ، ومأويان صحيحان لسفن البندقية (١) .

ومع ذلك تنازل البنادقة عن ممارسة سيطرتهم المباشرة على بقية المورة (البيلوبونيز) لجوفري فيلهاردوان وقبلوا كتمان لحقوقهم على البلاد الوحيد الذي تعهد جوفري على نفسه بأن يعترف بدوق البندقية كسيد على امارته ، مع اعفاء البنادقة من الرسوم الجمركية في أراضيه ، ومنحهم كنيسة وسوق صغير ومحكمة خاصة في كل مكان ولهم أن يتاجروا بحرية في الامارة . (٢)

وأصابت البندقية نجاحا باهرا في بحر ايجه فقد ادركت حكومة البندقية بدهائها التجاري المعهود ان فتح مجموعة الجزر الكثيرة التي حصلت عليها في هذا البحر سوف تشكل عبئا ثقيلا على موارد البندقية ، ولهذا قررت البندقية أن تترك مهمة احتلال هذه الجزر الى مواطنيها وغيرهم ممن يرغبون في تأسيس مستوطنات بندقية في بحر ايجه . وفي حوالي منتصف عام ١٢٠٥م ، اصدر الدوق بيترو زياني Pietro Ziani مرسوما ينص على أن كل مواطن من أي دولة حليفة يستطيع أن يخرج لفتح أي جزيرة من جزائر بحر ايجه أو الاقاليم المجاورة لها ، والتي كانت تنتمي سابقا إلى الامبراطورية البيزنطية ، يستطيع بعد ذلك أن يحوز ما يلقيه منها كملك خاص لـه ، وأن ينقل ملكه الى ورثته مادام لم ينقل الملكية الى غير بندقي ابدا . (٣)

---

١) ديل ، المرجع السابق ، ص ٤٥

٢) Longnon, L'empire Latin de Constantinople, p. 90
Miller, The Latins, p. 39.
Bon, La Morée Franque, p.66., Heyd, op. cit., I, pp. 271-72., Miller, The Latins, pp.59-60., Thiriet, La romanie, pp. 86-87., Longnon, op. cit. p. 112.

٣) Wolff, " A new document from, The period of the Latin empire, dans Mélanges H. Grégoire (1953), p.550.

ونجح بالفعل مواطن بندقي ثري — أقام في القسطنطينية — وهو ماركـــو سانودو Marco Sanudo ابن أخ الدوق داندولو في إخضاع سبع عشرة جزيرة من جزر بحر ايجه دون أن يواجه مقاومة حقيقية ، اللهم الا في جزيـــرة واحدة وهي جزيرة ناكسوس "لؤلؤة بحر ايجه" كما يسميها ميللر Miller(١). وارتبط ماركو سانودو بالامبراطور اللاتيني هنري فلاندر Henri Flandre (١٢٠٦ —١٢١٦م) مباشرة ، وحصل على لقب "دوق الارخبيل".(٢) وهكذا بسيطـرة البندقية على معظم جزر بحر ايجه بما فيها جزر الارخبيل ، أصبح الطريق مأمونا الـــى القسطنطينية ، وأدركت البندقية أنها تستطيع الاعتماد على مواطنيها رغم استقلالهـم ، وأن تباشر نفوذها عن طريقهم .(٣)

وكانت معاهدة التقسيم قد خصصت للبندقية مركزين في جزيرة ايوبيا (نيجربونت) غير أن البندقية سمحت لثلاثة من رفقاء بونيفاس مونتفرات — ملك سالونيك — بالاقامة في هذه الجزيرة وهم : فيرونايس بيكوراريو Veronais Pecorario ، وجيبرتو فيرونا Giberto Verona ، ورافانو دال كاركيري Raveno dalle Carceri (٤). وتعهد هؤلاء بأن يكونوا اتباعا مخلصين لدوج البندقية ، وأن يدفعوا للبندقية ٢١٠٠ هيبربرة ذهبية (٥) سنويا ، وثمنا مطـــرزا

---

١) Miller, The Latins in Levant, pp.43-44.

٢) Longnon, op. cit., p. 91 .; Hazlitt, op. cit., I, pp. 323-24., Miller, The Latins, pp.44-45.

٣) ديهل : البندقية ص ٤٦ .

٤) Longnon, op. cit., p. 91.
Thiriet, La romanie , p. 87.

٥) الهيبربرة Hyperpere : عملة ذهبية بيزنطية ، كانت قيمتها تساوى وقت سقوط القسطنطينية في ايدي اللاتين عام ١٢٠٤م من ١٢—١٣ فرنك ، وهي المعروفة باسم البيزنت ، وقال عنها الرحالة ابن بطوطة عند مروره بالقسطنطينية في القرن ١٤م : "ذهب البلد الذي يسمونه البربرة ليس بالطيب" انظر : ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ، ص ٩٩ .

Bratianu.G., "L'hyperpere byzantin, et la monnaie d'Or des republiques Italiennes au XIII siécle", dans Mélanges. ch. Diehl(1930) p. 41.

للدوق وآخر الى مذبح القديس مرقص مع اعفاء البنادقة من كافة الرسوم والضرائب في كافة أنحاء الجزيرة . وفي عام ١٢١٢م أعلنت البندقية حمايتها على الجزيرة وعينت بيترو باربو Pietro Barbo مندوبا : بندقيا . كممثل لها في الجزيرة . وكحاكم من قبلها على المستوطنات البندقية في أيوبيا : . ومن ثم أصبحت سيادة البندقية على هذه الجزيرة سيادة فعالة . (١)

وكان على البندقية أن تحتل أكبر الجزر اليونانية وهي جزيرة كريت . التي اشتراها البنادقة من بونيفاس مونتفرات . والتي كانت لاتزال في أيدي البيزنطيين . ولكن قبل أن يتمكن البنادقة من ضم جزيرة كريت الى حوزتهم قام مواطن جنوي يدعى انريكو بسكاتور Enrico Pescator كونت مالطة بتثبيت أقدامه في جزيرة كريت منذ عام ١٢٠٦م . بايعاز من جنوه وتشجيعها — على أن البندقية ما لبثت أن أرسلت الى الجزيرة قوة كبيرة نجحت في اخراج المغامر الجنوي من الجزيرة . وفي تحطيم مقاومة المتمردين من سكان البلاد الأصليين . وعينت جياكومو تيبولو Gia Como Tiepolo كممثل للبندقية في جزيرة كريت . (٢)

وترجع أهمية جزيرة كريت الى أنها محطة للسفن التجارية البندقية المتجهة نحو القسطنطينية . ومركز من المراكز الهامة التي تعتمد عليها السيادة البندقية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . ولعل هذا ما يفسر لنا استماتة البنادقة في الحصول على تلك الجزيرة على الرغم من مقاومة أهلها الشرسة . ومساندة جنوة — أكبر منافس للبندقية — لهم .

يتضح مما سبق مدى اهتمام البندقية بالبيلوبونيز حيث كان آل فيلهاردوان الحامي الأكبر لتجارة الحرير . وكذلك اهتمامها بجزر بحر ايجه التي تمدها بالعسل وشمع العسل . فضلا عن اهتمام البندقية بجزيرة ايوبيا أو نيجروبونت التي جلب منها البنادقة الحبوب والنبيذ . وجزيرة كريت حيث انتاج القمح والنبيذ .

---

١) انظر : عادل سليمان زيتون : النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . رسالة دكتوراه غير منشورة . القاهرة ١٩٧٨ ص ٣١٦ .
Miller, The Latins, p. 77., Thiriet, La romanie, pp. 93-95.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر :
Miller, The Essays on the Latin Orient, pp.178-79
Thiriet, La romanie , pp.87-88., 95., Miller, The Latins, p. 48.

باحتلال البندقية لهذه الجزر أكدت سيطرتها الاقتصادية التامة على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ومع ذلك فقد ظلت القسطنطينية في نظر البنادقة هي مركز التجارة البندقية الرئيسي في الامبراطورية .

تأسست مستوطنة البندقية في القسطنطينية بموجب المرسوم الذي أصدره الامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١—١١١٨م) عام ١٠٨٢ ، وقد نص على التنازل للبنادقة عن حي في القسطنطينية على طول الشاطئ الجنوبي للقرن الذهبي (١)

وسرعان ما تدفق التجار البنادقة على هذا الحي ، وأصبح لهم فيه حوانيت وبيوت وأرصفة للتفريغ بل وكنائس أيضا ، هذا فضلا عن المخبز وفرن وحمام . أي أن هذا الحي أصبح مدينة قائمة بنفسها ، وسرعان ما أخذ نموها يطرد خلال القرن الثاني عشر . (٢)

على أنه من الملاحظ أن عمليات الاعتقال والمصادرة التي تعرض لها البنادقة في عامي ١١٧١ و ١١٨٢ م في القسطنطينية وضعف العلاقات التجارية بين بيزنطه والبندقية في أواخر القرن الثاني عشر ، أدت الى ضعف المستوطنة البندقية في القسطنطينية ، وظلت على ما هي عليه حتى سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين عام ١٢٠٤م . (٣)

ومع بداية الحكم اللاتيني في القسطنطينية ، اتسعت حدود المستوطنة البندقية اتساعا مذهلا ، وأصبح للحي القديم ملحقات ومتلكات جديدة وجديدة في عمق القرن الذهبي وحتى قصر البلاشيران في القسطنطينية . وذلك لأن العاصمة البيزنطية قسمت وفق اتفاق التقسيم بين البنادقة والامبراطور . ويذكر هايد Heyd أن مكاسب البنادقة الجديدة لم تكن بعيدة عن ممتلكاتهم القديمة لأن واحدا من قنوات المياه التي تروي العاصمة ، كانت تمر من الحي القديم الى الحي الجديد . (٤)

---

(١) Brown, " The Venetian Quarter in Constantinople", in Journal of Hellenic Studies Vol. XL (1920), p. 71.

(٢) ديل ، المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) عادل زيتون ، النشاط التجاري ، ص ١١٧ .

(٤) Heyd, op. cit., I, p. 285., Brown, The Venetian Quarterin Constantinople, p. 79.

وزاد من سعة الحي البندقي في القسطنطينية حصول عليه البنادقة من كنائس وأديرة ، فامتلكوا الى جانب كنيسة سان مارك St.Marc وسانت ماريا Maria وسانت نيكولاس St. Nicolas كنيسة البانتوكراتور Pantocrator ودير ماريا بيريبليبت Maria Periblepté . وليس أدل على مابلغه هـذا الحي من سعة ماقام به البودستا جاك تيبولو Jacques Tiepolo حوالي عام ١٢٢٠ من بناء فندق عظيم . (١)

ونظرا لاتساع الحي البندقي في القسطنطينية بهذه الصورة بعد عام ١٢٠٤م، ولإبعاد ممتلكات البندقية عن ممتلكات جيرانها ، وجعلها في مأمن من أي هجوم ، أغلق مارينو تسينو Marino Zeno — أول بودستا (٢) بندقي بعد الفتح اللاتيني للقسطنطينية . هذا الحي بحائط كبير ، وعزله بذلك عن المستوطنات الايطاليـة الأخرى وجعله "كمدينة داخل مدينة" (٣)

ولا نعرف الكثير عن حكم المستوطنة البندقية قبل عام ١٢٠٤م ، ولكن من المعتقد بصفة عامة ، أنها كانت تدار عن طريق السفراء الوافدين من البندقية الى البـلاط البيزنطي ، أو عن طريق القناصل أو نواب القناصل الذين يرسلهم الدوق أحيانـا ، وربما كان قادة الأسطول البندقي يزودون أحيانا بالسلطة ويخولون للقيام بالعمـل السياسي . (٤)

على أن مسألة ادارة مستوطنة البندقية قد تمت معالجتها بشكل حاسم بعـد

---

(١) Janin, " Les sanctuaires de Byzance" dans Études Byzantines, T.2 (1944) pp. 174-79., Brown, The Venetian, pp. 79-80., Heyd, op. cit., I, p. 286.

ديل ، البندقية ، ص ٤٧ .

(٢) البودستا Podestà من اللاتينية Potestas بمعنى سلطة أو قوة ، وهو لقب كان يمنح في أواخر العصور الوسطى لموظف كبير في كثير من المدن الايطالية فقد كانت هذه المدن ترسل موظفين يحملون هذا اللقب لادارة شئون المدن التابعة لها ، ومن أمثلة ذلك (البودستا) الذي كان يشرف على رعايا جمهورية البندقية في الشرق البيزنطي ، انظر ديل ، البندقية ، ص ٤٧ حاشية (١) .

(٣) Grousset, L' empire du Levant, p. 467., Heyd, op.cit., I, p. 286.

(٤) Brown, The Venetian, p. 8., Wolff, A new document, p. 540.

احتلال اللاتين للقسطنطينية تبعد وفاة داندولو في مايو ١٢٠٥ م ، اجتمع البنادقة في القسطنطينية — دون انتظار لكلمة من المدينة الأم — وانتخبوا مارينو زينو Marino كرئيس جديد لهم ، ولبث أن اتخذ اللقب الجديد وهو البودستا Podestà وأصبح يتمتع بامتياز ارتداء الأحذية القرمزية الحمراء ، كما يفعل الامبراطور . (١)

ويعاون البودستا في ادارة المستوطنة مجلس خاص يعمل باسمه ، ويتكون هـــذا المجلس من ستة أعضاء وخمسة قضاة للأعمال القضائية ، ومن عضوين للشئون الماليـــة ويعمل تحت رئاسته الموظفون الذين تعينهم البندقية على ممتلكاتها في الشـــرق البيزنطي ، كأصحاب قلاع كورون ومودون جنوة المورة ، ووكيل نيجربونت ودوق كريت وغيرهم . (٢)

ولم يتول البودستا البندقي في القسطنطينية ادارة المستوطنة البندقية ، والاشراف على شئونها السياسية والتجارية والقضائية فحسب ، بل كان حاكما على جميع ممتلكـــات البندقية في الامبراطورية اللاتينية ، أي أنه كان أشبه بقنصل عام له اختصاصات واسعـــة ومن ثم كان يقف على قدم المساواة مع البارونات اللاتين ، والامراء البيزنطيين . (٣)

ولما كانت البندقية المؤسس الحقيقي للامبراطورية اللاتينية ، وكانت اساطيلهـــا هي أعظم ضمان لحماية هذه الامبراطورية ، فقد كان البودستا البندقي بالتالي هو حامـــي الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . وفي الحقيقة كان البودستا هو الشخصية الثانيـــة بعد الامبراطور في الامبراطورية اللاتينية ، وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور اللاتيني كان يستشير البودستا في كثير من أمور الامبراطورية ، وكثيرا ما أخذ الامبراطـــور بمشورته . وما أن أخذ سلطان آل كورتنا Courtenays في الضعف والانحـــلال حتى اكتسب البودستا حق عقد المعاهدات مع الأمراء الأجانب ، تلك المعاهدات

(١ Wolff, A New document , p. 545, Thiriet, La romanie, p. 79.

(٢ Hazlitt, op. cit., Vol. I, p.337., Heyd, op. cit., I, pp. 287-88.

ديل ، البندقية ص ٤٧—٤٨ .

(٣ Grousset, op. cit., pp. 467-68.

التي لها أثرها على مصالح الجمهورية التجارية والسياسية ، وكان يفصل ذلك باسم دوق البندقية. والحق أن الوسيط البندقي كان سيد القسطنطينية الفعلي في الربع الأول من القرن ١٣م .(١)

وسرعان ما أصبحت مستوطنة البندقية في القسطنطينية تأنس في نفسها القوة والأهمية الى درجة جعلت زعماءها مستعدين لتحمل المسئوليات الثقيلة على عاتقهم وأنفسهم . ولعل في هذا مدعاة لأن يخشى المسئولون البنادقة في البندقية ذاتها من أن يستقل اخوانهم فيما وراء البحار ، وينفردوا بالعمل ، ولذا عملوا على تقييدهم وإعادتهم الى سابق مركزهم من التبعية للمدينة الأم. ومن ذلك ما وضعه الدوق بيترو زياني Pietro Ziani خليفة داندولو ، الذي انتخب في أغسطس عام ١٢٠٥م ، من ضرورة أن يقوم دوق البندقية نفسه باختيار الوسيط ، وعلى الوسيط أن يقسم يمين الطاعة والولاء للدوق باعتباره وكيله الخاص الأمين .(٢)

ولكن من الضروري أن نشير الى أنه اذا كانت البندقية قد حرصت كل الحرص على أن تؤكد سيادتها وتفوقها على مستوطنتها في القسطنطينية ، الا أنها اظهرت في نفس الوقت مدى حرصها على مصالح الامبراطورية اللاتينية ، وقد وضعت مصالح الأخيرة على نفس المستوى الذي وضعت فيه مصلحة دوق البندقية . وهناك وثيقة تنطق بذلك وتؤكده ، أشار فيها الوسيط البندقي الى ذلك بقوله : " سأعمل لخير البندقية ولكرامتها بأمانة ، ومن غير أن أمس مصالح الامبراطورية اللاتينية وفي موضع آخر من الوثيقة " مع الحفاظ على سلامة الامبراطورية اكراما للسيد الدوق وللبندقية ".(٣)

نظم الاتفاق الرسمي الذي عقد في أكتوبر ١٢٠٥م بين الوسيط البندقي مارينو زينو Marino Zeno ونائب الامبراطور اللاتيني هنري فلاندرز — العلاقة بين البندقية والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ودار هذا الاتفاق حول القضايا العسكرية .

---

١) Hazlitt, op. cit., I, p. 337.

٢) Wolff, A new document, p.546., Setton.History of the crusades, 2, pp. 193-94.

٣) Wolff, A new document, p. 552.

وبمقتضاه أصبح الإمبراطور هو القائد الأعلى ، ويساعده مجلس مكون من البودستا ومن مستشاريه من ناحية ، ومن كبار البارونات الفرنسيين من ناحية أخرى ، وعلى جميع فرسان الإمبراطورية سواء كانوا من البنادقة أم من الفرنسيين أن يؤدوا الخدمة العسكرية لمدة أربعة شهور من أول يونيه حتى ٢٩ سبتمبر في حالة إذا ما قرر المجلس القيام بحملة ، أما في حالة إذا ما تعرضت الإمبراطورية لهجوم خارجي فعلى كافة الفرسان القادرين الخدمة الفعلية ، حسب المدة التي تتطلبها الحرب والتي يقررها المجلس المشترك والمؤلف من الجهات المذكورة أعلاه.(١)

وعلى الإمبراطور أن يتبع نصيحة المجلس السابق الذكر مادام قد تسلم زمام الإمبراطورية ، وليس عليه أن يعاقب أي فرد لانتهاكه هذه القواعد العسكرية ، بل على الفرنسيين والبنادقة أن يعينوا قضاة — يجب أن يرضى عنهم الإمبراطور — للبت في مثل هذه الأمور . وأخيرا أصبح البنادقة أحرارا في الذهاب والإياب داخل الإمبراطورية ولا يسمح بذلك لأعدائهم .(٢)

وتم توقيع الاتفاق في قصر بلاشيران بالقسطنطينية في حضور ستة من أعيان البنادقة وكذا موظفي البلاط اللاتيني ، ووقعوا عليه بالحبر الأحمر ، ووقع عليه نائب الإمبراطور والبودستا البندقي بالحروف اليونانية . (٣)

وكان على البودستا البندقي — فيما بعد — عند تتويج أي إمبراطور لاتيني جديد — أن يقسم اليمين بأن يحافظ على شروط المعاهدات الثلاث الأساسية وهي معاهدة مارس ١٢٠٤م ، واتفاقية التقسيم أكتوبر ١٢٠٤م ، والاتفاق الجديد الموقع في أكتوبر ١٢٠٥م ، وكان على هنري نفسه — الذي أقسم هذا كان وصيا — أن يراعي امتيازات البنادقة وأن يؤدي القسم مرة ثانية قبل تتويجه في ٢٠ أغسطس عام ١٢٠٦م بأن يحافظ على نصوص هذه الوثائق الثلاث . وقد سجل البودستا البندقي ماربنو زينو قسمه هذا . وهكذا نظم جميع

---

(1) Longnon, L'Empire Latine de Constantinople, P.83.
Cam. Med. Hist, Vol. 4, P. 422.
(2) Setton, History of The crusades, Vol. 2, P. 194.
(3) Longnon, L'Empire, P. 84.

أعمال زينو مدى استقلاله الواسع النطاق فى قيادته وسيره ، وتظهر أيضا مدى السلطة الحقيقية التى كانت للبنادقة فى القسطنطينية . (١)

واذا كان اتفاق أكتوبر ١٢٠٥ م قد نظم المسائل العسكرية بين المستوطنة البندقية فى القسطنطينية وبين الأباطرة اللاتين ، فان هناك اتفاق آخر نظم المسائل المالية التى قد تثار بين البنادقة والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ومن أهم فقراته : أن أى فرد من أى من الجانبين يمكنه المطالبة بحقوقه من أى فرد آخر من الجانب الثانى ، وذلك بتقديم شاهد يحت بصلته الى جنسية صاحب الدين ، ويقسم الشخص الذى يحمل نفس جنسيته أن من حقه المال الذى لدى الطرف الآخر أن المدين ، أى شاهد بندقى مقابل بندقى مدين ، وفرنسى مقابل فرنسى . ويعلق سيتون Setton على ذلك بقوله : " وقدم هذا دليلا لأول مرة ، بأن الحق يجب أن يعود الى صاحبه ". (٢)

على أنه اذا كان الوجود البندقى قد لعب دورا هاما أثناء الحكم اللاتينى للقسطنطينية ، حتى أنه تطرق الى التعامل مع البطاركة والكرادلة ومندوبى البابوات الا أن هذا الدور أخذ فى الانكماش ، كما أخذت المستوطنة فى التضاؤل بعد استرداد البيزنطيين عاصمتهم فى ١٢٦١م ، ويرجع ذلك الى تقلص النفوذ السياسى والتجارى للبنادقة فى الامبراطورية البيزنطية . (٣)

تبنت البندقية عملية الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية عن ذلك لأن سقوط تلك الامبراطورية كان يعنى كارثة كبرى للبندقية ومصالحها التجارية لا فى بيزنطة فحسب وانما فى الشرق كله ، فقد ارتبط بوجود الامبراطورية اللاتينية ومصيرها بوجود البنادقة وتفوقهم التجارى فى الشرق . لهذا اجتهدت البندقية فى الحفاظ على تلك الامبراطورية ، واستلزم ذلك منها مشاركة واضحة فى الدفاع عن القسطنطينية

---

١) . Setton, op. cit., 2, p. 195., Thiriet, La romenie, p.80.

٢) Setton, op. cit., p. 195.

٣) عن علاقة البندقية بالبابوية انظر الفصل الثالث ص ١٣٥

فاللاتين بما فيهم البنادقة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يضمنوا ذلك . على أن هذه المشاركة من جانب جمهورية البندقية فى الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية لم تكن دون مخاطر ، وأكبر هذه المخاطر كانت حالة الحرب الدائمة مع امبراطورية نيقيــــة وامارة أبيروس ، فقد قامت سياستهما أساسا على اضعاف اللاتين فى القسطنطينيـــة بل وتقويض حكمهم واسترداد القسطنطينية . هذا فى الوقت الذى تمنت فيه البندقيـــة أن تحتفظ مع هؤلاء الحكام البيزنطيين بالعلاقات الودية المفيدة للتجارة البندقية .(١)

وأبرز مثال على ذلك ، عندما ساد الهدوء ووقعت الهدنة بين الامبراطوريـــة اللاتينية فى القسطنطينية وبين تيودور لاسكاريس Theodore Lascariq امبراطور نيقيه لمدة عامين (١٢٠٧–١٢٠٩م) ، سارعت البندقية بواسطة البودستا البندقــى جياكومو تيبولو Giacomo Tiepolo الى توقيع معاهدة مع تيودور لاسكاريـــس لمدة خمس سنوات نصت على اعفاء التجار البنادقة من الرسوم الجمركية ، ووعد تيــودور بالا يرسل سفنا حربية أو قراصنة ضد القسطنطينية دون موافقة البندقية .(٢)

ومع ذلك لم تتردد البندقية فى مواجهة خطر امبراطورية نيقيه وامـــــارة ابيروس على الامبراطورية اللاتينية ، ففى الحفاظ على القسطنطينية وحمايتها مزايا أكثر أهمية من جميع الاتفاقيات التى عقدتها البندقية مع البيزنطيين ، ومن بين هذه المزايا احتكار تجارة الامبراطورية اللاتينية فى البحر الأسود ، فضلا عن المركز الفريد الذى يتمتع به رجال الدين البنادقة فى الامبراطورية ، مع احتفاظ بطريرك جراد و البندقـــى بجميع حقوقه على الكنائس البندقية فى القسطنطينية .(٣)

تصدت البندقية لمحاولات أباطرة نيقيه القضاء على الامبراطورية اللاتينية فـــى القسطنطينية ، وخاصة الامبراطور النيقى حنا فاتاتزيس Jean Vatatzes (١٢٢٢–١٢٥٤م) الذى كان يرغب فى اعادة فتح القسطنطينية وقام بهجوم ناجح

---

١) Thiriet , La romanie, p. 90 .

٢) من اختلاف آراء المؤرخين حول ما اذا كانت نصوص هذه المعاهدة قد نفذت أم لم تنفذ ، انظر : عادل زيتون ، النشاط التجارى للمدن الايطالية ، دكتوراه ١٩٧٨ ، ص ٧٠–٧١ .

٣) انظر ما سبق فى الفصل الثالث ص ١٢٤

في تراقيا وفي القسطنطينية والمثل في كريت . اصطدام فاتاتزيس بالبنادقة في كل مكان ، فقد ساهمت المساعدات البحرية البندقية أكثر من مرة في انقاذ القسطنطينية ، ففي عام ١٢٣١م دخل حنا برين Jean Brienne القرن الذهبي تحت حراسة ١٤ من الشواني التابعة للبندقية ، وهذا بمقتضى معاهدة ٢ ابريل ١٢٣١م ، التي منحت فيها البندقية للامبراطور اللاتيني وسائل النقل الضرورية لجيوشه . (١)

وساهمت البندقية عام ١٢٣٤–١٢٣٥م مساهمة جادة في الدفاع عن القسطنطينية ، فقد أرسلت الجمهورية أسطولا مكونا من ٢٥ سفينة لانقاذ القسطنطينية من الهجوم المشترك الذي شنه عليها كل من امبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس والقيصر البلغاري حنا آسن في هذا العام . ونجح الأسطول البندقي في اغراق عدد كبير من سفن الأسطول البيزنطي ، كما أسر ٢٤ سفينة أخرى ، وعددا مماثلا من السفن كانت تلقي مراسيها في كريسو سيراس Chryso-Ceras (٢)

ودخل قادة الأسطول البندقي – بعد أن أحرزوا هذا النجاح الكبير – القسطنطينية دخول الظافرين ، حيث قابلهم البودستا والامبراطور اللاتيني بحرارة ، ولدى عودتهم الى البندقية ، استقبلهم الدوق بنفسه بحفاوة بالغة وهنأهم على عملهم الباهر بعبارات متملقة للغاية ، وشكرهم باسم الجمهورية . (٣)

وفي عام ١٢٣٦م ، استأنف الامبراطور فاتاتزيس الهجوم على القسطنطينية مع حليفه قيصر بلغاريا الذي أعد خمسا وعشرين سفينة ، وأنزل هذه السفن في أحد موانئ البحر الاسود ، ومن ثم كان الهجوم هذه المرة بحريا فقط . ولعب البودستا البندقي دورا حاسما في صد هذا الهجوم ، فقد اتجه الى كريسوسيراس على رأس خمس عشرة سفينة بندقية ، ونجح في أن يلحق الهزيمة بامبراطور نيقيه والقيصر البلغاري واضطر فاتاتزيس الى الارتداد الى لامبساكوس Lampsacus على الدردنيل . (٤)

---

١) Thiriet, La romanie , p. 96., Bréhier, "Jean Brienne", in dict. d'histoire et Geographie, T.X., p. 706.

٢) Haslitt, op. cit., I, p. 309.

٣) Ibid.

٤) انظر ما سبق في الفصل الثاني ص ٨٣ – ٨٤ .

طبقت البندقية سياسة أخرى حتى تستطيع مواجهة أباطرة نيقيه ، وهى سياسة التقارب مع أهل البلاد الاصليين ، وصاحب هذه السياسة هو الدوق البندقى جياكو تيبولو (١٢٢٩-١٢٤٩م) ، الذى فكر فى التقرب من البيزنطيين ، فعقد فى عام ١٢٣٤م اتفاقا مع ليو جابالاس LeonGabalas سيد رودس ، وسهل هذا الاتفاق على البندقية اعادة فتح كريت ، كما ساهم فى تأخير الهجوم البيزنطى على القسطنطينية وذلك باحتجاز جزء من جيوش حملة فاتاتزيس امبراطور نيقيه فى جنوب بحر ايجه ، غير أن هذه المساعدة كانت قصيرة الأجل ، اذ سرعان ما عاد ليون جابالاس الى طاعة امبراطور نيقيه . (١)

وحاول الدوق تيبولو أيضا أن ينتهج سياسة التحالف مع أهل كريت ، وتوصل وكلاء الدوق ودوقات كريت الى أن يضموا اليهم أعضاء من الأسرة الميليسنية Melisséne التى تحكم فى كريت - وتعهد هؤلاء بأن يقدموا مساعدتهم فى مواجهة الجيوش البيزنطية لقاء أن تترك لهم البندقية جزءا كبيرا من الأرض . (٢) وهكذا استطاعت البندقية عسكريا ودبلوماسيا أن تحمى القسطنطينية من هجمات البيزنطيين فى نيقيه .

وفكر بعض دوجات البندقية فى أن الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية سيكون أفضل وأضمن بنقل مركز الجمهورية الى القسطنطينية (١٢٢٤م) ، ويؤكد Thiriet أن الذى ذكر تفاصيل هذا الموضوع هو دانيل باربارو Daniel Barbaro المؤرخ الرسمى للجمهورية خلال ١٥١٢-١٥١٥م - والذى ذكر أن الدوق بيترو زيانى Pietro Ziani (١٢٠٥-١٢٢٩م) ساند وأيد هذه الفكرة بحرارة . ولكن لم يؤخذ برواية باربارو نظرا لكونه مؤرخا متأخرا . (٣)

ويبدو أن الدوق زيانى ، ط أثناء حكم روبرت الكورتناى Robert Courtenay (١٢٢١-١٢٢٨م) ذوى الشأن فى البندقية الى القصر ، للنظر فى مسألة نقل

---

(١) Thiriet, La romanie, p. 99.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid, pp.92-93.

مقر الجمهورية الى القسطنطينية ولكن المجتمعين قابلوا هذا القول بدهشة بالغة.(١)

وأوضح زيانى — تأييدا لآرائه — عدم التناسب الكبير القائم بين الوطن الأم أى البندقية ومستعمراتها الجديدة واستشهد بالثورات المتكررة فى كريت وعصيان أهلها للبنادقة ، ولفت نظرهم الى ضعف الأسرة اللاتينية الحاكمة فى القسطنطينية ، والتى أخذت تدب فيها بذور الضعف والانحلال ، ثم أبرز الدوق قيمة المستعمرات التى تمتلكها الجمهورية فى الشرق ، وأخذ يعدد مزايا مدينة القسطنطينية ، حيث تتوفر ضروريات الحياة ، وحيث يمكنهم العيش فى أمن تام ، ومنها يتيسر عليهم الاتصال بالمستعمرات الأخرى والقضاء على الثورات التى تقوم فيها ، كما أنه باحتلال الجمهورية للقسطنطينية سوف تصبح سيدة التجارة الأوربية والآسيوية .(٢)

على أنه اذا كانت هناك اتجاهات مختلفة فى الرأى حول هذا الموضوع ، الا أن مقام زيانى وشخصيته أضفت على آرائه الاحترام والاهتمام ، وكانت الحجج التى ساقها لها وزنها مهما كانت خداعة ، فقد بدأت نسبة كبيرة للمجلس المجتمع تميل الى الأخذ بالفكرة التى عرضها الدوق زيانى ودافع عنها ، غير أن انجيلو فاليرو Angelo Faliero وهو رئيس سابق فى الجمهورية ، قام يخطب فى الحاضرين ، وكان لخطبته جدواها ، اذ فند فيها تلك المزايا التى دعت الدوق زيانى الى أن يقترح نقل مركز الجمهورية الى القسطنطينية وذلك بقوله : "... ماهى قيمة هذه المزايا الحقيقية ، هل هى موقع ممتاز وتربة خصبة وتجارة واسعة ... اننا نشكو من جفاف تربتنا وكأن الماء الذى يحيط بنا لم يوفر لنا غذاء وافرا ، ومصدرا للعمل والثروة . انهم يتحدثون الينا عن السلامة والثراء . أليس هنا المكان الذى وجدتم فيه أمنكم وسلامتكم ، أليس هنا اكتسبتم تلك الثروات التى تجعلكم الآن تطمعون وتطمحون؟ ".(٣)

ومضى فاليرو يقول : "أمر من اثنين ، اما أن تذهبوا الى الشرق كغزاة وحينئذ ستكون مشروعاتكم السياسية مستجيبة لمجرى الأحداث ، واما أن تذهبوا الى الشرق بقصد

---

(١) Haslitt, op. cit., Vol. I:, p. 344.

(٢) Ibid., p. 345.

(٣) Ibid., pp. 347-48.

الاستيطان فى ساثر فى احدى جهات القسطنطينية . ولكن كيف تتصورون أن من الممكن أن تقوم هناك حكومتان مستقلتان جنبا الى جنب داخل نطاق مدينة واحدة ؟ أى أمان سيكون فى هذه الخطة ؟ . (١)

واثرت هذه الخطبة تأثيرها فى الحاضرين ، وكانت النتيجة أن رفض اقتراح الدوق زيانى وظلت فكرة نقل مركز البندقية الى البسفور فى الحسبان ، واستمر خلفاؤه دائما ولو يحكمون الامبراطورية وممتلكاتها فى الامبراطورية اللاتينية من البندقية ذاتها مستفيدين من النفوذ الذى فرضوه على الأباطرة اللاتين . (٢)

جنوة وبيزا والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية :

تناول الباحثون دور البندقية فى الحملة الصليبية الرابعة باستفاضة ، ومع ذلك فان القلة القليلة منهم ، تحدثت عن دور جنوة وبيزا فى هذه الحملة ، وما كسبته أو ما خسرته نتيجة لها . والحقيقة أن المؤرخين المعاصرين للحملة الرابعة وفى مقدمتهم روبرت كلارى Robert Clari وفيلهاردوان Villehardouin ، لم يشيروا الى ثمة دور قامت به جنوة أو بيزا فى احداث الحملة الصليبية الرابعة الا اشارات طفيفة . من ذلك ما يذكره كلارى : سافر الرسل الستة — الذين وقع عليهم الاختيار للسفر الى أى من المدن الايطالية لعقد اتفاق معها لنقل رجال الحملة على أسطولها — الى جنوة ، وأخذوا فى مفاوضة الجنوية ، وأفضوا اليهم بما جاءوا من أجله . فأجابهم الجنوية بعدم استطاعتهم تقديم المساعدة لهم . اذ ذاك مضى الرسل الى بيزا ، وحادثوا البيازنة ، ولكنهم اعتذروا بقلة ما لديهم من سفن". (٣)

أما فيلهاردوان فيذكر : أنه بعد أن تم توقيع المعاهدة مع البندقية بشأن نقل الصليبيين ، اتجه قسم من الرسل الذين وقعوا المعاهدة مع البندقية الى جمهوريتى جنوة وبيزا ، للبحث فى امكانية الحصول على مساعدة من هاتين الجمهوريتين للحملة الصليبية ، وللأراضى المقدسة فيما وراء البحار . (٤) وهذا يعنى أنهما لم تشتركا فى الاعداد لهذه الحملة .

---

١) Hazlitt, op. cit., pp. 348-49.

٢) Heyd, op. cit., I, p. 287.

٣) روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ص ٤٠ .

٤) Villehardouin, La conquête de Constantinople, p. 21.

يستبعد كذلك أن يكون لجنوه وبيزا أى دور فى تحويل الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية وخاصة وأن امبراطور القسطنطينية فى ذلك الوقت وهو الكسيوس الثالث انجيلوس (١١٩٨—١٢٠٣م) حاول ضرب البندقية فى تجارتها بمضاعفة الامتيازات التجارية لمنافستيها جنوه وبيزا . فكيف والحالة هذه ستشترك كل من جنوة وبيزا فى تحويل الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية (١)

ولاشك أن كلا من الجمهوريتين قد وضعت فى ذهنها ، أن المركز المتميز الذى تحتله الآن فى العاصمة البيزنطية ، سوف يضعف اذا ما استولى عليها البنادقة لذلك ألقى البيازنة بكل ثقلهم مع البيزنطيين فى حربهم ضد الصليبيين والبنادقة ، ووقفوا الى جوار الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث ، وقدموا له المساعدة الفعالة النشطة فى الدفاع عن القسطنطينية أثناء الهجوم الأول عام ١٢٠٣م . (٢)

على أن الحرائق — التى اندلعت فى القسطنطينية فى أغسطس ١٢٠٣م ، والتى التهمت أحياء الجاليات الايطالية عامة وأسواقهم ومستودعاتهم — كانت نقطة تحول بالنسبة للمستوطنات الجنوية والبيزية فى القسطنطينية ، وموقفهم من الاحداث الجارية ، ذلك لأن البيزنطيين الذين هاجموا تلك الاحياء لم يفرقوا بين احياء البيازنة والجنوية ، الذين وقفوا الى جانبهم ، وساندوا قضيتهم ، وبين أحياء خصومهم البنادقة مما دفع سائر الجاليات الايطالية من البيازنة والجنوية والبنادقة القاطنين فى القسطنطينية الى ترك مستوطناتهم التى ألم بها الضرر من جراء الحرائق ، وتوجهوا نحو المعسكر الصليبى مع نسائهم وزوجاتهم وأطفالهم (٣) .

---

١) عن الامتيازات التى منحها الكسيوس الثالث لجنوه وبيزا انظر :
عادل زيتون ، العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطه ، ماجستير غير منشورة ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٤٠٣— ٤٠٨ .

٢) Belin , Histoire de la Latinité de Constantinople, pp. 49-50 .

٣) Villehardouin, op. cit., p. 119., Heyd, op. cit., I, p. 267

وكان من الطبيعي أن تدرك جمهوريتا جنوه وبيزا أن ما تتمتعا به من حقوق وامتيازات في القسطنطينية بعد قيام الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية — أصبح متوقفا على سياسة كل منهما تجاه البندقية . ولا شك أنه كان عليهما أن تواجها باعتدال حليفا أكثر قوة ، ومساند من سادة القسطنطينية الجدد ، وعليهما أيضا أن تقنعا بالمرتبة الثانية أو الثالثة . أما التفكير في محاربة البندقية وقتالها فسوف تكون نتيجته الطرد الكامل من السوق البيزنطي ، وخاصة بعد أن أصبحت البندقية بلا جدال القوة التجارية الأولى هناك .(١)

وتم البيازنة على عقد الصلح مع البندقية ، وسرعان ما تحول هذا الصلح الى اتحاد داخلي ، فعندما جمعت البندقية جيوشها بخطرة لانقاذ كريت ، المهددة بالخضوع تحت السيطرة الجنوية ، أمد البيازنة لهم يد العون والمساعدة وبصفة خاصة للدوج زياني . وفي ٢ يوليه ١٢٠٦م ، وقع الدوج زياني مع السفراء البيازنة اتفاق تحالف التزمت بمقتضاه كل من بيزا والبندقية باعداد وتجهيز أربعين سفينة ، واتفقتا على أن يلتقي أسطول كل منهما بالآخر في مسينيا Messine ، وأن يهاجما الجنوية في كل مكان من الممكن أن يتواجدوا فيه . وتم التصديق على هذا الاتفاق في بيزا في الخامس من أغسطس من نفس العام .(٢)

وتعهد البنادقة في المعاهدة الثانية التي عقدوها مع البيازنة ١٢١٤م — بمنع القراصنة من الهجوم أو الاغارة على البيازنة ، وأعلنوا أنهم مستعدون تماما للتعاون مع البيازنة في ردع هؤلاء القراصنة وذلك بتزويدهم بالسفن اللازمة . ووضع البنادقة كشرط للاتفاق الودى ، أن يمتنع البيازنة عن بناء أي معقل أو حصن في المستوطنة البيزية في القسطنطينية .(٣)

ويظهر هذه الاتفاقية أن المستوطنة البيزية في القسطنطينية ، عاشت وظلت حتى بعد تأسيس الامبراطورية اللاتينية ، واستمرت تحت حكم الفيكونت ، على أنها عاشت بعد الفتح اللاتيني للقسطنطينية في حالة من الضيق بسبب الحرائق التي

---

(١) Heyd, op. cit., I, p. 288-89.

(٢) Ibid., p. 289.

(٣) Ibid., p. 290.

شاهدتها القسطنطينية ، وما سببته من خسائر فادحة للبيازنة وسائر الجاليات الايطالية الأخرى . ومن مظاهر ماطرأ على المستوطنة البيزية في القسطنطينية من ضيق أن رئيس دير Benenatus تحمل شخصيا جزءا من نفقات المعابد ، اذ أن دخوله خلال هذه الفترة لم تتجاوز خمسة عشر بيزنت Besant .(١)

حقيقة أن ممتلكات المستوطنة البيزية من الكنائس مثل سانت بطرس St. Pierre ، وسانت نيكولاس St.Nicolas قد اتلفتها النيران وأصبحت غير صالحة للاستخدام في العبادة ، الا أن المستوطنة منحت بناء على اقتراح ثلاثة من ذوى النفوذ في الجيش الصليبي هم اساقفة سواسون وتروا Troyes وبيت لحم — كنيسة ثالثة بجوار حيها ، وهي كنيسة سانت سوفير St. Sauveur ، وحصلت مع هذه الكنيسة على اراض ومزارع للكروم واديرة .(٢)

وادى تحالف البيازنة مع البنادقة ، واخلاصهم للبيت الامبراطوري وطاعتهم له الى نيلهم الحظوة لدى سادة الامبراطورية اللاتينية ، فلم يكن لدى الامبراطور اللاتيني هنرى فلاندر (١٢٠٦—١٢١٦م) وزوجته ماريا Maria سوى المديح والثناء على خدمات التيوتنات البيازنة وخاصة رانيرى فيدريس Ranieri Federici وجاك سكارلاتي Jacques Scarlati . وقد جدد كل من الامبراطور والامبراطورة لهما الوعد بحماية ممتلكاتهم داخل الامبراطورية ، ولم يضع الامبراطور سوى شرط واحد وهو أن يقسموا له يمين الطاعة والولاء مثلما فعل أسلافهم.(٣)

كما أن انجاز الامبراطورة ماريا Maria شقيقة الامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناى — والتي مارست منصب الوصاية على الامبراطورية خلال فترة غياب أخيها في الغرب وبعد وفاته — كان تجديد الامتيازات التي حصل عليها البيازنة في القسطنطينية لقاء مايقدمونه من خدمات للامبراطورية اللاتينية (فبراير ١٢٢٨م).(٤)

(١ Heyd, op. cit., pp. 290-91.

(٢ Belin, op. cit., p. 57.

(٣ Heyd, op. cit., I, p. 291.

(٤ Longnon, L'empire Latin, p. 169.

يتضح مما سبق أن العلاقات كانت ودية الى حد كبير بين البيازنة — الذين آثروا السلام على القتال — وبين البنادقة . وأن المستوطنة البيزية في القسطنطينية ظلت قائمة رغم ماتعرضت له من خسائر على اثر الحرائق التي عمت مدينة القسطنطينية (١٢٠٣ — ١٢٠٤م) ويرجع الفضل في ذلك الى ماحصل عليه البيازنة من الأباطرة اللاتين من امتيازات ومديح وثناء ، بالاضافة الى روابط التحالف واتفاقيات السلام مع البنادقة .

وعلى عكس البيازنة ، نظر الجنوية الى الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية على أنه نجاح لمنافسيهم البنادقة وفي الوقت نفسه ضربة قاسية لمصالحهم التجارية في الشرق البيزنطي ، ولهذا رفضوا الاعتراف بهذا الاحتلال ، وليس أدل على ذلك من احجامهم من ذكر كلمة " الامبراطور اللاتيني " في وثائقهم المعاصرة لهذا الاحتلال.(١)
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى دفع الجنوية قراصنتهم للهجوم على الممتلكات البندقية بالفعل جاب هؤلاء القراصنة بحر ايجه والبحر الادرياتي ، وشرعوا في اعاقة الاتصالات بين البندقية وفتوحاتها الجديدة ، وحرضوا البيزنطيين على مقاومة سادتهم الجدد ، وأبرز مثال على ذلك ، نجاح القرصان الجنوي ليون فترانو Leon Vetrano في الاحتفاظ بكورفو لعدة سنوات : كذلك نجح القرصان الجنوي انريكو بيسكاتور Enrico Pescator كونت مالطة في تثبيت أقدامه في كريت عام ١٢٠٦م وظل يقاوم البنادقة هناك حتى عام ١٢١١م ويجنوه من ورائه .(٢)

على أن جنوه في هدناتها مع البندقية ، لم تكن تطالب بالاحتفاظ بمستوطنات في القسطنطينية أو في أى مكان حيث كان النفوذ البندقي راجحا وسائدا . ويتضح ذلك من نص الهدنة التي عقدتها جنوه مع البندقية عام ١٢١٢م لمدة عامين ، ولم يتناول نص الهدنة مسألة دخول التجار أو المستعمرين الجنوية أراضي الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .(٣)

---

١) Wolff, " Romania: The Latin empire of Constantsnople" in Speculum (1948) p.13.

٢) Heyd, op. cit., I, pp.291-92., Bratianu, Recherches sur le commerce Genois dans la mer noire au XIII siecle, p. 54.

وانظر أيضا ما سبق ص ١٦٦

٣) عادل زيتون ، النشاط التجاري ، دكتوراه غير منشورة ١٩٧٨ ص ٦٦ .
Heyd, op. cit., I, 292.

على أن المعاهدة التي عقدها الدوق بيترو زيانى في نهاية ١٢١٨م مع جمهورية جنوة لمدة أربع سنوات تلقى الضوء على أحوال الجنوية في القسطنطينية ، وعلى علاقتهم بالبنادقة في ظل السيطرة اللاتينية في القسطنطينية . فبمقتضى هذه المعاهدة تعهدت جمهورية البندقية أن تمنح الجنوية جميع الامتيازات التجارية التي سبق أن منحها لهم الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث (١١٩٥ — ١٢٠٣م) . وهذا يعنى أنهم سوف يتمتعون بحرية التجارة على طول امتداد الامبراطورية ، وسوف يحتفظون بجميع الحقوق وجميع الممتلكات التي كانت لهم من قبل ، ولكنهم استمروا يدفعون نفس الرسوم الجمركية التي كانوا يدفعونها من قبل في هذا العصر . (١)

هذا في حين ، تمتع البندقية في الوقت ذاته بحق الاعفاء من الرسوم الجمركية والامتيازات التجارية والضريبة الواسعة . ومثلما انتصرت البندقية على البيزنطيين ، بأن وجهت الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م ضدهم ، فانها استطاعت — بفضل هذا الانتصار الأول — أن تحرز انتصارا ثانيا ليس أقل أهمية ، ولكنه انتصار اقتصادى على منافستها الكبرى جمهورية جنوه . (٢)

وانتهى على هذا النحو التوازن بين البنادقة والجنوية ، وبدا وان المنافسة القديمة بينهما انتهت بانتصار ساحق للبندقية ، لذلك حاولت جنوه أن تعوض هذا الانحطاط الشديد بترك القسطنطينية والمتاجرة مع الممتلكات اللاتينية الأخرى ، الأقل وقوعا مباشرا تحت نفوذ البندقية وحليفها الامبراطور ، وبصفة خاصة المملكة اللمباردية في سالونيك ، والتي كانت عاصمتها مركزا صناعيا هاما ، وكان ملكها بونيفاس مونتفرات Bonifaoe Montferrat ينتسب الى البلد المجاور للجنوية ، وكانت تلك المملكة ترتبط بالامبراطورية اللاتينية ارتباطا اسميا تقريبا ، وكذلك مع الامارة البرجندية في أثينا حيث كانت جنوة تهتم بالمصانع المتعلقة للحرير في مدينة طيبة . (٣)
وفى ٢٤ ديسمبر ١٢٤٠م ، وقع القنصل الجنوى معاهدة تجارية مع جى الأول لاروش Guy I de la Roche سيد اثينا ، وبموجب هذه المعاهدة منح جـــى

(١ Heyd, op. cit., I, p. 292.

(٢ Grousset, L'empire du levant, p. 468 .

(٣ Grousset, op. cit., pp. 468-69.

الجنوية حرية التجارة ، والاعفاء من كل الرسوم الجمركية التجارية ماعدا الرسوم العادية التي يجب دفعها على كل المنسوجات الحريرية في بلاده . كما سمح لهم بأن يكون للجنوية قنصل خاص بهم ، ومحكمة خاصة بهم ايضا من أجل كل الدعاوى ماعدا الحالات التي تكون فيها الدعاوى جنائية أو اجرامية ذلك لأن مثل هذه الدعاوى يجب أن تحسمها المحاكم العليا للاقليم . ووعد الجنوية أيضا — في كل مدن اثينا وطيبة — بمساحات واسعة من الأرض ليؤسسوا فيها حيهم . ولقاء هذه الامتيازات التي حصل عليها الجنوية في أثينا وطيبة ، فقد كان عليهم حماية أرض هذا الاقليم وحماية رعاياه . (١)

واتجهت جنوه اتجاها آخر من أجل كسر الاحتكار البندقي بالتحالف مع البيزنطيين في امبراطورية نيقيه ضد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، وهدفت جنوه من وراء هذا التحالف الى تقويض مكانة البندقية التجارية واسترداد ما تملكه من امتيازات . وفي عام ١٢٣١م ، ذهب رسولان جنويان أحدهما الى امبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس والثاني الى مانويل امبر ابيروس ، من أجل الاعداد لاتفاق السلام ، ولكننا نجهل الهدف الحقيقي لهذا المسعى ونتائجه . (٢)

وعلى الرغم من أن الجنوية لم يؤدوا دورا هاما في الدفاع عن القسطنطينية ، عندما شن امبراطور نيقيه فاتاتزيس وحليفه القيصر البلغاري الهجوم عليها ، الا أن علاقات الود والالفة بين جنوه وامبراطور نيقيه ظلت مستمرة ، ففي عام ١٢٣٩م ، حضر شخص مفوض بسلطات من قبل الامبراطور فاتاتزيس الى جنوه ، غير أن المفاوضات بينهما لم تفض الى شيء هذه المرة أيضا . (٣) كما أن تحالف الامبراطور فاتاتزيس مع فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وخصم الجنوية ، وضع عقبة في وجه كل محاولة للتقارب بين الجنوية وفاتاتزيس ، هذا فضلا عما اتسمت به امبراطور نيقيه من سياسة اقتصادية ، كان هدفها الأول ضرب التجارة الايطالية . (٤)

---

١) Miller, The Latins in Levant , p.93. , Heyd, op. cit., I, p. 293.

٢) Grousset, op. cit., p. 469., Heyd, op. cit.; I, p.306.

٣) Heyd, op. cit., I, p. 306.

٤) عن التحالف بين فاتاتزيس وفردريك الثاني أنظر بايلي ص ١٨٨ — ١٨٩ . وللمزيد من التفاصيل السياسية الاقتصادية التي اتبعها فاتاتزيس ضد المدن الايطالية أنظر: Gregoras, Byzantina Historia, Vol.I, in C.S.H.B., pp. 42-43.

وفي عام ١٢٥١م عقدت البندقية وجنوة اتفاقا ، ورغم أن هذا الاتفاق حافظ على السلام البحري بين جنوة والبندقية ، الا أنه كان من المتعذر ارضاء الجنوية ، الذين توصلوا الى البنادقة من أجل الاعتراف بامتيازاتهم في الامبراطورية اللاتينية . (١)

وخلال أربعين عاما ظهر أن الصراع الجنوي البندقي لا مفر من حدوثه ، وبدأ هذا الصراع بالفعل عندما منع البنادقة منافسيهم الجنويين العمل في بلاد الشام ، هذا بينما هم يعملون في القسطنطينية . وكانت رغبة الجنوية الواضحة في تحويل عكا قاعدة قوية قادرة هي الواقع الشرارة التي فجرت العداوات بينهم وبين البنادقة . ويهمنا هذا التطور السريع لهذا الصراع الذي لم تتوصل جهود البابا الكسندر الرابع لتهدئته . (٢) وأسفر هذا الصراع عن هزيمة الجنوية هزيمة بحرية قاسية أمام عكا في ٢٨ يونيه ١٢٥٨م ، وعلى تهديد سلطاتهم في صور وجبل والطرد الكامل من بلاد الشام كلها تقريبا . لذلك رغبت الجنوية في استغلال أية فرصة لتحطيم قوة البندقية ، وليردوا لهم الاساءة بمثلها ، وكانت الامبراطورية اللاتينية خير فرصة للوصول الى هذا الهدف . (٣)

اعتلى الامبراطور ميخائيل باليولوجوس (١٢٥٩م) عرش امبراطورية نيقيه في ذلك الوقت ، وقد وضع نصب عينيه الهدف الذي عمل من أجله أسلافه طويلا ، وهو استرداد القسطنطينية وازالة الحكم اللاتيني عنها ، كما وضع الأسس الهادفة لتحقيق هذا الهدف ، غير أنه كان مدركا تماما أن البندقية هي القوة البحرية القادرة على مواجهته ، وكان عليه لكي يتلافى خطرها أن يضربها بقوة مماثلة لها ، ويمكن ذلك بالتحالف مع منافستها الأولى أي جمهورية جنوة . وهكذا تلاقت مصالح جنوة مع مصالح ميخائيل باليولوجوس امبراطور نيقيه . وفي ١٣ مارس ١٢٦١م ، وقع السفيران الجنويان جوليلمو فيسكونت Guligelmo Vesconte ، وجوارنيرو جوديس Guarnerio Giudice مع ميخائيل باليولوجوس في نيمفايم Nymphaeum على بعد ٣٠ ك.م من شرق ازمير — معاهدة تحالف . (٤) تعهد فيها الامبراطور

(١ Heyd, op. cit., I, p. 292.

(٢ لمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع ودور البابا الكسندر في تهدئته انظر : عفاف صبره ، علاقة البندقية بمصر والشام من القرن ١٢–١٤م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٧٧ ، ص ١٦٧–١٧٣ .

(٣ Thiriet, La romanie , p. 101.

(٤ Grousset, op. cit., p. 469., Thiriet, La romanie, p. 103, note 3.

ميخائيل باعفاء الجنوية من كافة الضرائب والرسوم الجمركية في سائر الأقاليم البيزنطية ومنحهم الحق في إقامة مستوطنات تجارية لهم في أدراميتون Adramyttion وسالونيك وجزر انوس Enos وخيوس ولكل منها حيها الخاص ، فله كنيسته وحمامه وفرنه .
أما في الأقاليم التي يحتلها الامبراطور فتحها مثل كريت ويوبيا (نيجربونت) فيتمتع القناصل الجنوية بكامل الحرية القضائية . كذلك وعد الامبراطور باغلاق جميع موانيه في وجه جميع أعداء جنوه مع تحريم دخولهم البحر الأسود . وأكثر من ذلك وعد الامبراطور ميخائيل بالسماح للجنوية بهدم قلعة البندقية في القسطنطينية ، وزاد من مساحة الحي الجنوى في القرن الذهبي ، وذلك باضافة اجزاء إليه من الحي البندقي . (١)

لقاء ذلك ، وافق الجنويون جانبهم على اعفاء التجار البيزنطيين من الرسوم الجمركية في اراضيهم كما تعهدت جمهورية جنوه بألا تعقد سلاما منفصلا مع البندقية ، وأن ترسل اسطولا الى القسطنطينية ، من أجل المساعدة في استردادها ، والتزمت جنوه كذلك بالدفاع عن الامبراطورية البيزنطية ، وبتسليح خمسين سفينة — بناء على طلب الامبراطور ميخائيل الثامن — ولكن على نفقة الخزانة البيزنطية . (٢)

وتم التصديق على هذه المعاهدة في جنوه في ١٠ يوليو ١٢٦١م ، وفي ٢٥ من هذا الشهر دخل البيزنطيون القسطنطينية قبل أن يصل الأسطول الجنوى الى البسفور تحت قيادة مارتينو بوكانيجرا Martino Boccanegra (٣) .

لا شك في أن الاتفاق بين جنوه والامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس ، ثم استعادة البيزنطيين للقسطنطينية كان ضربة لمصير البندقية ومستقبلها لا في القسطنطينية فحسب ، بل في الشرق كله . اذ تمتعت جنوه بالسيادة التجارية في الشرق والتي كانت امتيازا للبندقية منذ نهاية القرن الحادي عشر ، واحتلت جنوه المركز

---

(١) Bratianu, op. cit., pp.81-82., Thiriet, La romanie, p. 103., Miller, The Latins, p. 118.,
ديل ، البندقية ، ص ٥٠ .

(٢) Bratianu, op. cit., p. 82., Thiriet, op. cit., pp. 103-104.

(٣) Grousset, op. cit., p. 469 .

الممتاز الذى سبق أن احتلته البندقية فى القسطنطينية منذ عام ١٢٠٤م ، وحلت السيادة الجنوية بالتالى على المضايق محل السيادة البندقية (١).

وفى الحقيقة أن عواقب معاهدة نيمفايم عام ١٢٦١م ، كانت تحمل أكبر الأخطار لمستقبل اقتصاد بيزنطة وسلامتها ، فالبندقية وجنوة كانتا فى الطريق تدريجيا نحو اغتصاب كل تجارة البحر المتوسط والبحر الأسود . ومن ثم فقد كانتا تتطفلان على جسد الامبراطورية المشلول . ولكن الأمر بدا فى وقته عديما ، فان ميخائيل الثامن لم يكن ليعرف أنه بعد ذلك بأسابيع قليلة ، ستفتح له القسطنطينية بدون أى أسطول على الاطلاق . (٢)

يتضح مما سبق أنه اذا كان البنادقة قد أقاموا الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية لأغراض تجارية بحتة ، فان هذه الأغراض بعينها : هى التى قوضت تلك الامبراطورية بعد سبعة وخمسين عاما تقريبا من قيامها . (٣)

موقف الامبراطورية الرومانية المقدسة من الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية :

قام نزاع بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبلغ هذا النزاع أشده فى ظل حكم الامبراطور فردريك الثانى (١٢١٢—١٢٥٠م) ، الذى لم يقتنع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وانما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمال ايطاليا أى فى لمبارديا وهذا يعنى وقوع الممتلكات البابوية بين شقى الرحى ، ومن ثم فقد أخذت البابوية تنظر بعين الشك الى سياسة الامبراطور فردريك الثانى وخاصة وأنه أخذ يماطل فى تنفيذ الوعد الذى أخذه على نفسه للبابوية بأن يقود حملة صليبية لاسترداد الأراضى المقدسة ، ولهذا أصدر البابوات قرار الحرمان ضد فردريك الثانى أكثر من مرة ، وجعلوا هدفهم الأكبر هو استئصال عائلة الهوهنشتاوفن . (٤)

---

(١) Ostrogorsky, op. cit., p. 399., Thiriet, Histoire de Venise, p. 46., Grousset, op. cit., p. 469.

(٢) Nicol, The fourth, pp. 326-27 .

(٣) عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ص٤٦ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن النزاع بين البابوية وفردريك الثانى ، انظر : سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ص٣٩٥—٤٠٦ .

ورأى فردريك الثاني في الامبراطورية اللاتينية مظهرا من مظاهر سلطة البابا ، وأداة لتوسع نفوذه في الشرق والغرب معا ، فقاومها بمقاومة شديدة ، وسعى للتحالف مع مناوئيها وخصومها وخاصة أمراء ابيروس وأباطرة نيقيه ، واعتبرهم حلفاء قد يفيدون بها ، بل وارتبط معهم بعلاقات سياسية. (١)

فعندما قام حنا برين Jean Brienne الذي انتخب امبراطورا للقسطنطينية في ١٢٢٩م بغزو ابوليا Apulia من أجل أن ينتقم لنفسه من فردريك الثاني بسبب ضياع مملكته في بيت المقدس ، أسرع فردريك الثاني عائدا من فلسطين الى ايطاليا ، وهزم خصمه وعمه حنا برين وأرغمه على أن يلجأ الى فرنسا (٢) وذلك بفضل المساعدة التي قدمها له مايو ورسيني Maio Orisini كونت كيفالونيا وصهر ثيودور انجيلوس (١٢١٥–١٢٣٠م) امير ابيروس الذي قاد فرقة من الجنود البيزنطيين لمساعدة فردريك الثاني في الدفاع عن مملكة صقلية ، وقد سر فردريك الثاني للنجدة المحظوة له بفضل تلك المساعدة التي لعبت دورا هاما في عرقلة وصول حنا برين الى القسطنطينية وابطال ادعاءاته ، وبالمثل ثيودور انجيلوس أن تقوى رباط الصداقة مع فردريك الثاني وذلك بأن أرسل رسله الى بلاط فردريك الثاني محملين بالهدايا الثمينة التي كان من بينها " معدات الخيل وحليها المصنوعة من الذهب والأواني الذهب وعدد لا يحصى من العملات الذهبية ". (٣)

وعندما بدأ ثيودور انجيلوس أمير ابيروس يخطو الخطوات الأولى للاستيلاء على القسطنطينية بالهجوم على ادريانوبل ، فان فردريك الثاني زوده بفرقة من القوات الايطالية المساعدة ، وذلك كدليل على المصالح المشتركة لمملكة صقلية وابيروس ، وكدليل على اعتراف فردريك الثاني بالجميل لثيودور انجيلوس. (٤) ولعل هذا مادعا البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧–١٢٤١م) الى أن يصدر قرار الحرمان ضد فردريك الثاني وأمير ابيروس في آن واحد. (٥)

---

١) Nicol, The despotate of Epiros, p. 107.

٢) لمزيد من التفاصيل عن القتال الذي دار بين فردريك الثاني وحنا برين ، انظر : Kantorowicz, E., Frederick the second, pp.204-208.

٣) Nicol, The despotate, pp. 107-109

٤) Ibid, p. 109.

٥) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, 2, p.203.

ومصداقا للعلاقات الودية التي جمعت بين فردريك الثاني وأمبراطور نيقية وغيره من البيزنطيين ما جاء في خطاب فردريك الثاني : " نحن نرغب في الدفاع ليس فقط عن حقنا ، ولكن أيضا عن حق حلفائنا المجاورين لنا وأصدقائنا الذين جمعنا بهم الحب الصادق تجاه الله ، وبصفة خاصة البيزنطيين أصدقائنا المقربين ... " (١)

وفي عام ١٢٣٠م ، وجد باسيل ثيودور انجيلوس تحالفه مع القيصر البلغاري حنا آسن Jean Asen وجمع ثيودور جيشه للهجوم على الحدود البلغارية ، ضم هذا الجيش فرق من الالمان غير أن القيصر البلغاري انتصر على ثيودور وأسره مع عدد كبير من رجاله . (٢)

هذا الى جانب أن مصالح فردريك الثاني ، كانت مماثلة لمصالح حنا فاتاتزيس (١٢٢٢ـ١٢٥٤م) امبراطور نيقية فقد كان الاول عدوا للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، لأنه رأى فيها عنصرا من عناصر السيادة والنفوذ البابوي ، هذا في الوقت الذي نظر فيه فاتاتزيس الى البابوية ممثلة في جريجوري التاسع على أنها عدوه وخصمه الديني اذ لم ترغب في الاعتراف بالبطريركية الارثوذكسية في نيقية ، كما كانت تشكل عقبة في سبيل الخطة التي رسمها فاتاتزيس للاستيلاء على القسطنطينية ، وبالتالي أصبحت البابوية حجر عثرة في سبيل وصوله الى القسطنطينية ، فتلاقت بذلك مصالح العاهلين حنا فاتاتزيس وفردريك الثاني ، وحدث بالتالي تقارب بينهما في نهاية العقد الرابع من القرن الثالث عشر ، هذا التقارب كان يهدف أساسا الى تقويض الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . (٣)

وهكذا كان فردريك الثاني وحنا فاتاتزيس عدوين للبابا ، كلاهما يهدف الى تحقيق أغراض وأهداف مختلفة ، فقد رغب الاول في أن يتخلى البابا عن ادعاءاته على السلطة العلمانية الدنيوية واعتراضه عليها ، ورغب الثاني في أن يعترف الغرب بالكنيسة الشرقية

---

(١) Vasiliev, Histoire de l' empire Byzantin, p. 205.
Diehl, Figures Byzantines, 2 série, pp. 210-11.

(٢) انظر ما سبق في الفصل الثاني ص ١٠٨ ـ ١٠٩

(٣) أسد رستم ، الروم ج ٢ ص ١٩١ ،
Vasiliev, op. cit., 2, pp.202-203.

وأمل أن يستطيع بتحالفه مع فردريك الثاني أن يقضي بنفسه على الامبراطورية اللاتينية . أما البابا فكانت له سياسة مختلفة نحو الحليفين فقد رأى البابا في فردريك الثاني ابنا عاصيا وخارجا عن طاعة الكنيسة ، ورأى في فاتاتزيس عقبة امام طموحه من أجل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . (١)

ووعد فردريك الثاني امبراطور نيقية بالمساعدة في تحرير القسطنطينية من أيدي اللاتين ، وأن يعيدها لاصحابها الشرعيين ، على أن يصبح فاتاتزيس فعلا وتابعا للعاهل الالماني ، ويعترف بسيادة امبراطور الغرب أي فردريك الثاني ، ويعمل على اعادة الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ولكن من الصعب معرفة الى أي مدى كانت هذه الوعود تتحلى بصفة الصدق . (٢)

ازدادت العلاقات بين الامبراطورين فاتاتزيس وفردريك الثاني تماسكا منذ بداية الثلث الثاني من القرن الثالث عشر ، حتى أننا نرى كتائب بيزنطية تحارب في صفوف جند فردريك الثاني في ايطاليا ضد أعدائه ، ثم توطدت العلاقات أكثر بين الطرفين بعد وفاة زوجة فاتاتزيس الأولى وهي ايرين Irene ابنة ثيودور لاسكاريس فلم يستطع الامبراطور الارمل تحمل الوحدة ، على حد قول جريجوراس لهذا الح في طلب يد الأميرة الشابة كونستانس Constance ابنة الامبراطور فردريك الثاني غير الشرعية وأخت مانفرد ملك صقلية فيما بعد . (٣)

كانت كونستانس فتاة صغيرة ، اذ بلغت من العمر عام ١٢٤٤م عند خطبتها احد عشر أو اثنى عشر عاما ، هذا في حين كان فاتاتزيس في الخمسين من عمره . واذا كانت المصادر والمراجع الغربية تسميها باسم كونستانس ، فان المصادر البيزنطية تطلق عليها اسم انا Anna (٤) . ويبدو أن هذا الاسم الأخير هو بالتأكيد الاسم الذي حصلت عليه كونستانس وقت دخولها حظيرة الكنيسة الارثوذكسية

---

(١) Vasiliev, op. cit., 2, p. 203.

(٢) Diehl, Figures, 2 série, p. 209.

(٣) Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 45., Schlumberger, Byzance et croisades, pp.59-60.

(٤) Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 45., Schlumberger, op. cit., pp.59-60.

بمناسبة زواجها من نيقية ، وذلك لأن قاتاتزيس لم يوضح أن تحتفظ باسمها اللاتيني الذي لم تحمله أية قديسة في الكنيسة الارثوذكسية .(١)

على أية حال كان الغرض الأول من هذا الزواج السياسي هو تدعيم التحالف مع البيزنطيين الذين فضلهم الامبراطور فردريك الثاني على البابوية عدوه اللدود . وعلى اثر هذا الزواج اصدر البابا انوسنت الرابع قرار الحرمان ضد فردريك الثاني في مجمع ليون عام ١٢٤٥م ، ورفض أن يعتبر زواج أميرة كاثوليكية "بامبراطور هرطقي" كما لو كان زواجا شرعيا . وأكثر من ذلك أصدر قرار الحرمان ضد قاتاتزيس وشعبه .(٢)

ومن الجدير بالذكر أن سمة التسامح التي اتسم بها الامبراطور فردريك الثاني قد برزت في مراسلاته مع امبراطور نيقية حنا قاتاتزيس ، فيتضح من خلال هذه المراسلات أن فردريك الثاني كان يتصرف ليس فقط بوحي من الود والحب الشخصي الذي اظهره لقاتاتزيس ، ولكن أيضا بسبب ميله الى تأييد ومساندة المبادئ التي تقوم عليها دولته فقد جاء فيها : " نحن معشر الملوك والأمراء في هذا العالم ، وبصفة خاصة هؤلاء منا الذين يناصرون المبادئ الارثوذكسية ، تحمسنا العداء الشديد تجاه الاساقفة وتجاه الممثل الرئيسي للكنيسة وبقصد هنا البابا ".(٣)

ظلت العلاقات ودية بين فردريك الثاني وحنا قاتاتزيس حتى موت الأول عام ١٢٥٠م ، فقد استمر تبادل السفراء بينهما في السنوات الأخيرة من حكم فردريك على الرغم من أنه كان قلقا بسبب العلاقات الودية بين نيقية وروما ، وهناك العديد من الرسائل المكتوبة باليونانية والتي وجهها الامبراطور فردريك الثاني خلال عام ١٢٥٠م ، لصهره المبجل حنا قاتاتزيس ".(٤) وقد عبر فردريك الثاني في هذه الرسائل عن

---

١) Diehl, Figures, 2 série p.211. , Schlunberger, op. cit., pp. 60-61.

٢) Kantorowicz, op. cit., p. 598., Diehl, Figures,2 série p. 210., Schlumberger, op. cit., p. 62.

٣) Vasiliev , op. cit., 2, p.204-205., Kantorowicz, op. cit., p. 627.,

اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس ، ص ٢٦ .

٤) Diehl, Figures, 2série, p.217., Kantorowicz, op.cit., p.306.

عطفه التام ومن مودته الصادقة تجاه فاتاتزيس ، ولامه لمحاولته التفاهم مع البـــــابا واتهمه كما لو كان أب يعاتب ابنه لأنه أرسل سفيرا الى البابا بدون أخذ مشورته . (١) وبدأ فردريك الثانى يحذر فاتاتزيس من البابوية ومن كرادلة الغرب على انهم ليسوا قسيسين ، وانما هم ذئاب خاطفة ، ووحوش كاسرة ضارية ، كل همهم امتصاص دماء الشعوب المسيحية". (٢)

وحذره من البابا بقوله : " عجبا لهذا الكاهن الأكبر (البابا) الذى ينزل على جلالتكم كل يوم لعنة الحرمان ، على مرأى ومسمع من عامة الناس ومن رعاياكم ، بل انه يدمغ كنيستكم الارثوذكسية بالهرطقة تلك الكنيسة التى هى المنبع الذى استقى منـــه الكون كله مبادئ العقيدة المسيحية " . (٣)

يتعجب الامبراطور فردريك الثانى من أمر البابا أنوسنت الرابع الذى سبق أن اتهم البيزنطيين بالهرطقة ، وها هو الآن يسعى الى التفاوض معهم وهدفه الأســـاسى هو الفصل بين فردريك الثانى وحليفه فاتاتزيس ، أكثر من السعى لاتحاد الكنيستيـــن الشرقية والغربية . (٤)

غير أنه بموت فردريك الثانى عام ١٢٥٠م واعتلاء ابنه غير الشرعى مانفرد العرش تدهورت العلاقات بين الامبراطوريتين ، وتصرف مانفرد كعدو للامبراطورية نيقيه ، وبعد موت حنا فاتاتزيس ١٢٥٤م ، لم يصبح التحالف الذى حلم به فردريك الثانى مـــع البيزنطيين ، وحققه بالفعل أكثر من مجرد ذكرى ". (٥)

جملة القول أن الامبراطور فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة قـــد نظر الى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية من خلال عدائه للبابوية واختلافـــه معها فى النظرة ، ومن ثم انعكست رؤيته فى التحالف مع أعداء الامبراطورية اللاتينيـــة

---

١) Diehl, op. cit., 2 série, pp.217-218.

٢) اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

٣) Vasiliev, op.cit., 2, pp 205-206.
Ostrogorsky, op. cit., p. 392.

٤) انظر ما سبق فى الفصل الثالث ص ١٤٦

٥) Diehl, Figures, 2 série, p. 220.,
Vasiliev, op. cit., 2, p.206.

وخصومها ، على أن هذا التحالف لم يأت بنتائج ملموسة ، وخاصة وأن امبراطورية نيقية سعت في النهاية الى التحالف مع البابوية ، مضحية بكل شيء في سبيل استرداد القسطنطينية .

فرنسا والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية :

يبرز دور فرنسا بالنسبة للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية في أشد أوقات الامبراطورية حرجاً وخاصة منذ عام ١٢٢٤م ، وهو العام الذي شهدت فيه الامبراطورية اللاتينية فقدان ادرنيانوبل وضياع مملكة سالونيك التي آلت الى ثيودور انجيلوس (١٢١٥ — ١٢٣٠م) امير ابيروس . ووصلت هذه الانباء الى الغرب الأوربي ، فأحدثت قلقاً على مصير الامبراطورية وخاصة في فرنسا اذ أن البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧م) أرسل خطاباً الى ملكة فرنسا بلانش كاستيل Blanche Castile والدة القديس لويس ، وطلب منها ضرورة التدخل لصالح الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، تلك الامبراطورية التي " نشأت كفرنسا جديدة " . وأخبر البابا ملكة فرنسا أن الجيوش الفرنسية في الشرق تتناقص باستمرار ، وأنه اذا لم ترسل نجدات سريعة الى الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية وهو حينئذ روبرت الكورتناي Robert Courtenay ، فان الامبراطورية اللاتينية ستفنى . (١)

وكانت النتيجة أن اعقب خطاب البابا هونوريوس الى بلانش ، نداء موجه من لويس الثامن الى ملوك الغرب ، توسل فيه بنقل المساعدة للامبراطور اللاتيني ومد يد العون له . كما وعد الملك لويس الثامن بارسال مائتين أو ثلاثمائة من الفرسان الى الامبراطور اللاتيني عندما يتيسر له هذا ، ولكنه مات بعد هذا بقليل (١٢٢٦م) وقبل أن يحين الوقت لتقديم ذلك العدد من الفرسان . (٢)

وفي عام ١٢٣٦م ، أرسل حنا برين امبراطور القسطنطينية زوج ابنته بلدوين الثاني الى الغرب عامة والى بلاط فرنسا خاصة ، من أجل أن يطلب العون والمساعدة

---

(١) Grousset, L'empire du Levent, p.463., Vasiliev, op. cit., 2, P. 196 .

(٢) Longnon, L'empire Latin, p. 167 .

للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية التى كانت فى حاجة ماسة الى المساعدة . وصل بلدوين الثانى الى روما حيث استقبله البابا جريجورى التاسع بالترحاب ، ودعا لحرب صليبية لصالح القسطنطينية ، ثم ذهب بلدوين الى بلاط القديس لويس التاسع وأمه بلانش كاستيل . وهناك استقبل بلدوين بمظاهر من الود والترحاب وخاصة لأنه أمير من دم فرنسى ، يمت بصلة قرابة الى القديس لويس ، فأم لويس بلانش كاستيل كانت العمة الكبرى لزوجة بلدوين مارى برين Marie Brienne كما أن الفاتنة التى كان يدانى منها بلدوين قد جذبت اليه عطف لويس وأمه بل وبارونات فرنسا (١)

أكد الملك لويس التاسع لبلدوين أنه سيقدم له العون وسيضمن له المساعدات أما بلانش كاستيل فقد وجدت فى بلدوين الثانى صبيا ليس لديه الحكمة ولا القوة الكافية من أجل أن يشغل مركزه كامبراطور ولا أقل من أن تساعده . وقد استجاب كذلك لنداء بلدوين الثانى كثير من سادة فرنسا وحملوا الصليب لمساعدته ومن هؤلاء بطرس دريه Pierre Dreux ، وهيو الرابع Hugue IV وعدد كبير من البارونات . (١)

وفى تلك الأثناء وبينما يقيم بلدوين الثانى فى فرنسا ، وصل اليه رسول يحمل اخبار سيئة من القسطنطينية وفى مقدمتها وفاة حنا برين ١٢٣٧م ، وما أصبحت فيه الامبراطورية اللاتينية من حالة سيئة للغاية . فاكتفى بلدوين الثانى بأن أرسل حنا بيتون Jean Béthune الى القسطنطينية مع بعض القوات والأموال التى قدمها له القديس لويس وأمه بلانش كمنحة سخية للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية .(٣) على أن حنا بيتون لم يحالفه النجاح فى الوصول الى القسطنطينية بالجيش الذى يتولى قيادته ، اذ توفى فى البندقية وهو يستعد للرحيل الى القسطنطينية ، وتفرق رجاله .(٤)

وفى عام ١٢٣٨م ، وبينما بلدوين الثانى فى فرنسا ، علم أن باروناته فتحوا باب الاكتتاب فى دين قيمته ١٣,١٣٤ هيبربرة (حوالى ١٨٠,٠٠٠ فرنك من الذهب)

(١ Longnon, l'empire latin, p.174., Hazlitt, op. cit., I, p. 361.

(٢ Setton, History of the crusades, 2, p. 221., Longnon op. cit., p. 174., Bréhier, Baudouin II, p. 1367.

(٣ Bréhier, Baudouin II, p. 1367.

(٤ Setton, op. cit., 2, p. 221.

من أجل أن يدفعوا رواتب الجند ، وكضمان لرد هذا الدين ، أخذ اكليل الشوك — وهو واحد من الآثار النفيسة — من مكانه في كنيسة قصر بوكليون الامبراطوري في القسطنطينية ، وأعطى للضامن وهو البرتو موروسيني ، عضو احدى الشركات التجارية في جمهورية البندقية . وعند انتهاء مدة الأجل المحددة ، لم يكن المبلغ متوفرا فعجز على الضمان أي " التاج " . وليتجنب البارونات مثل هذه الفضيحة ، عقدوا في نوفمبر ١٢٣٧م اتفاق مع طرف آخر وهو نيكولو كويريني Nicolo Querini وهو مالي بندقي كبير قام بدفع المبلغ للدائنين الأول ، ومنحهم مهلة شهر لرده ، واذا لم يدفع له المبلغ بعد المهلة المحددة ، فمن حقه نقل التاج الى البندقية ، ويضعه فيها لأجل آخر يمتد أربعة أشهر ، وبعدها يصبح التاج ملكا له . (١)

وفي حقيقة الأمر أن الامبراطورية اللاتينية لم يكن بمقدورها دفع هذا المبلغ ، ولهذا لما أن علم الامبراطور بلدوين الثاني بالخبر حث رعاياه على انتزاع هذه الدرة الثمينة من البندقية ، وإيداعها في شرف أكبر ومسيحي أوفر ، ويضعها في يد أعظم ملوك المسيحية تمسكا بدينه أي القديس لويس التاسع فالذي علم بالخبر فأرسل على الفور سفيرين من الدومنيكان الى البندقية ليستخلصا التاج فكا رهنه . ونجح السفيران في الحصول على التاج بعد أن دفعا المبلغ المقرر للبندقية ، وأتيا به الى فرنسا . (٢)

وعندما وصل رسل القديس لويس بالتاج الى مدينة تروي Troyes في شمبانيا وعلم الملك بذلك خرج لاستقبالهم ، مصطحبا معه أمه واخوته روبرت والفونسو وشارل وكذلك رئيس أساقفة سين Sens وغيرهم من البارونات الفرنسيين ، وعلى بعد عشرة فراسخ (ثلاثين ميل) من تروي ، استقبل الملك الاكليل بخشوع ، وحمله بنفسه الى باريس التي وصل اليها في أغسطس ١٢٣٩م . وكان أن وضعه القديس لويس في كنيسة سانت شابل التي أنفق عليها القديس ما يقرب من ١٢٠ ألف مارك ، لتضم هذا الاكليل وغيره من ذخائر التحف . (٣)

---

(١) Longnon, "L'arriveé de la couronne des Épines en France ", dans Revue des deux mondes (1939) p. 211., Haslitt, op. cit., I, pp. 362-63.

(٢) Longnon, l'arriveée de la couronne d'Épines en France, pp. 210-11., Bréhier, Baudouin II, p. 1367., Gibbon, the decline and full of the roman empire, p. 787., الترجمة العربية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٣) Longnon, l'arriveé , pp. 211-13., Haslitt, op. cit., I, pp. 363-64.

قدم القديس لويس لبلدوين الثاني لقاء هذا الأثر الثمين منحة كريمة قدرها عشرة آلاف مارك من الفضة وقد أغرى نجاح هذه الصفقة امبراطور اللاتين بلدوين الثاني بأن يقدم في كرم مماثل الآثار الباقية في كنيسة القصر الامبراطوري ومن بينها : جزء يقال أنه من الصليب الحقيقي ، وثوب من الكتان للمسيح وهو طفل والسلسلة التي قيل انها استعملت في صلبه ، وعصا موسى وغيرها مما حفظه الملك الفرنسي القديس لويس في كنيسة سانت شابل أو كنيسة باريس المقدسة . (١)

تميزت اقامة بلدوين الثاني الأخيرة في فرنسا — بعد عودته من ايطاليا في بداية مارس ١٢٣٩م — باحتفال تصدره ملك فرنسا في ميلون Molun في ١٥ مايو ١٢٣٩م ، وقدم القديس لويس لبلدوين في هذا الاحتفال حصانا يستخدمه في المعارك والقتال وحصانا آخر للمواكب . ثم ساعد القديس لويس بلدوين في اعداد جيش كبير من خيرة الجيوش يتألف من سبعمائة من الفرسان ، وعديد من حملة السلاح والأقواس ومن الخيالة والمشاة ، وعدد من الخيول يربو على الثلاثين الفا . ورحل بلدوين على رأس هذا الجيش حوالي بداية يوليو ١٢٣٩م ، وعبر بها المانيا دون عقبات وخاصة وان القديس لويس توسط الى فردريك الثاني بأن يسهل لبلدوين أمر العبور ، ووصل بلدوين الثاني الى القسطنطينية بأمان وفي صحبته السادة الفرنسيين في ديسمبر من نفس العام . (٢)

واستمرت العلاقات الودية تربط الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني ببلاط فرنسا فقد جاب رسله البلاط الفرنسي ، سواء كان هؤلاء الرسل من رجال الدين أم من الفرسان ، وكان من رجال الدين الذين أوفدهم بلدوين الثاني الى بلاط فرنسا عميد الكنيسة الامبراطورية في قصر بلاشيران بالقسطنطينية ، ومن الفرسان هنري فيرجوس Henri Verjus ، وفيلاين دولني Villain d'Aulnay مارشال الامبراطورية . (٣)

---

١) والترجمة العربية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٩ Gibbon, op. cit., p. 787.
Longnon, l'arrivée, p. 214.

٢) Longnon, l' empire latin, pp.181-82., Bréhier , Baudouin II, p. 1367.

٣) Longnon, op. cit., p. 184.

وفي خلال فترة اقامة بلدوين الثاني في القسطنطينية (١٢٣٩-١٢٤٤م) عول بدرجة كبيرة، بل وبتقل على القديس لويس التاسع وأمه بلانش كاستيل، واستشارهما في جميع مشاكله، ولم يتردد لويس وأمه في الحكم على سياسة بلدوين الثاني، وتوجيه اللوم له اذا لزم الأمر. فقد لام القديس لويس بلدوين لأنه أعطى جوفري فيلهاردوين الثاني Geoffroy II Villehardouin أمير المورة أرضه التي ورثها في كورتناي في مقابل الخدمات التي قدمها جوفري للامبراطورية اللاتينية. وطلب القديس لويس من بلدوين الثاني الحفاظ على تلك الأرض (٢٠ فبراير ١٢٤٢م).(١)

وكثيرا ما كان بلدوين الثاني يرجع الى الملكة بلانش كاستيل في شئون امبراطوريته من ذلك أنه عندما فكر في أن يعقد تحالفا مع كيخسرو الثاني سلطان قونيه السلجوقي ضد البيزنطيين في نيقيه، وحاول أن يدعم هذا الحلف بالرباط الأسرى، بأن يزوج السلطان السلجوقي بواحدة من بنات أخته، وكتب بلدوين لبلانش يخبرها بذلك ويوضح لها الفائدة التي ستعود على الامبراطورية اللاتينية من وراء مثل هذا الحلف وأنه يأمل - على ما يقال - ثلاثة من الفرسان بمساعدة السلطان السلجوقي على ألف بدون مساعدته. وفي النهاية يطلب منها أن تتخير واحدة من بنات أخته البزابيث لتكون زوجة للسلطان. على أنه قبل أن يكون لدى بلانش الوقت للقبول أو الرفض، كان السلطان قد جدد حلفه مع امبراطور نيقيه فاتاتزيس.(٢)

ومن الدلائل أيضا على تدخل بلانش كاستيل في شئون الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، أنها اتهمت بلدوين الثاني بأن له اثنين من المستشارين البيزنطيين البارزين، وأنه يحكم وفقا لمشورتهما ونصائحهما. وردا على اتهام بلانش هذا، بعث بلدوين الثاني اليها يقول: "نحن نحيي بل ونقسم لكم أننا لا نعمل بمشورة أي من البيزنطيين، ولا نأخذ بنصحهم في أي عمل، ولن نأخذ به الآن وسوف لا نأخذ به. وعلى عكس ذلك نحن نعمل بمشورة رجال من الأشراف الفرنسيين الأجلاء الذين كانوا في صحبتنا ... ومع ذلك اذا كنت تجدين اننا بحاجة الى تصحيح بعض الأوضاع فنحن نرجوك أن تخبرينا لنصححه، وسوف تجدين اننا

---

(١) Longnon, l'empire Latin, p. 184.

(٢) Ibid.

مستعدون لأن نتبع نصحك ونكون طوع أمرك ... وكلنا أمل في فضل سيدنا الملك وفي منتك ". (١)

على أن رفض بلدوين وانكاره أن له مستشارين بيزنطيين ، واصراره على أنه يعتمد على الفرنسيين انما يقدم دليلا على تغير سياسة الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية منذ وفاة الامبراطور هنرى فلاندر (١٢٠٦-١٢١٦م) كما أن في خضوع بلدوين الظاهر من خلال هذا الخطاب الذي أرسله لبلانش كاستيل ما يدل على مدى اعتماد الامبراطورية اللاتينية على فرنسا ، وعلى مدى تبعية تلك الامبراطورية للبلاط الفرنسي . (٢)

عاد بلدوين الى الغرب ثانية في بداية عام ١٢٤٤م ، ليبقى هناك حتى عام ١٢٤٨م ، وفي خلال رحلته هذه عبر الى انجلترا . ولم يحصل من امبراطورها هنرى الرابع على أى مساعدة ، وفي فرنسا أعادت له بلانش كاستيل كونتية نامور التي سبق أن رهنها بلدوين الثاني لبلانش لقاء مبلغ من المال ، وفي الوقت نفسه تنازل بلدوين بشكل رسمي للقديس لويس ، عن تاج الشوك وسائر الآثار الأخرى التي وضعها القديس لويس في كنيسته سانت شابل . (٣)

وبعد أن عاد بلدوين الثاني الى عاصمته القسطنطينية عام ١٢٤٨م ، وجد الامبراطورية اللاتينية غارقة في الفقر ، وكان الامبراطور نفسه غارقا في ديونه ، ولهذا أرسل زوجته مارى برين الى الغرب ، وخول بلدوين لزوجته أن ترهن أراضيه الغربية حتى يتسنى له أن يدفع الدين الهائل البالغ ٢٤ ألف هيبربرة التي كان مدينا بها لتجار القسطنطينية من البنادقة ، ومن أجل ذلك الدين رهن لديهم ابنه الوحيد فيليب . ويبدو أن زيارة مارى الى الغرب كانت قد رتبت لها بلانش كاستيل ، عمة مارى الكبرى والتي أعطت بلدوين الثاني ٢٠ ألف مارك في مقابل وعد من أحدهما ألا يبيع أراضيه في نامور بفرنسا ، وأن يرسل مارى لزيارتها في خلال شهر من عودته الى القسطنطينية . وكان أن وفى بلدوين بوعده لبلانش وأرسل زوجته الى الغرب (٤) على ظهر سفينة مع طاقم حراستها .

---

(١) Setton, op. cit., 2, p.224.
(٢) Ibid.
(٣) Bréhier, Boudouin II, p. 1369., Longon, l'empire, p.185.
(٤) Wolff, The mortgage and redemption of an emperor's son" in speculum, Vol.29, (1954)p.52, 60.

ويحكي لنا جوانفيل Joinville اللمحات التالية عن مارى ، فيذكر أنه بينما كان القديس لويس والمحاربون الصليبيون ما زالوا في قبرص — التي تركوها الى مصر في مايو ١٢٤٩م — دخلت سفينة مارى الى الميناء في بافا Baffe (بافوس Paphos) وأعلن عن وصولها ، وحين وصل جوانفيل وأراد بيير Erarde Brienne تهيب مارى لمقابلتها ، وجدا أن ريحا قوية اقتلعت حبال المرساة التي تربط سفينتها ، ودفعتها نحو عكا ، تاركة مارى بلا شيء ، فلم يبق من متاعها سوى عباءتها ، فأخذا الملكة الى ليماسول ، حيث استقبلت أحسن استقبال من الملك والملكة ومن جميع بارونات فرنسا وكذلك من الجيش . (١)

ويذكر جوانفيل أن الامبراطورة ، قد حضرت تطلب من الملك مد يد المعونة لزوجها بلدوين الثاني الذي تركته في القسطنطينية ، واقنعت مارى أكثر من مائتى فارس ، بما فيهم جوانفيل نفسه ، بأن يتعهدوا لها بالذهاب لمساعدة بلدوين الثاني في القسطنطينية بعد انتهاء حملتهم الصليبية . كذلك وعدها القديس لويس بارسال ثلاثمائة من الفرسان ، ولكن لم يتمخض عن ذلك شيء أبدا ، ويتضح ذلك من قول جوانفيل : " ولكني أتى بيمينى طلبت من الملك وقت أن حان ميعاد عودتنا الى فرنسا ، أن يأذن لي بالذهاب الى القسطنطينية ، وفاء بعهدى — اذا قبل ارسال ثلاثمائة فارس اليها — فأجابني الملك بأنه لم يعرف بماذا يجيبه وأن خزائنه قد أوشكت على الافلاس ، رغم أنها كانت عامرة بالمال من قبل ". (٢)

أما بالنسبة لمارى بريين فقد استمرت في رحلتها ، ربما في مركب أخرى مع أصغر أخويها جنا ، وفي نيجيبونت وربما بعد أن غادرت قبرص ، أقرت مارى ثلاثة قروض (يناير ١٢٤٩م) وكان الاقرار بهذه القروض الثلاثة موجها الى الملكة بلانش كاستيل ، التي سئلت أن تؤدى الدين لأصحابه " مما لدينا هناك مما تملك ومما يملك

---

١) جوانفيل ، سيرة القديس لويس ، ص ٨٧ .
Wolff, The mortagage and redemption, p. 61.
٢) جوانفيل ، المصدر السابق ، ص ٨٧—٨٨ .

أخونا حقا " على حد تعبير مارى ذاتها .(١)

وفى مايو ١٢٤٩م وصل الداعون الى فرنسا وأديت اليهم أموالهم ، كما يبغى وأعطوا ايصالات لأمين صندوق بلانش ، وظلت مارى الى جوار بلانش كاستيل حتى توفيت الأخيرة ، فذهبت مارى لتعيش فى مقاطعة زوجها فى نامور بفرنسا .(٢)

على أن مساعدة فرنسا للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية لم تنته بموت بلانش كاستيل ، فقد استمر لويس التاسع فى مساعدة بلدوين الثانى ، ففى أثناء اقامة لويس التاسع الصليبية فى بلاد الشام ، حاول ازالة العداء بين البيزنطيين واللاتين فى آسيا الصغرى . ويحدثنا جوانفيل فى مذكراته فيقول : " بينما كان الملك يحصن صيداء وفد عليه سفراء من قبل امبراطور طرابيزون يدعى كومنين العظيم ، وقدموا الى الملك هدية من المجوهرات المختلفة ، وكان من بين ما احضروه اليه أقواس من أعواد خاصة وقد ثبتت بنهايات مسامير القلاووظ الى الاقواس ، فاذا أطلقت المسامير كانت حادة جدا ، وكانت حسنة الصنعة جدا ، وطلب هؤلاء الرسل من الملك أن يبعث بأميرة من قصره ليتزوجها سيدهم ، فقال الملك أنه لم يجلب معه أية سيدة من بلاده ، وأشار عليهم بالتوجه الى ابن عمه بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية (١٢٣٧ — ١٢٦١م) وأن يسأله زوجة لمولاهم ، تكون من أسرة الملك (لويس) وأسرة الامبراطور .(٣)

ويضع جوانفيل النقط فوق الحروف فيقول أن الملك أشار عليهم بهذا ، عسى أن يتم تحالف بين امبراطور طرابيزون وامبراطور القسطنطينية بلدوين الثانى ضد فاتاتزيس امبراطور نيقيه ، عدو الامبراطورية اللاتينية اللدود .(٤)

ولا شك فى أن هذه الرواية تكشف لنا عن مدى علاقة القديس لويس ملك فرنسا بالامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، ومدى رغبته فى مساعدة امبراطور القسطنطينية

---

١) Wolff, The mortgage, p. 61.

٢) Ibid.

٣) جوانفيل ، نفس المصدر ، ص ٢٥٨ .

٤) جوانفيل ، المصدر السابق ، ص ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

اللاتيني بشتى الطرق . وكان من الطبيعى أن يوجه لويس التاسع اهتمامه فى هـــذه الفترة بالذات الى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وخاصة وأنها كانت تعتبـــر جزءا مكملا لممتلكاتهم فى الأرض المقدسة . (١)

<u>علاقة الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية بأسبانيا المسيحية :</u>

ذكر لونجون Longnon أن ايلوى بينيتو رواتو Eloy Benito Ruano اثبت من خلال الوثائق الخمس التى نشرها أن بلدوين الثانى — آخر امبراطور لاتينى يعتلى عرش القسطنطينية — زار اسبانيا . وأنه وجد فى فالادوليد Valladolid فى أغسطس ١٢٤٦م . وذلك فى الفترة مابين اقامته فى بلاط فرنسا وعبوره الى انجلترا. وكانت هذه الزيارة بطبيعة الحال بغرض الحصول على المساعدات . التى من أجلهـــا ترك بلدوين امبراطوريته فى القسطنطينية . وتجول فى الغرب الأوربى لعديد من السنوات . (٢)

وأولى هذه الوثائق مؤرخة فى فبراير ١٢٤٦م . وهى عبارة عن رسالة من البابـــا انوسنت الرابع . كتبها فى ليون الى رئيس جماعة القديس جيمس باسبانيا . وكـــان فرسان هذه الجماعة من بين فرسان الفونسو الذى أصبح فيما بعد امبراطور اسبانيا . ويعبر انوسنت الرابع فى رسالته عن قلقه الكبير بشأن العون لحرس المقدم للامبراطوريـــة اللاتينية . ويذكر أن بلدوين الثانى ومبعوثين عن رئيس الجماعة . تفاوضوا فى وجود على اتفاق يقضى بذهاب رئيس الجماعة لمساعدة الامبراطورية لمدة عامين . (٣)

وفى الوثيقة الثانية . يعطى الفونسو — بناء على طلب البابا — رئيس الجماعة الاذن بالذهاب الى الشرق بنفسه . أما الوثيقة الثالثة والمؤرخة فى فالادوليـــد أيضا فى أغسطس ١٢٤٦م . فهى العقد الفعلى المكتوب بين بلدوين الثانى ورئيـــس الجماعة وهو دون بلايو بيريز كوريس Don Pelayo Perez Corres وهـــى مؤرخة كما تؤرخ الوثائق الامبراطورية بالحبر الأحمر الخاص بالامبراطور . وكان هذا دليل على حضور بلدوين الثانى بنفسه الى اسبانيا فى صيف ١٢٤٦م . (٤)

---

١) جوزيف نسيم . لويس التاسع فى الشرق الأوسط . ص ٣٠٨ .

٢) Longnon, " l'empereur Baudouin II et l'ordre de saint Jacques" in Byzantion (1952) p. 298.

٣) Wolff" the mortgage and redemption of an empereur's son: Castile and latin empire of constantinople" in speculum (1954) p.82.

٤) Ibid, pp.82-83., Longnon, l'empereur Badouin II, p.299.

ويتعهد فيها رئيس الجماعة بالذهاب شخصيا الى القسطنطينية ، ومعه ثلاثمائة فارس ، وقد يكون خمسون منهم من أعضاء الجماعة ، مع ثلاثمائة حصان من جياد الميدان ، وثلاثمائة لحمل الأسلحة ، ومائتين من رماة السهام ، نصفهم من الخيالة ونصفهم من الرجالة ، وألف من المشاة من أجل الدفاع عن الامبراطورية اللاتينية . وتبدأ فترة السنتين — كما جاء في الوثيقة الأولى — من لحظة الوصول الى القسطنطينية أو حينما يأمر الامبراطور القوات بدخول المعركة ، وان كان له أن يفصل هذا قبل الوصول ، وبعد السنتين ، ستقوم الجماعة لها فيها أو ديرا دائما في القسطنطينية ، تحتفظ فيه بأكبر قدر ممكن من الفرق ، فاذا قام الامبراطور أو ابنه أو وريثه في الامبراطورية اللاتينية بحرب في أي وقت ، أو مضى أحدهم في غارة ، فان رئيس الجماعة أو نائبه وأعضاء الجماعة في القسطنطينية من واجبهم صحبته : فاذا لم يذهب الامبراطور أو ابنه شخصيا فلرئيس الجماعة أن يذهب أن اراد ، وتتلقى الجماعة خمسمائة بصيص الفتح في مثل هذه الحملة . (١)

وتعهد الامبراطور بدوره من جانبه أن يمنح الجماعة مدينة فيزويا Viscia والمدينة المجاورة Madea — في تراقيا على شاطىء البحر الأسود — حرة خالية مع استعباد كل السادة الآخرين كتابعين منهم وللمانيين ، ووعد بلدوين أيضا بأربعين الف مارك يدفعها لهم ، وأكثر من هذا فهو سوف يقوم باعطاء منازل للجماعة في القسطنطينية ، ومزارع كروم ، وأراضي في نطاق العاصمة ، لتكون بمثابة مأوى للجرحى والمرضى ، وكذلك منزل لرئيس الجماعة . (٢)

وفوق هذا ، ستحصل الجماعة على خمس مغانم الفتوحات من أي نوع ، مما قد يتم منها بعد وصولهم الى الشرق ، مع ربع كل الفتوحات التي يشتركون فيها بالفعل ، حتى ولو كان سكان المدينة التي تحاصرها الجماعة وأهلها يفضلون التسليم للامبراطور وأتباعه المباشرين وليس لهم . (٣)

---

(١) Wolff, The mortgage, p.83, longnon, l'empereur Baudouin II, p.299.

(٢) Ibid.

(٣) Wolff, The mortgage, p.83.

أما المشرف على الجماعة في الامبراطورية اللاتينية ، فيعين من قبل رئيس الجماعة في اسبانيا ، وهو وحده الذى يعزله ان شاء ، ويخضع أعضاء الجماعة جميعا في الامبراطورية لرئيس الجماعة ، كما كانوا في المناطق الأخرى ، وقد يقومون بحملات ضد العدو بحريتهم ، على نحو ما اعتادوا أن يفعلوا في اسبانيا ، في أى وقت يناسب مصالح الامبراطورية والجماعة، ولهم الاحتفاظ بكل الأسلاب المأخوذة في مثل هذه الحملات ، وهم وممتلكاتهم وأهلهم معفون من الضرائب أى ضرائب الامبراطورية المالية ، ولهم ما يعطون من ملك ، وما يوصى لهم به منه والاحتفاظ به ، وهم يتلقون خمس أى ممتلكات قد يحصل عليها الامبراطور أو ورثته بالهدنة أو بالمعاهدة ، ويقوم الامبراطور بالحصول على التزام بارونات جميعا بتنفيذ هذه الشروط . (١)

وأعاد بلدوين الثانى تأكيد وعده بأن بارونات سيوافقون على كل بنود الاتفاق أو التفاهم مع دون بيلايو Don Pelayo ، رئيس جماعة سان جيمس — وجاء ذلك في الوثيقة الرابعة — بل ويضيف انه اذا رفض أحد بارونات العمل بهذه البنود ، فان الجماعة ستلقى خسارة ، وان الامبراطور سوف يعوض هو الخسارة من ممتلكاته ذاتها . (٢)

وفى الوثيقة الخامسة والأخيرة ، والمؤرخة فى فبراير ١٢٤٧م فى ليون ، يشرح البابا أنوسنت الرابع لرئيس الجماعة ، عجز بلدوين على أن يدفع لممثلى الجماعة المبلغ المتفق عليه فى العقد السالف الذكر (ربما الأربعون الف مارك) ولكنه يأمل أن يدفعها فى القسطنطينية القادم ، وهو التاريخ الذى سيكون فيه البابا كذلك فى مركز يسمح له بتقديم دعمه فى القضية ، ويعقب لونيون Longnon على ذلك بقوله : "لعل هذا السبب هو الذى دفع بلدوين الثانى — بدون شك فى بداية عام ١٢٤٧م — لأن يسير الى انجلترا من أجل الحصول على المساعدات المالية". (٣)

(١ Wolff, The mortgage, p. 83.

(٢ Ibid, pp.83-84.

(٣ Longnon, l'empereur Bandouin II, p.299., Wolff, the mortgage, p. 84.

والحقيقة أن الأمر كله انتهى الى لاشيء بسبب فقر بلدوين الثاني ، ويهمنا هنا أن هذه الوثائق الخمس تسجل زيارة قام بها الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني لاسبانيا المسيحية عام ١٢٤٦م ، وتلقى هذه الزيارة الضوء على أنه كان هناك ثمة نوع من التفاهم الهاكر بين الامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني وبين الفونسو العاشر امبراطور اسبانيا فيما بعد — وكان لايزال أميرا — وليس أدل على ذلك من الاتفاقات التي عقدت بين بلدوين الثاني وبين رئيس طائفة سان جيمس ، تلك الطائفة التي كانت تعمل لحساب الفونسو ذاته وكان أعضاؤها من فرسانه ، هذا وان كانت تلك الاتفاقات لم تفض الى شيء بسبب فقر الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وعجزها المالي ، الا أنها دلت على أنه كان هناك اتصال فعلي بين الامبراطورية واسبانيا .

ومما يؤكد هذا الاتصال زيارة مارى بريين — زوجة بلدوين الثاني — لاسبانيا في الفترة ما بين يونيه ١٢٥٨م وأول مايو ١٢٦١م ، وهذه الزيارة كانت بهدف أن تفتح مارى باب المفاوضات أساسا من أجل انقاذ ابنها فيليب المرهون لدى البنادقة ، وقد كللت مساعيها بالنجاح ، فقد استقبلها الفونسو العاشر الذى أصبح ملكا على أسبانيا أحسن استقبال ، وقدم لها المال اللازم لاستعادة ابنها . (١)

والحق أن الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية قد لعبت دورا ذى دلالة في تفكير الفونسو العاشر الدبلوماسي ، ففي حملته لاستعادة الاعتراف به امبراطورا خلال أعوام (١٢٥٨—١٢٦١م) وهي بالضبط السنوات التي خصصت لزيارة مارى بريين ، جذب الفونسو الى قضيته — بوسائل عديدة — عددا من السادة الكبار وكان من بينهم اثنان على الأقل من أصدقاء الامبراطور والامبراطورة اللاتينيين وحلفائهم ، فقد أعطى الفونسو العاشر امتيازات خاصة لتايمه الدوق هيو الرابع من برجنديا ، الذى مالبث أن أصبح قريبا وصديقا حميما للامبراطور اللاتيني بلدوين الثاني ، وأعطى الفونسو جي دامبير Gui Dampierre عشرة آلاف مارك ، وهو كونت فلاندر وحليف الامبراطورة مارى بريين في الأراضي المنخفضة ، ثم أصبح الآن حليفا لمارى ، وهذا

(١) Wolff, The mortgage, p. 64.

مما يدل على أن الفونسو كان يرى أن التحالف مع القسطنطينية يزيد من نفوذ اسبانيا الدولى ، مما يعينه على تحقيق مشاريعه الامبراطورية . (١)

ويبدو واضحا فى السنوات الأخيرة للامبراطورية اللاتينية أن السياسة الاسبانية كانت تتضمن كوجه من أوجهها الهامة علاقة حميمة مع الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية . وقد يعترض البعض على ذلك قائلين أن هذا أمر غير عملى بالنسبة لامبراطورية اسبانية بعيدة ، ولكن من الممكن أن يرد عليهم بكلمات مارى برين المشهورة عن الفونسو ، أنه كان ينظر الى السماوات ، ويحجب للنجوم ، ولكنه فى الوقت ذاته فقد الأرض والمملكة " . (٢)

ومما لاشك فيه أن معونة اسبانيا للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية والتى كانت موضع ترحيب كبير من جانب الامبراطورية اللاتينية ، جاءت فى وقتها ، خاصة وان القوى التى كانت الامبراطورية اللاتينية تعتمد عليها من قبل ، قد أخذ يتزايد

انشغالها بجهات أخرى فى الثلاثينات والاربعينات والخمسينات من القرن الثالث عشر ، فالسلاجقة الذين كانوا حلفاء للامبراطورية ، كانت تحوطهم الغزوات المغولية وكانت أنظار البابوية قد تسلطت على الصراع مع الهوهنشتاوفن ، وعلى نحو مارأينا فكر البابوات احيانا فى عدم التأييد التام للاباطرة اللاتين وخاصة بعد أن فشلت الامبراطورية فى تحقيق أهداف البابوية وخاصة اتحاد الكنيستين ويبدو أن البنادقة فى السنوات الأخيرة من تاريخ الامبراطورية اللاتينية ، كانوا قد فقدوا كثيرا من اهتماماتهم وربما كان ذلك كنتيجة لانحطاط تجارتهم على أثر اتفاق الجنوية مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجوس وهكذا برزت اسبانيا فى صورة حامية للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية فى أيامها الأخيرة .

* * *

---

(١) Wolff, The mortgage, p. 81.

(٢) Ibid.

الفصل الخامس

سقوط الامبراطورية اللاتينية (يوليو ١٢٦١م)

عوامل سقوط الامبراطورية اللاتينية :

- عيوب نظام الحكم والادارة والمنازعات بين الامراء اللاتين .
- خطر البلغار والكومان وأثره في سقوط الامبراطورية اللاتينية .
- امبراطورية نيقية واسترداد القسطنطينية عام ١٢٦١ م .

عوامل سقوط الامبراطورية اللاتينية :

عيوب نظام الحكم والادارة والعلاقات بين الامراء اللاتين :

حملت الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بذور فنائها معها منذ العلم الاول لقيامها ، اذ انتخب امبراطورها عن طريق اقرانه من البارونات ، ومن ثم فهو الاول بين اقرانه Primus inter Pares [1] . وعلى الرغم من أنه احاط نفسه بكبار الموظفين في بلاطه من وكيل المال الاقطاعي وهو المنشيال Seneschal والمارشال والكندسطبل [2] ، وكبير الخدم والمنوط بالطعام والشراب وغيرهم ، وغير هذه المظاهر الخارجية المرتبطة بالسلطة المركزية للحاكم المطلق البيزنطي ، فان الامبراطور اللاتيني ظل حاكما اقطاعيا غربيا ، قيدت أظافره قبل اختياره ، فقد كان الامبراطور مجردا من السلطات حسبما نصت عليه الاتفاقيات الثلاث (مارس ١٢٠٤ – أكتوبر ١٢٠٤ – ١٢٠٥م) كما أنه كان رهن تصرفات الهودستا البندقي والبارونات اللاتين [3] .

حدد اتفاق مارس ١٢٠٤ م – على سبيل المثال – الاجراءات الخاصة باختيار الامبراطور اللاتيني ، وخصص له بالاضافة الى القصرين الملكيين البيزنطيين في العاصمة ، ربع الامبراطورية فقط ، في حين أن الثلاثة أرباع الباقية تنقسم بالتساوي بين البنادقة والصليبيين ، مع عدم تعهد دوج البندقية بتقديم أية خدمات للامبراطور ، والا يقسم له يمين الطاعة والولاء ، وان كان اتباعه يطلب منهم فعل هذا ، وجاء في الاتفاق أيضا أنه ليس من حق الامبراطور أن يشارك في توزيع الاقطاعات ، وان يتحمل هذه المسئولية لجنة مشتركة من الصليبيين والبنادقة ، وكان على الامبراطور أن يمد الجيوش الضرورية ، هذا بالاضافة الى مايمكن أن يزوده به أصحاب الاقطاعات ، ويتضح من هذا أن سلطة الامبراطور اللاتيني كانت سلطة محدودة ، كما أن نفوذه على الامارات اللاتينية الاخرى التي أقامها الصليبيون كان محدودا ، وشتان مابين تلك المكانة التي احتلها الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية وبين مكانة الامبراطور

---

1) Diehl, Dans L'Orient byzantin, p. 172.

٢) عن منصب المارشال والمنشيال والكندسطبل ، انظر ماسبق ص د ل ، ٦٧ .

٣) Setton, History of the crusades , 2, p. 190.

البيزنطي ، الذي كان هو القاضي والمشرع ، ولم يكن لشعبه حقوقا سياسية في معاونة سلطته (١) .

وكان على الصليبيين اذا أرادوا لامبراطوريتهم البقاء في الشرق لوقت طويل ، ان يمدوها بحكومة مركزية ، الا أن الواقع كان عكس ذلك ، فقد كانت الامبراطورية اللاتينية التي أقامها الصليبيون على الارض البيزنطية دولة اقطاعية كبرى ، اذ نقلوا اليها معهم النظام الاقطاعي بنظمه المعروفة في الغرب ، ومن ثم كان من الضروري أن تتعرض هذه الامبراطورية لجميع مساوئ هذا النظام ، وعلى رأسها المنازعات بين الامراء والاحقاد المستمرة بينهم وبين أتباعهم (٢) .

نشب نزاع رهيب بين الامبراطور اللاتيني بلدوين فلاندر Baudouin Flandre (١٢٠٤ — ١٢٠٥ م) وبين المركيز بونيفاس مونتفرات Boniface Montferrat وهدد هذا النزاع وجود الامبراطورية الجديدة ، بل وكادت الحرب الاهلية أن تمزقها وتهلك أبطالها ، ولكن حكمة بعض العقلاء هي وحدها التي حالت دون وقوع الكارثة .

بدأت أحداث هذا النزاع عقب تتويج بلدوين فلاندر امبراطورا في مايو ١٢٠٤م ، فغداة التتويج طالب المركيز بونيفاس مونتفرات بالاراضي الواقعة فيما وراء البسفور مع جزيرة كريت ، وقبل الامبراطور عن طيب خاطر طلب بونيفاس ، على أن المركيز بونيفاس مالبث أن أظهر رغبته في استبدال أقاليم آسيا بمملكة سالونيك في شمال اليونان ، والتي تبعد عن القسطنطينية مسافة حوالي ٦٠٠ ك.م (٣) .

---

١) Hendrickx, " Les institutions de l'empire Latin- Le pouvoire imperial", dans, Byzantina(1974), pp. 92-120., Finlay, History of Greece, 4, pp.95-96.

٢) Diehl, L'empire byzantin , p.175., Tout, The empire and papacy, p. 349., Cam. Med. Hist, 4, p.422.

٣) Villehardouin, La conquête de Constantinople, p.157.

سعيد عاشور ، الحركة ، جـ ٢ ، ص ٩٣٧ .
روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ١٤٠ .

وهناك من الاسباب والدوافع ما دفعت بونيفاس الى ذلك ، ومن بينها أنــه تزوج ماريا Maria أرملة الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس ، وأخــت ملك المجر أميرى Emeri ، لهذا رغب بونيفاس فى أن تكون املاكه قريبـة من صهره ملك المجر ، الذى أمل أن يجد فيه حليفا له . ومن ناحية أخـرى كان أخيه الاكبر رينيه Renier يمتلك عقاره فى سالونيك منذ أن تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى مانويل منذ خمسة وعشرين عاما . وأخيرا فسالونيك ستكـون قريبة أيضا من ايطاليا ، مما يمكن بونيفاس من الاتيان بالمؤن والامدادات مـن هناك بسهولة . ويتضح من هذا أن مملكة سالونيك كانت أكثر نفعا لبونيفاس من آسيا (١) .

أثار مطلب بونيفاس السابق مشاكل فى مجلس الامبراطور ، لاقامة مملكـــة سالونيك داخل الامبراطورية اللاتينية ذاتها فتشكل عقبة خطيرة ، لما قد يترتب على ذلك من أن يصبح ملكها حاكما لدولة كبيرة منافسة للامبراطور ذاتـــه ، وهذا ما ينشأ عنه نزاع ، وضياع للمصالح العامة . غير أن نزاهة بونيفـــاس واستقامته وحرصه على المصلحة العامة وحبه للوئام ، قضت على هذه المخـاوف السياسية (٢) .

وافق الامبراطور بلدوين بعد تردد على طلب بونيفاس ، ومنحه مملكـــة سالونيك ، وقدم له بونيفاس بدوره الطاعة والولاء من هذا الاقطاع . غـــير أن سالونيك والاقاليم القريبة منها والمجاورة لتراقيا لم يكن قد تم فتحها بعد ، ولهذا خرج الامبراطور بلدوين ومعه رجاله لفتحها ، ولحق بهم المركيـــز بونيفاس مونتفرات . وكان أن استسلمت للامبراطور المدن والقلاع التى بلغهـا والتى تمتد على مسافة ٦٠٠ ك . م تقريبا من القسطنطينية . ومن ثم فقد أصبح الامبراطور بلدوين على بعد ٤٠ ك . م فقط من سالونيك . وعندئذ طلـب بونيفاس من الامبراطور أن يفى بوعده له ، وأن يدعه يستولى على اقطاعـه بنفسه ، على أن الامبراطور تنصل له ، وأعلن عزمه على متابعة سـيره

---

(١) Villehardouin, op. cit., pp.155, 57., Nicol, The Fourth Crusade, p. 288., Longnon, L'empire Latin de Constantinople., p. 58.

(٢) Lebeau, Histoire du Bas- empire , T. 17, p. 166.

حتى سالونيك رغم توسل بونيفاس له . (١)

وأمام اصرار الامبراطور على خطته فى الذهاب الى سالونيك ، أعلن بونيفاس أنه لن "يسمح للامبراطور بدخول سالونيك التى صارت ملكا له ، وأنه ان دخلها فلا صحبة له معه ولا طاعة له عليه بعدئذ أبدا ، وأنه من الخير له أن يعود الى القسطنطينية ، وينظر ما فيه صلاحه " (٢) .

وكان أن التف حول الامبراطور والمركيز عدد من المتملقين والمنتفعين ، بذلوا قصارى جهدهم من أجل تأجيج النزاع واشعال روح العداوة والبغضاء فيما بينهما . فلما سمعوا بما أعلنه بونيفاس ، اشتد سخطهم عليه ، وبعثوا اليه بكتاب ذكروا فيه : " انهم لن يتخلوا عن الذهاب الى سالونيك ، لا من أجله ولا من أجل أى شئ آخر ، لان البلد ليس بلده " (٣) .

وعلى أثر ذلك انسحب بونيفاس بفرسانه من جيش الامبراطور ، واتجه نحو أدريانوبل — على بعد ٢٠٠ ك . م من القسطنطينية — والتى كان الامبراطور بلدوين قد وضع بها حامية بقيادة يوستاش سوبروك Eustashe Saubruic وحاصر بونيفاس أدريانوبل ، فأرسل يوستاش رسولين من قبله الى القسطنطينية لاطلاع دوق البندقية والكونت لويس من بلوا Louis de Bloi وكونون بيتون Conon Bethune والمؤرخ فيلهاردوان وكان هؤلاء قد ظلوا فى القسطنطينية لحراستها أثناء فترة غياب الامبراطور عنها — على ما نشب من نزاع وخلاف بين الامبراطور والمركيز بونيفاس من جيش الامبراطور وحصاره لمدينة أدريانوبل (٤)

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر : روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٤٠ـ١٤١ ،
Villehardouin, op. cit., pp. 157-65.,
Michaud, Histoire des croisades, 3, pp. 302-303.

٢) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٤١ .

٣) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

٤) Villehardouin op. cit., p. 167.

فأثر دوق البندقية وسائر البارونات لسماع هذه الاخبار السيئة ، اذ كان من الممكن أن تكون تلك الفرقة مهلكة لدرجة أن يفقدوا على أثرها الفتح الذى كلفهم الكثير من الدم والمشاق . ولهذا فقد عهدوا للمؤرخ فيلهاردوان بأن يسرع الى أدريانوبل لوضع نهاية للنزاع بين الامبراطور والمركيز . ويبدو أن علاقة فيلهاردوان الطيبة ببونيفاس وصداقته الحميمة له هى التى دفعت البارونات الى اختياره للقيام بهذه المهمة (١) .

وعندما وصل المؤرخ فيلهاردوان الى أدريانوبل ، خرج المركيز بونيفاس ورجال مجلسه ومن بينهم وليم شامبليت Champlitte ، وأوتو دى لاروش Otto de la Roche لاستقباله والترحيب به . وبعد أن وجه فيلهاردوان اللوم والعتاب لبونيفاس لانسحابه من جيش الامبراطور ومحاصرته أدريانوبل ، بين له أخطار هذا النزاع وكيف انه يعرض الامبراطورية الناشئة للخطر ، ويتيح الفرصة للبيزنطيين والبلغار للقضاء عليها . فاعتذر بونيفاس عما قام به ، وان كان قد برر موقفه بظلم الامبراطور الذى أعرب عن رغبته فى غزو مملكته . ووعد بونيفاس أن يكف عن الحرب ، وأن يخضع نزاعه مع الامبراطور بلدوين لحكم الكونتات والبارونات . وقبل فيلهاردوان اقتراح بونيفاس — الذى ترتب عليه أن أوقف الجيش هجماته — وأملته فى عودة (٢) . وبينما عاد المؤرخ فيلهاردوان الى القسطنطينية للتشاور مع باروناتها ، رفع المركيز الحصار عن مدينة أدريانوبل ، وذهب مع جميع رجاله الى مدينة ديديموتيخوس Didymotichos فى تراقيا حيث كانت زوجته الامبراطورة ماريا تقيم هناك (٣) .

وأظهر الامبراطور بلدوين كذلك استعداده الطيبة للصلح مع بونيفاس ، وتعهد بأن يضع السلاح ويعود الى القسطنطينية من أجل تصفية النزاع القائم بينه وبين بونيفاس . وفى القسطنطينية التقى كل من الامبراطور بلدوين والمركيز بونيفاس وسائر القادة الآخرين ، فبعث هذا اللقاء مشاعر الضغينة والالم ،

---

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 167-69., Nicetas, Historia, in C.S.H.B., p. 794., Faral, " Geoffroy de Villehardouin", dans Revue Historique, Vol. 177., (1936), pp. 570-85.

(٢) Villehardouin, op. cit., p. 171., Lebeau, op. cit., 17, p.185.

(٣) Villehardouin, op. cit., p. 171.

بعد عدم الثقة بينهما ، وجددت الاتفاقيات الاولى ، وعادت سالونيك الى المركيز مع ما كان يتبعها من ولايات ، وتلقى الامبراطور من جديد قسم الطاعة والولاء من المركيز عن هذا الاقطاع ، كما أقسما الاثنان على الا يصغيا لنصائح المخربين ، وتعانق الامبراطور والمركيز فى حضور الجيش ، الذى شعر بالفرح لعودة الوئام والالفة بينهما ، كما شعر الجميع انهم حققوا انتصارا على اعداء الامبراطورية بهذا الصلح (١) .

على هذا النحو ، انتهى النزاع بين الامبراطور بلدوين والمركيز بونيفاس مونتفرات ، ذلك النزاع الذى كاد أن يلحق بالامبراطورية الناشئة أضرارا بالغة خاصة وأن البيزنطيين علقوا على هذا النزاع آمالا كبارا فى ابادة اللاتين جميعا ، فهو نزاع بين أكبر أميرين لاتينيين ، ومن ثم فقد سعى البيزنطيون جاهدين الى منع حدوث الصلح بينهما ، ولكن خابت آمالهم ، ويعبر فيلهاردوان عن مدى خطورة هذا النزاع ، وما كان سيترتب عليه من آثار سيئة على الامبراطورية اللاتينية بقوله : " أن الصليبيين لو لم تتداركهم رحمة الله لكانوا مهددين بخطر فقدان فتوحاتهم وضياعها " (٢)

أما النزاع الثانى الذى هدد الامبراطورية اللاتينية ، فكان بين امبراطور القسطنطينية هنرى فلاندر (١٢٠٦ ـ ١٢١٦م) وبين اللمبارديين فى سالونيك وقام هذا النزاع على أثر وفاة بونيفاس مونتفرات ملك سالونيك عام ١٢٠٧م . فبعد وفاة بونيفاس أصبحت مملكة سالونيك ميراثا لابنه من ماريا المجرية وهو ديمتريوس الصغير ، ونظرا لصغر سن ديمتريوس ، فقد تولى منصب الوصاية على مملكة سالونيك أحد زملاء بونيفاس مونتفرات وهو هوبرت بياندرات Hubert Biandrate (٣) ، وهو نبيل لمباردى ارتبط بأسرة مونتفرات فى ايطاليا ، ولهذا آثر ابن بونيفاس الايطالى وهو وليم الذى يبلغ من العمر

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 173-77., Lebeau, op. cit., 17, pp. 188-89., Michaud, op. cit., 3, p. 307.

(٢) Villehardouin, op. cit., p. 173., Lebeau, op. cit., 17, p. 185.

(٣) يطلق المؤرخ المعاصر فالنسيان على هوبرت بياندرات اسم الكونت بلاس دراس Blans Dras انظر :
Henri Valenciennes, Histoire de l'empereur Henri, p.347.

٢٥ عاما على ابنه من ماريا المجرية وهو ديمتريوس ، وسعى بياندرات نحو تقوية علاقة مملكة سالونيك بقدر ما يمكن مع ايطاليا واثارة مونتفرات ولمبارديا جلب الى سالونيك عددا كبيرا من اللمبارديين، وأكثر من ذلك سعى الى تحرير مملكة سالونيك من سيادة الامبراطور هنرى ، ومن تبعيتها للامبراطورية اللاتينية (١) .

وبدأ الكونت بياندرات فى تنفيذ مخططه المعادى تجاه الامبراطورية اللاتينية باخراج الحامية الفرنسية التى كانت موجودة فى سالونيك ، كما وضع رجالا ثقة فى القلاع والحصون التابعة لمملكة سالونيك ، ثم حث وليم مونتفرات مرارا وتكرارا على أن يأتى الى سالونيك ليتقلد السلطة عليها ، ولكن وليم مونتفرات كان يفضل " زوجين من الثيران ومحراث فى مونتفرات على تاج الامبراطور خارجها " (٢) .

وعندما علم الامبراطور هنرى بهذه الدسائس والمكائد التى يدبرها الوصى على مملكة سالونيك من حوله من اللمبارديين ، عزم هنرى على أن يتدخل شخصيا كخصم ثالث فى سالونيك ، وعلى أن يقود حملة الى هناك ، ليطلب من السادة اللمبارديين أن يقسموا له يمين الطاعة والولاء عن المملكة نيابة عن ديمتريوس الصغير . على أن رحلة الامبراطور هنرى الى سالونيك كانت رحلة شاقة نظرا للبرد القاسى الذى أدى الى موت عدد من رجاله هنا من ناحية ، ولهجمات البلغار من ناحية أخرى ، وسوء استقبال اللمبارديين للامبراطور ورجاله من ناحية ثالثة (٣) .

وعلى الرغم من أن الوصى بياندرات أغلق أبواب سالونيك فى وجه الامبراطور ورجاله ، الا أن الامبراطور هنرى أرسل رسله وهم كونون بيتون ، وبطرس دويه Pierre de Douai ونيقولا س ميلى Nicolas Mailly ـ الى

---

(١) Finlay, op. cit., 4, p. 107., Longnon, l'empire, p. 106., Cam. Med. Hist, 4, Part.I (1966) p. 391.

(٢) Henri Valenciennes, op. cit., p. 349., Setton, op. cit., 2, pp.206-207 .

(٣) Henri Valenciennes, p. 343-47.

الكونت بياندرات ، وكلفهم بالتفاوض معه ومع اللمبارديين وكان التفاوض مع الوصي وجلسه طويلا ومتعبا ، أورد تفاصيله المؤرخ المعاصر هنري فالنسيان (١) ، فيذكر أن اللمبارديين احتقروا موقف الجيش الامبراطوري الحرج ، الذي كان بلا مأوى ولا تموين ، وأبلغوا رسل الامبراطور : أنهم لن يسلموا للامبراطور ولن يستقبلوه الا اذا أعطاهم الاراضي من دورازو على الساحل الشرقي للادرياتيك وحتى ميجارا (ماكرى Macre) على بحر ايجه ، ومعها الموره ، وان تكون مدينة فيليبوبوليس حدا غربيا للامبراطورية اللاتينية (٢) .

ظل الامبراطور هنري حائرا أمام هذه المطالب ، ولكن نظرا للموقف الحرج الذي أمسى فيه رجاله ، فقد وافق على مقترحات بياندرات الوصي على مملكة سالونيك ، ولكن كخدعة فقط من أجل ان يدخل المدينة وينقذ رجاله من البرد والجوع ، ومع ذلك فقد وضع الامبراطور هنري شرطا للوفاء بهذه المقترحات وهو أن تقبلها ماريا المجرية الوصية على ابنها الطفل ديمتريوس وان تصدق عليها ، ولما كان بياندرات قد تظاهر بمساعدته لماريا وديمتريوس وخاصة بعد أن بدأ يفقد الامل في مجيء وليم مونتفرات ، فلقد قبل الشرط خشية أن تظهر خيانته لهما وغدره بهما قبل الاوان (٣) .

نجح الامبراطور هنري بهذه الحيلة في أن يدخل هو وجيشه مدينة سالونيك ، وفي داخل سالونيك أصبح الامبراطور قادرا على اقناع ماريا المجرية برفض مقترحات الوصي بياندرات واللمبارديين اذ كانت مدركة لسياستهم المعادية نحوها ونحو طفلها ديمتريوس ، ولهذا صرحت ماريا للامبراطور هنري بأنها : لن توافق على مطالب بياندرات واللمبارديين أبدا (٤) .

وعلى هذا النحو تنكرت ماريا لمطالب اللمبارديين وتبرأت منها ، وبالتالي حلت الامبراطور هنري من وعده ، وفشلت مناورات اللمبارديين الذين كان يحدوهم الامل في الاستفادة من الحالة السيئة التي كان عليها الامبراطور

(١) Valenciennes, op. cit., pp. 349-55.
(٢) Ibid, p. 355.
(٣) Ibid, p. 363.
(٤) Ibid, pp.367-69 .

وجيشه فى أن تكون لهم السيادة على مملكة سالونيك .

وطلبت الامبراطور هنرى أن توج ديمتريوس ملكا على سالونيك فى يناير ١٢٠٩ م ، وأقسم له بياندرات — باعتباره وصى على سالونيك — يمين الطاعة والولاء من جديد ، حقيقة أن الامبراطور هنرى كان كريما مع بياندرات وترك له منصب الوصاية ، ولكن للمدة التى تحددها الامبراطورية فحسب (١) .

عندئذ بدا وان الصراع مع اللمبارديين قد هدأ ، خاصة وان الكونت بياندرات أظهر حسن نيته للامبراطور هنرى ، بأن وعده أن يرد للامبراطورة ماريا قلعتى سيرس Serres — الى الشمال الشرقى من سالونيك — وكريستوبوليس فى مقدونيا ، وعندما طلبت الامبراطورة من بياندرات أن يؤكد حقها ، فما كان منه الا أن اعطاها خاتما كان فى يده ، وبذلك رد لها مملكة سالونيك اذ كان هذا الخاتم يرمز بمالكها (٢) .

ترك اللمبارديون بعد ذلك مقدونيا ، واتجهوا نحو الجنوب الى تساليا ، حيث اتخذوا من لاريسا Larissa مركزا لقتال الامبراطور هنرى ، وعندما علم الامبراطور بذلك لم يتردد فى أن يعهد بحراسة سالونيك الى رئيس اساقفتها المنتخب حديثا وهو وارين Warin(٣) ورحل مع بعض فرسانه من سالونيك متجها الى لاريسا لقتال اللمبارديين . وبعد صراع حمى بين الامبراطور واللمبارديين عند جسر لاريسا نجح الامبراطور فى الاستيلاء على الجسر وفر اللمبارديون الى قلعتهم . وعندئذ أصبحوا تحت رحمة الامبراطور الذى عاملهم — رغم ذلك — باحسان ولطف ، وسمح لهم بالخروج من القلعة ومعهم ممتلكاتهم (ابريل ١٢٠٩ م) (٤) . على أن هذا الحلم لم يمنع من

---

١) Valenciennes, op. cit., p. 369.,
Estoire de Eracles Empereur, dans . R.H.C.,
Historiens Occidentaux, 2, pp.389-90 .

٢) Valenciennes, op. cit., pp.371-73.

٣) عن وارين رئيس اساقفة سالونيك انظر :
Longnon (éd), Henri Valenciennes, p.76, note 3.

٤) لمزيد من التفاصيل أنظر :
Henri Valenciennes, pp. 393-99.

كرم الاخلاق الذى اتصف به الامبراطور هنرى فحسب ، ولكن ينبع أيضا من حكمة سياسية ، فقد كان الامبراطور يدرك تماما أن الامبراطورية اللاتينية ليس لديها من الفرسان العدد الكافى للاستمرار فى حرب اللمبارديين ، هذا فضلا عن رغبة مستشارى الامبراطور وعلى رأسهم كونون بيتون وانسو كاييه Anseau Cayeux والمؤرخ فيلهاردوان فى تهدئة الصراع مع اللمبارديين وتسكينه (١)

وفى مايو ١٢٠٦ عقد الامبراطور هنرى اجتماعا فى رافنكا Ravenique (٢) وذلك على أمل الصلح مع السادة اللمبارديين ، ولكن لم يحضر منهم سوى الكندسطبل امى بوفا Amé Buffa الذى أبدى أسفه وندمه ، وقدم الطاعة والولاء للامبراطور ، وحصل على اقطاعه فى الحال . وفى اليوم التالى للاجتماع وصل جوفرى فيلهاردوان فاتح المورة ، واوتودى لاروش دوق أثينا ، وعامة اقطاع البلاد الواقعة الى الجنوب من مملكة سالونيك ، وأعلن هؤلاء ولاءهم للامبراطور وخاصة وأنهم كانوا يكرهون اللمبارديين ، وتمنوا منذ وفاة بونيفاس مونتفرات ملك سالونيك (١٢٠٧م) أن يصبحوا أفصالا للامبراطور اللاتينى فى عاصمته البعيدة فى القسطنطينية ، على أن يتحولوا الى اقطاعيين تابعين لملك ايطالى مجاور (٣)

أما الكونت بياندرات فقد اضطر فى نهاية الأمر الى الخضوع للامبراطور ، وقبل الامبراطور هنرى قسمه الجديد بتقديم الطاعة والولاء ، وأعاد اليه الامبراطور منصب الوصاية على مملكة سالونيك — على أنه يبدو محتملا أن بياندرات لم يبق طويلا فى منصبه ، اذ مالبث أن عاد الى ايطاليا حيث ربط مصيره بمصير الامبراطور الشاب فردريك الثانى (يونيه ١٢٠٩م) ، واستمر بياندرات كذلك فى مجهوداته من أجل اقطاع وليم مونتفرات بان يطالب بسالونيك (٤) .

(١) Valenciennes, op. cit., p.405., Longnon, op. cit., p. 109.

(٢) وهى لاميا Lamia الان ، وتقع فى وادى اسبرخيوس Spercheios بالقرب من لاريسا . انظر : Longnon (éd), Henri Valenciennes, p. 107, note. I.

(٣) Valenciennes, op. cit., p. 407., Finlay, op. cit., 4, pp. 108-109.

(٤) Longnon, op. cit., p. 111., Setton, op. cit.,2,p.208.

وعلى هذا النحو توقفت حرب الامبراطور هنرى مع اللمبارديين فى سالونيك ، تلك الحرب التى كلفته الكثير من الجهد من أجل مواجهة مكائد الكونت بياندرات الوصى على مملكة سالونيك . والحق أن الامبراطور هنرى بانتصاره على اللمبارديين نجح فى تثبيت دعائم الامبراطورية اللاتينية حتى أن جروسيه Grousset قارنه ببلدوين الاول (١١٠٠ ـ ١١١٨ م) ملك بيت المقدس ، فيذكر أنه مثلما كان بلدوين الاول قد وحد تحت سلطاته الامارات الصليبية فى بـــلاد الشام ، فان هنرى فلاندر امبراطور القسطنطينية ، كان قد وطد السلطـــة الامبراطورية على مملكة سالونيك ، وعلى الامارات اللاتينية التابعة للامبراطورية اللاتينية فى المورة وأثينا (١) .

ومع ذلك فقد أتى النظام الاقطاعى بآثاره السيئة على الامبراطوريـــــة اللاتينية فى القسطنطينية ، ومن هذه الاثار تلك النزاعات التى قامت بـــين الامراء وأتباعهم ومنها على سبيل المثال كما ذكرنا النزاع بين الامبراطـــور بلدوين فلاندر والمركيز بونيفاس مونتفرات ، ثم النزاع بين الامبراطور هـــنرى فلاندر واللمبارديين فى سالونيك ، حقيقة أن هذه النزاعات قد قضى عليهـا بعض الشئ بفضل حكمة بعض العقلاء وحماستهم ، وبفضل مهارة الامبراطـــور هنرى فلاندر الا أنه مما لا شك فيه أن هذه النزاعات كانت عاملا من عوامـــل ضعف الامبراطورية اللاتينية وسقوطها فى النهاية ، اذ استنفدت هـــذه الصراعات موارد الامبراطورية المالية من ناحية ، وقللت من عدد رجالها من ناحية أخرى ، وفى الوقت ذاته لم تصل الى الامبراطورية أية مساعدات سواء مـــن المال أو من الرجال ، وبهذا تحكمت مسألة المساعدات المالية والبشريـــة فى تاريخ الامبراطورية اللاتينية كله .

---

١) Grousset, L'empire du Levant, p. 456 .

خطر البلغار والكومان وأثره فى سقوط الامبراطورية اللاتينية :

أقام البلغار فى جنوب الدانوب منذ نهاية القرن السابع ، وأصبحوا منذ ذلك الحين يشكلوا خطرا دائما على الامبراطورية البيزنطية . ففى عام ٩٢٤ م كان القيصر البلغارى سيمون Symeon أمام القسطنطينية حيث وقف يعلن لجنوده أنه " قيصر البلغار وامبراطور الرومان Tsar de Bulgars et autocrator Romains "(١) وفى نهاية القرن العاشر ، سيطر القيصر البلغارى صاموئيل Samuel على البانيا ومقدونيا ، واكتسح تساليا وبلاد اليونان ، وتمكن من أن يحطم اسطورة الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى " سفاح البلغار " (٢) .

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، وعلى وجه التحديد فى عام ١١٩٧م ، انبعثت الامبراطورية البلغارية الثانية على يد القيصر البلغارى كالوجان Kalojean أو جوانيتزا Johannitsa (١١٩٧ — ١٢٠٧م) الذى تلقب " بقيصر البلغار والولاش " ، وحصل أيضا على لقب " سفاح الرومان " من جراء غاراته البشعة ضد البيزنطيين فى مقدونيا وتراقيا قبل عام ١٢٠٤ م ، ومن ثم أصبح كالوجان عدو بيزنطه اللدود (٣) .

قام كالوجان بمحاولة للتقرب من روما ، فكتب للبابا : " كل رغبتنا هى العودة الى صدر الوحدة الكاثوليكية ، ولكن نود أن نحصل منكم بصفة خاصة على التاج الذى حمله قادة الامة قديما " (٤) رحب البابا أنوسنت الثالث

١) Miller, "The rise and fall of the first bulgarian empire", in cam. Med. Hist., 4, p. 238., Diehl, Dans L'Orient byzantin, p. 183.

٢) Miller, The rise, p. 240., Diehl, op. cit., pp.183-84.

٣) لمزيد من التفاصيل عن قيام الامبراطورية البلغارية الثانية انظر :

Acropolitae, Annales, in C.S.H.B., p. 26 ,

Wolff, " The second empire of Bulgar", in Speculum, Vol. 24 (1949), pp. 167-97.

٤) Voynov and Panayotov (éditors), Documents and materials on the history of the Bulgarian people , pp.55-56., Fliche, Histoire de L'Eglise, 10, p. 73.

(١١٩٨ — ١٢١٦ م) بهذا العون الذي يحقق رغبته في أن يمد نفوذه في البلقان ، وأن يضمن عن طريق البلغار الطريق الى الاراضي المقدسة . واعترف البابا أنوسنت في خطابه المؤرخ في ٢٥ فبراير ١٢٠٤ م بكالوجان ملكا على البلغار ، بل وسمح له بأن يضرب عملة باسمه (١) .

اتجه كالوجان كذلك نحو الصليبيين ، وكان قد نظر الى وصولهم الى القسطنطينية على أنه من قبيل العناية الالهية ، وكان لديه أمل كبير في التحالف معهم ، ولهذا أرسل الى كبار البارونات الصليبيين يخبرهم أنه سيعتبر أرضه ومملكته الخاصة منهم له ان هم توجوه ملكا ، ووعدهم بالقدوم والوقوف الى جانبهم في مائة ألف رجل ليكون عونا لهم في استيلائهم على القسطنطينية . (٢) ولكن صده الصليبيون بطريقة متكبرة متعالية ، وهددوه بغزو أراضيه ورده الى حالته الاولى ، وذلك لان املاكه جزءا ملك بيزنطة ، وبالتالي فهي للاتين في القسطنطينية (٣) .

ومما لاشك فيه أن اللاتين وقعوا بمسلكهم هذا تجاه القيصر البلغاري كالوجان في خطأ سياسي فادح ، حتى الامبراطورية اللاتينية الناشئة من حليف قوى ، وجعل من البلغار اعداء للاتين في القسطنطينية . وهكذا قدر أن تكون العلاقات الاولى بين الامبراطورية البلغارية والامبراطورية اللاتينية — وكلاهما يحظيها البابا برعايته — علاقات عدائية .

وبدأ يساور كالوجان وخلفاءه من بعده فكرة الاستيلاء على القسطنطينية ، وتأسيس امبراطورية بيزنطية بلغارية أرثوذكسية مثلما كان يراود سلفهم سيمون من قبل . لذلك عزم كالوجان في خطته للعمليات القادمة ، أن يتقدم كمدافع عن الارثوذكسية ، وأن يبذل أقصى ماوسعه الجهد في نفس الوقت لاعادة للامبراطورية البيزنطية بعد أن كان عدوها اللدود ، وأصبح هذا العمل هو المحرك الرئيسي لجميع مشاريعه ضد الصليبيين (٤) .

(١ Patrologia Latina, T.215, pp.277-79.,
Fliche , op. cit., 10, pp.73-74.

(٢ روبرت كلاري ، نفس المصدر ، ص ١٠٣ .

(٣ Nicetas, Historia, in C.S.H.B., pp.808-809.,
Wolff, The Second empire of Bulgare, p. 202.

(٤ Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, 2, p. 179.

نشأ تعاطف شديد بين البلغار والبيزنطيين ، ودارت مفاوضات سرية بينهما في شبه جزيرة البلقان ، ويقال أن البطريرك السابق حنا كاماتيروس Jean Camaterus الذي كان مقيما في بلاد البلغار — منذ سقوط العاصمة البيزنطية عام ١٢٠٤م — لعب دورا هاما في عقد التحالف البيزنطي البلغاري (١٢٠٤ — ١٢٠٥م) . وما لبث كالويان أن وضع جيوشه التي رفضها اللاتين تحت تصرف البيزنطيين ، وخاصة بعد أن أبدوا استعدادهم لان يعترفوا به كامبراطور لهم ، وان يقسموا له يمين الطاعة والولاء على أنه سيدهم ان هو حرر الارض البيزنطية من اللاتين . وهكذا دفع اللاتين كلا الخصمين أي البلغار والبيزنطيين كل في احضان الاخر ، وبدأوا يتلقون الدروس الاولية للدبلوماسية الخرقاء (١) .

فتحريض من كالويان شبت فتنة في مدينة ديديموتيخوس Didymotichos في تراقيا في فبراير عام ١٢٠٥م ، وكانت هذه المدينة اقطاع الكونت سانت بول Hugues St. Paul ، الذي وضع بها حامية من رجاله ، فاستغل البيزنطيون حلفاء كالويان فرصة ضعف هذه الحامية ، وقتلوا — بمساعدة البلغار — عددا كبيرا من رجال الكونت سانت بول ، وأسروا البعض الاخر ، أما الباقي فقد هربوا الى أدرياتوبل — على بعد ٢٠٠ ك ٠م من القسطنطينية — وما لبثت الفتنة أن عمت معظم أجزاء تراقيا (٢) .

وصلت أخبار هذا التمرد تباعا الى الامبراطور بلدوين في القسطنطينية بعد أن تشاور الامبراطور مع دوج البندقية والبارونات اللاتين ، تقرر استدعاء الفرق الامبراطورية التي عبرت الى آسيا الصغرى لفتح بعض اقاليمها ، وذلك نظرا لقلة ما لديهم من فرسان في القسطنطينية . وأرسل الامبراطور بالفعل لاخيه هنري الذي كان على رأس الجيوش الامبراطورية في آسيا الصغرى ، يأمره بالعودة الى القسطنطينية بجيوشه وفرسانه (مارس ١٢٠٥م) . وفي انتظار وصول النجدات ، أرسل الامبراطور بلدوين المؤرخ فيلهاردوان على رأس

---

(١) Villehardouin, op. cit., p. 199., Vasiliev, op. cit., 2, p.179., Wolff, The second , p. 202 .

(٢) Villehardouin, op. cit., pp.199-201.

عدد قليل من الفرسان الى تراقيا . وبالبث الامبراطور أن اتجه بفرسانه الى تيلمبارديوان على بعد ٤٠ ك.م من أدريانوبل . ثم قرروا حصار أدريانوبل دون انتظار وصول الجيوش الامبراطورية من آسيا الصغرى (١) .

وفى أوائل ابريل ، وصل الخبر باقتراب القيصر البلغارى كالوجان ، الذى أتى على رأس جيش جرار ، يضم بين صفوفه عددا كبيرا من القوات المساعدة من الكومان (٢) ـ لنجدة أدريانوبل وانقاذها من أيدى اللاتين . وفى يوم الاربعاء الموافق ٢ أبريل ، أرسل كالوجان الذى كان على بعد ٢٠ ك.م من أدريانوبل ـ فرقة من رجاله الكومان للانقضاض على القطعان والخيول التى كانت ترعى أمام معسكر اللاتين . تخرج الفرسان اللاتين من معسكرهم بلا نظام ، وطاردوا الكومان فى حماقة وجنون ، وعندما أوشكوا العودة الى معسكرهم ، كر عليهم الكومان بشدة ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة ، وأضرار بالغة فى الخيل (٣) .

وتشاور البارونات اللاتين ، وقرروا انه فى حالة الهجوم الجديد من جانب كالوجان ورجاله من الكومان ، فانهم سوف يصطفون أمام المعسكر دون أن يتحركوا من أماكنهم فى انتظار وصولهم ولكن لسوء الحظ أن هذا القرار الحكيم لم ينفذ ، اذ أن أحد قادة الجيش نفسه خالف هذا القرار وهو الكونت لويس من بلوا ، الذى تسبب بتهوره فى كارثة الحت بالجيش اللاتينى كله ، فقد أسر الامبراطور اللاتينى بلدوين فلاندر ، ولا يعرف أى مصير آل اليه بعد ذلك (٤) ، وسقط عدد من رجاله فى الميدان ، وعلى رأسهم الكونت لويس بلوا ، وفارسه المخلص جان فريايز Jean Frieize

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر :

Villehardouin, op. cit., pp.203-207., Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp.811-12., Estoire de Eracles empereur, dans R.H.C. , Historiens Occidentaux, 2, p. 281.

٢) عن جماعات الكومان انظر ماسبق ص ح ، حاشية ١ .

٣) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٥٠ .

Villehardouin, op. cit., p. 211.

٤) حول المصير الذى آل اليه الامبراطور بلدوين انظر :

Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., p.847., Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 24., Wolff, " Baldwin of Flanders", in Speculum (1952), p. 290 .

واتين بيرش Etienne Perche ، والكونت نيفير Nevers ، وروبرت رونسوى Robert Ronsoi وغيرهم كثيرين من صفوة فرسان اللاتين (١) .

اضطر اللاتين ازاء تلك الكارثة الى رفع الحصار عن أدريانوبل ، وانسحبوا تحت جنح الظلام ، وفى مقدمتهم دوج البندقية ، وفى المؤخرة المؤرخ فيلهاردوان ليغطى انسحاب الجيش ، وانسحبوا فى صمت الليل ، مصطحبين معهم جميع رجالهم من المشاة والخيالة ، ومن الجرحى والمصابين ، واتجهوا نحو القسطنطينية (٢) .

وهكذا بعد عام واحد من الغزو اللاتينى لبيزنطة ، انهار الجيش اللاتينى تماما على ايدى البلغار والكومان ، وأصبح مصير الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وقدرها بوجه — لبعض الوقت — بين أيدى القيصر البلغارى ، وذاق اللاتين مرارة الخطأ الدبلوماسى الفادح الذى وقعوا فيه ، عندما رفضوا يد المساعدة التى قدمها لهم هذا القيصر البلغارى كالوجان .

وعلى النقيض من ذلك كانت معركة أدريانوبل (أبريل ١٢٠٥م) بداية علامة واضحة خير للامبراطورية البلغارية الناشئة اذ فتحت أمام كالوجان توقعات النجاح ، وبدت الظروف أكثر ملائمة لتحقيق خططه الطموحة الخاصة باقامة امبراطورية كبيرة بيزنطية — سلافية فى شبه جزيرة البلقان لتحل محل امبراطورية اللاتين (٣) .

ظل كالوجان يضغط على اللاتين ، فبعد أن ضرب قواتها ، اتجه على رأس جيش من البلغار والبيزنطيين نحو الغرب الى مملكة سالونيك ، التى أمل كالوجان أن يصبح سيدا عليها فى غياب ملكها بونيفاس ، الذى كان يقوم بحصار نابلى Nauplie فى ذلك الوقت ، والذى ما ان علم بهذا الخبر حتى عاد مسرعا الى عاصمته . غير أن بونيفاس اعتكف فى سالونيك ، وترك الموجة البلغارية تدمر وتخرب مدن المملكة فى طريقها ، على أن كالوجان مالبث أن

١) انظر خطاب الامبراطور هنرى للبابا المنشور فى :
Patrologia Latina . , T.215, Col. 707.,
Villehardouin, op. cit., pp. 213-15.
روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص
٢) Villehardouin, op. cit., p. 217.
٣) Setton , op. cit., 2, p. 231.

عزم على العودة الى بلاده . وانتهت على هذا النحو فى سبتمبر ١٢٠٥م الحملة الاولى التى قام بها كالوجان ضد اللاتين فى القسطنطينية (١) .

على أن كالوجان سرعان ما عاد فى منتصف يناير من العام التالى (١٢٠٦م) بجيش هائل ليغزو الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية بنفسه ، فساد الرعب والفزع فى سائر تراقيا ، وخضعت له غالبية المدن ، وعندما حاولت مدينة أبروس (٢) الهجوم ، أعدم كالوجان المدافع عنها ويدعى بيجو فرانسور Bégue Fransures ، وساق الضعاف من سكانها واطفالها الى بلغاريا حيث القى بهم فى السجن (٣) .

وسرعان ما سقطت فى يد القيصر البلغارى مدن رودستو Rodesto (٤) وهراقلية ، وتزورولون Tsoeroulon (٥) ، بل وصلت جيوش القيصر البلغارى حتى أسوار القسطنطينية ، وقاطت من يقيمون بحراسة مداخل المدينة . ولم يحتفظ اللاتين نتيجة لهذا الهجوم القاتل من ممتلكاتهم سوى بالقسطنطينية وسليمبريا Selymbrio (على بعد ٦٠ ك.م الى الغرب من القسطنطينية) التى قام بالدفاع عنها ماكير سانت منهولد ، ومدينة فيزيا Vizya - على سهل ماريتشا (على بعد ١٢٠ ك.م من شمال غرب أدرياتوبل) - التى كان أنسوكاييه موكل بامرها (٦) .

وهكذا أصبحت تراقيا كلها غنيمة للقيصر البلغارى كالوجان ولرجاله من الكومان والبلغار الذين سلبوا المدن ونهبوها ، وخربوا القصور ، وحطموا المراكز ، واصطحبوا أهلها فى عبودية . وبعد أن تفشى التخريب والتدمير من شهر فبراير حتى أبريل عام ١٢٠٦م ، قرر الكومان العودة الى بلادهم مع الغنيمة ، أما كالوجان فقد ولى وجهه وجهة أخرى ، اذ قدمت له كل

---

١) تقع أبروس Apros على بعد ٢٠ ك.م تقريبا الى الغرب من رودستو . انظر :
Longnon (éd), Henri Valenciennes, p.57, note.2.

٢) Villehardouin, op. cit., pp.245-47.

٣) تقع رودستو على الساحل الشمالى لبحر مرمرة ، على بعد ١٢٥ ك.م الى الغرب من القسطنطينية . انظر :
Longnon (éd) , Henri Valenciennes, p.57, note. I.
Vi

٤) تزورولون مدينة فى تراقيا ، تقع على بعد ١٠٠ ك.م من القسطنطينية انظر ما سبق ص ٤٠ ، حاشية ٢ .

٥) Villehardouin , op. cit., pp.249-53.,
Nicetas, op. cit., in C.S.H.B., pp. 831-35.

من أدريانوبل وديديموتيخوس عناء في طريق العودة . ولهذا عزم كالوجان على اتمام حملته في تراقيا باخضاعها لسيادته (١) .

وعندئذ بدأ البيزنطيون يشعرون بالقلق والخوف من جراء صرامة حليفهم البلغاري وعنفه . وخشوا أن يصبح مصير كل من أدريانوبل وديديموتيخوس هو نفس المصير الذي آلت اليه مدن تراقيا الاخرى فلهذا سعوا الى التحالف مع اللاتين في القسطنطينية . وعندما علم كالوجان بأمر التحالف بين البيزنطيين واللاتين في القسطنطينية . ضرب الحصار على مدينة ديديموتيخوس التي دافع عنها أهلها بقوة . وأرسلوا الى هنري فلاندر الوصي على الامبراطورية اللاتينية يطلبون مساعدته . فلبى هنري نداءهم . وخرج على رأس الجيش اللاتيني في ٢٥ يونيو عام ١٢٠٦م لانقاذهم . والحق أن هنري كان متخوفا لقلة رجاله من ناحية . ولعدم ثقته في حسن نوايا البيزنطيين من ناحية أخرى . ومع ذلك حدث أمر لم يكن في الحسبان . فخبر اقتراب الجيش اللاتيني جعل كالوجان يرفع الحصار عن ديديموتيخوس ويرحل عنها . اذ خشى كالوجان أن يقطع هنري ورجاله عليه طريق العودة (٢) .

غير أن كالوجان عاد يغزو تراقيا للمرة الثالثة بجيوش كبيرة من أجل أن يثأر لفشله أمام ديديموتيخوس . فجمع الامبراطور هنري رجاله واستعد للقاء كالوجان . الذي ما ان علم بذلك حتى انسحب من تراقيا . واتجه نحو بلغاريا . ومع ذلك لم ييأس الامبراطور هنري من متابعته حتى وصل الى بلاد البلغار . ونجح في الاستيلاء على مدينة ثيرميا Thermae . وخرب مدينة انخيالوس Anchialos على البحر الاسود . ثم عاد الى القسطنطينية بغنيمة وفيرة من الماشية بعد أن نشر الرعب والفزع بين رجال القيصر كالوجان . وحمل التخريب والتدمير الى أراضيه . وبذلك اذاقه من نفس الكأس (نوفمبر ١٢٠٦) (٣) .

١) Villehardouin, p. 253., Longnon, op. cit., p.85.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر :

Villehardouin, op. cit., pp.2 53-59.,
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.26.,
Longnon, op. cit., pp.85-86.

٣) Villehardouin, op. cit., pp.265-71.,
Longnon, op. cit., p. 97.

لجأ القيصر البلغاري كالوجان بعد ذلك الى السياسة البيزنطية المعتادة وهي التحالف مع خصم اعدائه اللاتين وعدوهم اللدود ، وهو ثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٠٤ — ١٢٢٢م) امبراطور نيقيه ، وكانت ثمرة هذا التحالف أن أخبر ثيودور حليفه القيصر البلغاري كالوجان ، بأن الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر في تراقيا مع قليل من فرسانه ، وأن هذه فرصته للتغلب عليه بسهولة ، وخاصة بعد أن اتجه معظم قادته لقتال امبراطورية نيقية في آسيا الصغرى ، تجمع كالوجان جيشا جرارا وغزا الامبراطورية اللاتينية من جديد وللمرة الرابعة ، وبينما انتشر الكومان حول أبواب القسطنطينية ضرب كالوجان الحصار على مدينة أدرياتوبل ، التي لم يكن بها سوى عدد قليل من فرسان الامبراطور هنري ، فطلب هؤلاء الفرسان مساعدة الامبراطور هنري بعد أن أخبروه بحصار كالوجان لهم (١) .

غير أن الامبراطور هنري كان عاجزا في ذلك الوقت عن امداد يد العون والمساعدة للمحاصرين في أدرياتوبل ، ذلك لان ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقية ضيق عليه الخناق من الجانب الاخر ، ولم يكن باستطاعته أن يواجه عدوين في آن واحد ، فرأى أن يواجه ثيودور لاسكاريس أولا ثم يتفرغ لكالوجان . وعلى ذلك فقد ظل كالوجان محاصرا لادرياتوبل ، وكاد أن يستولى عليها ، لولا أن أفصح له الكومان عن رغبتهم في العودة الى بلادهم ، ولم يلبث الكومان أن انفضوا من حوله ، ولم يجرؤ كالوجان بالتالي على البقاء بمفرده محاصرا أدرياتوبل ، ولهذا رفع الحصار عنها ورحل بدوره . وهكذا انقذت أدرياتوبل بمعجزة عظيمة — كما يذكر فيلهاردوان — من بين أنياب القيصر البلغاري كالوجان (٢) .

استمر البلغار في اعتداءاتهم على اللاتين سواء في القسطنطينية أم في سالونيك ، ونجحوا في الايقاع بملك سالونيك بونيفاس مونتفرات (١٢٠٤ — ١٢٠٧م) في كمين ، وكانت النتيجة أن جرح بونيفاس جرحا خطيرا في ذراعه ، وظل ينزف دمه حتى فارق الحياة (٤ سبتمبر ١٢٠٧م) . ولا شك أنه بفقدان بونيفاس مونتفرات حلت بالامبراطورية اللاتينية خسارة

---

(١) Villehardouin, op. cit., pp. 275-77.

(٢) Ibid., p. 283.

فادحة ، فقد كان بونيفاس واحداً من خيرة بارونات الامبراطورية ، ومن أكرمهم كرماً وسخاء " (١) .

استغل كالويان هذا الحادث الاليم بالنسبة للاتين ، وغزا مقدونيا ، واسترد الاراضى التى سبق أن حررها بونيفاس ، ونصب آلاته الحربية أمام سالونيك ، وكان على ماريا المجرية Maria Hongrie أرملة بونيفاس مونتفرات أن تتحمل الحصار بشجاعة ، على أنه فى الوقت الذى استكمل فيه كالويان حلقات الحصار حول سالونيك ، وبلغت الامور نهايتها المرجوة ، وجد القيصر ميتاً فى خيمته صبيحة يوم القديس ديمتريوس (٨ أكتوبر ١٢٠٧ م) . ومن ثم فقد عزى موته الى هذا القديس الذى يعتبر حامى مدينة سالونيك والذى لم يكن ليسمح مطلقا بأخذ المدينة قسرا (٢) .

وبوفاة القيصر البلغارى كالويان ، دب النزاع بين البلغار على العرش البلغارى ، وكان ولى العهد الشرعى وهو حنا آسن Jean Asen صغيرا وبالتالى لم يستطع انتزاع حقه فى العرش ، وهرب مع أخيه اسكندر الى روسيا ، ومن هنالك استمر فى كفاحه من أجل العرش وسط ثلاثة متنافسين وهم : سلاف Slav ومركز قيادته ميلنيك Melnik فى جبال رودوب ، وستريز Strez ومركز قيادته بروسيك Prosek على نهر الفردار ، أما الثالث فهو بوريل Boril الذى تزوج أرملة القيصر كالويان ، واستولى على العاصمة البلغارية ترنوفو ، وما لبث أن توج قيصراً على حساب حنا آسن ولى العهد الشرعى (٣) .

وما أن استقرت الامور لبوريل حتى بدأ يشن الغارات على اللاتين ، ففى مايو ١٢٠٨ م غزا بوريل على رأس البلغار والولاش والكومان تراقيا من جديد فخرج الامبراطور اللاتينى هنرى فلاندر للقائه ، على أن بوريل مالبث أن تراجع

---

١) لمزيد من التفاصيل انظر : Villehardouin, op. cit., pp.299-301

٢) عن الآراء المختلفة حول وفاة كالويان انظر : روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٥٢ .
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.26., Longnon, op. cit., p.100., Setton, op. cit., 2, p.205

٣) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.26., Longnon, op. cit., pp.100-101.

ولم يحاول الاقتراب كما هي عادة البلغار ، فتعقبه الامبراطور هنرى عبر الاراضى البلغارية ، ونجح فى الاستيلاء على مدينة فيروى Veroi على بعد ١٢٠ ك٠م الى الشمال الغربى من أدريانوبل [١] .

هذا فى حين حاول الكومان والبلغار أن يعترضوا طريق بعض الجنود اللاتين الذين هموا لجمع المؤن ، ولهذا أرسل المؤرخ فيلهاردوان — مارشال الامبراطورية — الى الامبراطور هنرى يخبره بأنه سوف يهاجم البلغار فسعد الامبراطور هنرى بسماعه هذا النبأ ، لانه كان يرغب رغبة صادقة فى قتال البلغار حتى يتسنى له الثأر منهم لما حل بشقيقه بلدوين فلاندر وامبراطوريته على أيديهم [٢] .

وفى صباح يوم ١٣ يوليو عام ١٢٠٨م ، وعلى اطراف مدينة فيليبوبوليس Philippopolis التقى جيش بوريل البلغارى الذى يقدر بحوالى ثلاثة وثلاثين ألف جندى ، مقسمين الى ستة وثلاثين فرقة ، بالجيش اللاتينى الذى يقدر بأربعمائة من الفرسان موزعين فى ثمانى عشرة فرقة وكان المارشال فيلهاردوان فى طليعة هذه الفرق والى جواره بطرس براشيو Pierre Bracheux ، ونيكولاس مايلى Nicolas Mailly أما الامبراطور هنرى فقد أخذ على عاتقه حماية هذه الفرق — التى ستتولى عملية الهجوم — من الخلف [٣] .

ولم تستطع فرق بوريل رغم كثرتها العددية أن تتحمل هجوم جماعة متكاملة من الفرسان اللاتين ، فولت هاربة ، وسرعان ما لحقت الهزيمة ببقية فرق بوريل ، وخاصة بعد أن تدخل الامبراطور هنرى ، وقدم للفرقة ما كانت فى حاجة اليه من مؤن ، وأتم بذلك هزيمة البلغار ، الذين أخذ اللاتين فى مطاردتهم حتى غابوا عن أبصارهم [٤] .

(١ Longon (éd), Henri **Valenciennes**, p.30, note (6).

(٢ Valenciennes, op. cit., p. 321.

(٣ Ibid., pp.321-31., Longnon (éd), Henri Valenciennes, pp. 46-47.

(٤ Henri Valenciennes, op. cit., pp.329-331.

ولم يكتف الامبراطور هنرى بالانتصار على بوريل فى فيليبوبوليس ، بل سعى للتحالف مع خصم بوريل وابن عمه سلاف (Escalas - Slav.) الذى كان يطمع بدوره فى الحصول على مساعدة الامبراطور هنرى ، وأمل أن يتحالف معه ضد عدوهما المشترك القيصر البلغارى بوريل ، وكان أن أقبل سلاف على الامبراطور فى خيمته مع كبار بارونانه فى كريتكسيموس Krytximos جنوب فيليبوبوليس ، وخر ساجدا أمامه ، وقبل قدميه ، وأقسم له يمين الطاعة كما لو كان سيده الشرعى[1] .

ورغبة فى تأكيد هذا القسم ، طلب بوريل من الامبراطور يد ابنته غير الشرعية ، وكان ان أجابه الامبراطور الى طلبه بشرط أن يكون بوريل من رجاله الاوفياء ، وان يؤدى له الخدمة العسكرية ، ووعد الامبراطور بوريل بأن " يكون سيدا على بلغاريا ، ان أراد الله وما سمح بها " . كما أهداه الامبراطور هنرى حصانه الخاص ، وترك الى جواره شقيقه يوستاش Eustache[2] مع فرقتين من الفرسان أحدهما بيزنطية والاخرى فرنسية . وعلى هذا النحو دخل سلاف فى دائرة عملاء الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية[3] .

وكان على الامبراطور هنرى أن يوجه انظاره بعد ذلك نحو خصمه البلغارى الثانى وهو ستريز Strez الذى استقل بقلعتى بروسيك Prosek وستروميك Strumica فى وادى الفردار ، والذى يحكم جيرته لمملكة سالونيك أصبح عدوا للامبراطورية اللاتينية ، اذ انضم الى ميخائيل ابيروس (١٢٠٤ — ١٢١٥م) من أجل تدمير مملكة سالونيك ، غير أن الامبراطور هنرى كان يقظا لهما ، ونجح فى أن يصد هجماتهما المشتركة ، ويرغمهما على الانسحاب ، بل واضطرهما أن يقسما له يمين الطاعة والولاء (ربيع عام ١٢١١م) .

---

١) Valenciennes, op. cit., p. 333.

٢) لم يصل يوستاش شقيق الامبراطور هنرى الى الشرق الا مؤخرا ، فقد ظهر فقط فى خريف عام ١٢٠٦م ، وقد وكل اليه الامبراطور هنرى أمر المهمات الهامة فى آسيا الصغرى نظرا لجرأته وشجاعته . كما عهد اليه بالقيام بالحملات ضد البلغار . انظر :
Longnon (éd), Henri Valenciennes, p.50., Note.I.

٣) Valenciennes, op. cit., pp.333-35.

على أن ستريز مالبث أن حنث فى يمينه ، وحالف القيصر البلغارى بوريل لشن الهجوم على مملكة سالونيك من جديد ، ولكن تصدى لهما هذه المرة كل من يوستاش شقيق الامبراطور هنرى ، والامير بيرتولد كاتزينلنبوجن Berthold Katzenelnbogen ، وانظم اليهما ميخائيل امبراطور ابيروس الذى كان متحالفا مع اللاتين فى ذلك الوقت ، وتصدوا جميعا لستريز الذى يؤيده بوريل ، وأنزلوا به الهزيمة فى سهل بلاجونيا ، فترك ستريز معظم رجاله قتلى فى هذا السهل وولى هاربا (١) .

وحدث أن جمع الامبراطور هنرى رجاله وباروناته ، وتشاور معهم فيما ينبغى عليه ان يفعله ازاء هؤلاء البلغار الذين استمروا يشنون اغاراتهم على الامبراطورية اللاتينية والذين قتلوا أخاه بلدوين وصفوة الفرسان اللاتين .

ويذكر روبرت كلارى أن البارونات نصحوه بأن يتزوج من ابنة القيصر بوريل ، غير أن الامبراطور تردد ، ولكن الح عليه البارونات ، لما فى هذا الزواج من ميزة كبيرة ستعود على الامبراطورية وخاصة وان البلغار من أعنف اعداء الامبراطورية فوافق الامبراطور وبعث بفارسين من وجوه رجالاته الى القيصر البلغارى بوريل ، الذى أجاب طلب الامبراطور قائلا : " انه سوف يرسل ابنته عن طيب خاطر الى الامبراطور " (٢) .

وخرج الامبراطور هنرى لاستقبال العروس البلغارية وصحبته البارونات ، وبعد أن رحب الجميع بها وقوبلت بأحر الترحيب ، تم الزواج . واذا كان الامبراطور هنرى قد قبل هذه الزيجة لحماية امبراطوريته من اغارات البلغار وقيصرهم بوريل ، فان بوريل كان بدوره فى حاجة ماسة للحصول على مساعدة من الخارج لمواجهة المؤامرات التى يحيكها ضده حلا آسن صاحب الحق

---

١) انظر فى خطاب الامبراطور هنرى الذى نشره :
Prinzing, " Der brief Kaiser Heinrichs von Konstantinople, Von 13 Januar 1212", in Byzantion (1973), p. 414.
وترجمته العربية فى ملاحق الرسالة .

٢) روبرت كلارى ، نفس المصدر ، ص ١٠٣ .

العرش في العرش البلغاري ، والذي ذهب الى روسيا ومكث هناك فترة ، ولكنه مالبث أن عاد مصطحبا معه بعض الروس لينتزع الحكم من بوريل ، ونجح بالفعل في أن يستولي على العاصمة ترنوفو ، وعندما حاول بوريل الهرب لم يمكنه آسن من ذلك ، اذ قبض عليه وسمل عينيه ، وأصبح ملكا على بلغاريا بلا منازع (عام ١٢١٨م) (١) .

وآثر القيصر البلغاري الجديد حنا آسن (١٢١٨ — ١٢٤١ م) جانب اللاتين ، وسلك مسلك عمه كالويان الاول تجاههم ، فتزوج من أميرة لاتينية تمت بصلة قرابة لاسرة كورتناي Courtenay الامبراطورية ، كما سمح للامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناي Robert Courtenay (١٢٢١ — ١٢٢٨م) بالمسير اراضيه في آمان بالجيش الذي قدم على رأسه من الغرب الاوربي متجهـا نحو القسطنطينية (٢) .

وبعد وفاة الامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناي ، أمل حنا آسن أن يصبح وصيا على الامبراطور القاصر بلدوين الثاني (١٢٢٨ — ١٢٦١م) ، وعرض على اللاتين ازاء توليه منصب الوصاية أن يساعد الامبراطور القاصر بلدوين الثاني في أن يسترد جميع مافقدته الامبراطورية اللاتينية من اقاليم في الغرب — من ايدي ثيودور انجيلوس امير ابيروس (١٢١٥ — ١٢٣٠م) ، وان يقدم ابنتـه هيلينا Helena كزوجة لبلدوين الثاني وريث العرش الامبراطوري ، وبالتالي يصبح حنا آسن حما للامبراطور المقبل ووصيا عليه ، وأمل حنا آسن بذلـك أن يستولي على القسطنطينية ويحقق بذلك حلمه دون سفك للدماء (٣) .

ورأى بارونات القسطنطينية أن تسليم منصب الوصاية للقيصر البلغاري حنا آسن مغامرة ، فقد يطمع القيصر في الاحتفاظ بالامبراطورية لنفسه ، ولعل ما أكـد لهم ذلك ما جاء في نقش عثر عليه في كنيسة الاربعين شهيدا عام ١٢٣٠م ، والذي سجل فيه حنا آسن انتصاره على امير ابيروس ثيودور انجيلوس ، ويشير فيه

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.35-36.

(٢) Nicol, The fourth , p.307, Cam. Med.Hist.,4, p.428.

(٣) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 48., Setton, op. cit., 2, p. 216., Vasiliev, op. cit., 2, p.197.

حنا آسن الى أنه لم يكن يعتبر الامبراطورية اللاتينية الا تابعا خاضعا لـــه : " ان اللاتين خضعوا لمظفنى ، وليس لهم قيصر سواى ولن يستمروا فى البقاء الا بفضلى ".(١)

لذلك احيط بارونات القسطنطينية خطط حنا آسن ، وجعلوا حنا بريـــن Jean Brienne ـ ملك بيت المقدس السابق ـ وصيا على الامبراطـــور القاصر بلدوين الثانى ، فسخط القيصر حنا آسن على اللاتين من جراء تصرفهـــم هذا ، وانقلب ضدهم وتحالف مع امبراطور نيقيه حنا فاتاتزيس Jean Vatatzes (١٢٢٢ ـ ١٢٥٤م) ، واشترك معه فى حصار القسطنطينية مرتين عامـــى ١٢٣٥م ـ ١٢٣٦م ولكن بدون جدوى ، وذلك بفضل تدخل البابا جريجورى التاسع من ناحية ، ومساعدة جوفرى فيلهاردوان Geoffroy Villehardouin امير المورة من ناحية ثانية ، فضلا عن مهارة حنا برين العسكرية (٢) .

على أن حنا آسن ما لبث أن ترك حليفه امبراطور نيقية حنا فاتاتزيس ، وذهـــب يعمل على انقاذ الامبراطورية اللاتينية ، وخاصة بعد أن أدرك أن عودة الامبراطور البيزنطى الى القسطنطينية ستعود عليه بالضرر أكثر منه بالنفع . وفى عـــام ١٢٣٧م ، سمح حنا آسن لفرقة من الكومان أن تعبر نهر الدانوب وتدخـــل فى خدمة اللاتين ، وفى نهاية هذا العام قاد حنا آسن جيشا من البلغـــار بل ومن اللاتين لحصار مدينة تزوريلون Tzoerouloa احدى القلاع الرئيسية التابعة لامبراطور نيقية حنا فاتاتزيس فى ثراقيا . غير أن موت زوجة القيصـــر آسن وابنه وبطريركه ، جعله يرفع الحصار عن هذه المدينة ، كما جعله يظـــن أن ذلك انتقام الاله منه لخيانته لامبراطور نيقية ، لذلك عاد آسن وجـــدد ثانية تحالفه معه من جديد (٣) .

مات القيصر البلغارى حنا آسن فى عام ١٢٤١م ، وابتلى البلغـــار بالغزو المغولى ، فضعفت دولتهم وتحللت ، وخاصة بعد أن خلف حنا آســن ابنه القاصر كاليمانوس Callimanus (١٢٤١ ـ ١٢٤٦م) (٤) .

---

١) انظر النص الكامل لهذا النقش فى الفصل الثانى ص ١٠٩ .
٢) انظر ما سبق ص ٨١ ـ ٨٣ .
٣) Acropolites, op. cit., in C.S.H.B., pp.61-62.
٤) Ibid., p.69.

وبدأت امبراطورية نيقية وامارة ابيروس تتوسع على حساب البلغار ودولتهم ، بعد أن كانت تتوسع على حساب الامبراطورية اللاتينية •

وهكذا يمثل عام ١٢٤١ م نقطة تحول في تاريخ الامبراطورية اللاتينية اذ استراحت من كابوس طالما أرقها وعكر عليها صفو حياتها • وبدأت الامبراطورية تنعم بالهدوء والسكينة – الى حد ما – بعد أن فقدتها منذ أن تولى كالوجان العرش البلغاري وحتى وفاة حنا آسن عام ١٢٤١م • على أنه مما تجدر الاشارة اليه ان غارات البلغار والكومان على الامبراطورية اللاتينية كان لها أثرها في اضعاف الامبراطورية وانهيارها ثم سقوطها في النهاية • فقد فقدت الامبراطورية خلال هذه الغارات زهرة فرسانها وعلى رأسهم الامبراطور اللاتيني بلدوين فلاندر (١٢٠٤ – ١٢٠٥ م) وملك سالونيك بونيفاس مونتفرات (١٢٠٤ – ١٢٠٧ م) في وقت كانت تعاني فيه من نقص في الرجال • كما تعرضت مدن الامبراطورية بسبب هذه الغارات للتدمير والتخريب على ايدي البلغار • مما ترك موقف اللاتين مهزوزا للغاية •

* * *

امبراطورية نيقية واسترداد القسطنطينية ١٢٦١م :

نجح الامبراطور حنا فاتاتزيس Jean Vatatzes (١٢٢٢ـ١٢٥٤م) امبراطور نيقية خلال فترة توليه الحكم فى اعادة الوحدة البيزنطية ، وطرد اللاتين من بيجى Pigae آخر ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى عام ١٢٤١م ، بـل وحصل على مساعدة قوية من الامبراطور فردريك الثانى ، وتزوج من ابنته كونستانس (١٢٤٤م) ففردريك الثانى كان يبغض البابا ويكرهه ، وكان الاخير حاميـا للامبراطورية اللاتينية ولم يكن يرغب فى أن يترك القسطنطينية للبيزنطيين لحظـة واحدة (١) .

وكان حنا فاتاتزيس نشطا بصفة خاصة فى أوربا ، ففى عام ١٢٤٢م ظهـر خارج أسوار سالونيك وأجبر حنا ابن ثيودور انجيلوس امير ابيروس ، على أن يتخل عن لقب امبراطور ويكتفى بلقب ديسبوت Despot ، بل ويصبح تصلا تابعـا لامبراطورية نيقية . أما فى عام ١٢٤٦م فقد أعاد فاتاتزيس الهجوم علـى سالونيك وطرد ديمتريوس منها ، ثم انقض على البلغار ، واستولى منهم علـى جزء كبير من مقدونيا . وفى العام التالى (١٢٤٧م) حرر فاتاتزيس اللاتين من فيزيا Visya وتزوروليون Tzocroulon ، وأخيرا ارتبط فاتاتزيـس فى تحالف اسرى مع ميخائيل الثانى امير ابيروس . وعلى ذلك فقد آمن فاتاتزيس جانب ابيروس وبلغاريا بل والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية التى كانـت تلفظ أنفاسها الاخيرة ، فحتتها كانت عظيمة اذ رهن بلدوين الثانى آخـر أباطرتها ابنه فيليب للتجار البنادقة من أجل الحصول على قرض يفى بحاجتـه من المال ، بل وانه بشهادة جريجوراس كان على درجة من الفقر دفعته لان ينتزع خشب اسقف القصور للتدفئة به (٢) .

مات حنا فاتاتزيس عام ١٢٥٤ ، تاركا امبراطورية نيقية دولة قوية ناجحـة ، تحيط ببقايا الامبراطورية اللاتينية الضعيفة من جميع الجهات ، ولم يبـق سوى أن تفتح القسطنطينية فقد اتخذ فاتاتزيس كل الخطوات الضرورية لتحديـد هذه النهاية ، ولذا فقد استحق عن جدارة أن يكون صاحب الفضل الرئيسى فـى اعادة العاصمة البيزنطية ، والممهد الاول لاستردادها .

١) انظر ماسبق فى الفصل الرابع ، ص ١٨٩

٢) Gregoras, Byzantina Historia, Vol.I, in C.S.H.B., p.81.

خلف ثيودور الثانى لاسكاريس Theodore Lascaris (١٢٥٤ — ١٢٥٨م) والده حنا فاتاتزيس . ومع أن ثيودور الثانى لم يكن بالرجل الذى ينتظر أمر استعادة القسطنطينية لانشغاله بالادب وعلم اللاهوت وتفضيله لهما على الحرب والسياسة ، الا أنه كان حصا على الاقل الا يفقد الارض أو النفوذ الذى كسبه أبوه ، ولهذا اعتنى بصفة خاصة بانشاء جيش قوى ، واعتبر أن البيزنطيين لن يستطيعوا الاعتماد الا على جيوشهم الخاصة على عكس العادة القديمة حيث كان الجيش يتكون من المرتزقة من جنسيات أجنبية . ولكن يبدو أن طموح ثيودور الثانى كان خياليا ، فقد لعب المرتزقة من الجنسيات المختلفة دورا هاما فى حياة امبراطورية نيقية بصفة عامة وتحت حكم ثيودور الثانى بصفة خاصة (١)

وجه ثيودور الثانى نشاطه بعد ذلك نحو البلغار وامارة ابيروس ، فجرد أولا حملتين ضد البلغار وخاصة وان القيصر البلغارى ميخائيل الثانى Michael II قد انتهز فرصة وفاة فاتاتزيس ، واغار على الاقاليم التى تنازل عنها لامبراطورية نيقية أثناء حكم فاتاتزيس عام ١٢٤٦م . وكللت حملتا ثيودور الثانى بالنجاح ، وأسفرتا عن صلح بين ثيودور الثانى وميخائيل الثانى قيصر بلغاريا ، وقد تم هذا الصلح بفضل توسط الامير الروسى روتيسلاف Rotislav ونص على أن يسترد ثيودور الثانى امبراطور نيقية جميع الاراضى التى استولى عليها البلغار ، وحصل ثيودور الثانى الى جانب ذلك على قلعة تزيباينا Tzepaina المدخل الدفاعى لتراقيا ، وأمن ثيودور بذلك حدوده الاوربية (٢)

وتوثقت الروابط بين نيقية وبلغاريا بعد وفاة القيصر ميخائيل الثانى واعتلاء قسطنطين تيخوس Constantine Teechus (١٢٥٧ — ١٢٧٧م) عرش بلغاريا ، الذى لكى يكسب حكمه صفة شرعية تزوج من ايرين Irene ابنة الامبراطور ثيودور الثانى ، وبذلك ساد الهدوء وتم السلام بين نيقية وبلغاريا (٣) .

١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.111-12., Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., pp.53-54., Vasiliev, op. cit., 2, pp.211-12.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر :
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.113-126., Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., pp. 55-57.

٣) Acropolitae, pp. 161-62., Gregoras, pp.60-61.

وبمجرد أن اطمئن ثيودور الثاني من ناحية البلغار وجه انظاره نحو امارة ابيروس وخاصة وأن وفاة والده فاتاتزيس قد أوحت الى ميخائيل الثاني حاكم ابيروس بافكار متمردة . ولكن حين حقق ثيودور الثاني القيصر البلغاري ميخائيل الثاني على غيرما كان متوقعا . فقد غير حاكم ابيروس تفكيره بحكمة وتدبير . وفي سبتمبر عام ١٢٥٦ م . أرسل زوجته ثيودورا Theodora وابنه نقفور Nicephoros الى امبراطور نيقيه ثيودور الثاني من أجل اتمام زواج نقفور بماريا ابنة الامبراطور . وفقا لاتفاق سابق تم في عام ١٢٥٠م . غير أن ثيودور الثاني حاول أن يستغل بذكاء وجود ثيودورا زوجة امير ابيروس بمفردها اذ لم يكن معها سوى ابنها . وطلب من أمير أبيروس أن يسلمه كل من دورازو وسرفيا وكانت الاولى تسيطر على الساحل الشرقي للادرياتيك وتعد بذلك شوكة في جنب امارة ابيروس . وكانت سرفيا تحرس الطريق الرئيسي الى سالونيك من الجنوب . ورغم ذلك كان ميخائيل الثاني مضطرا على أن يوافق على طلب امبراطور نيقية خشية وقوع زوجته وابنه في الاسر (١) .

ورد ميخائيل الثاني امير ابيروس بعد ذلك على هذا الصنيع بمثله . فقام بحملة ضد سالونيك — وكانت تابعة لامبراطورية نيقية — وشن هجوما على ضياعات الامبراطورية بمساعدة حلفائه من الصربيين . وفي ذلك الوقت تعرض ثيودور الثاني لنوبات الصرع . فاكتفى بارسال ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologis الى مقدونيا ولكن لم يزوده سوى بجيش قليل العدد (١٢٥٧ م) وبالتالي لم يستطع باليولوجوس ان يحول بين أمير ابيروس وبين احتلاله مراكز مقدونيا وأسره لمؤرخ نيقية جورج أكروبوليتا حاكم بريليب (بيرلابون) Prilep (٢)

مات امبراطور نيقية ثيودور الثاني على أثر نوبات الصرع التي كانت تعاوده من حين لآخر عام ١٢٥٨ م وعلى الرغم من أن حكم ثيودور الثاني كان قصيرا اذ لم يتجاوز الاربع سنوات الا أن هذا لايمنع من انه احتل في تاريخ امبراطورية نيقية مكانا محترما بثقافته الواسعة وسياسته الخارجية الموفقة التي كانت استمرارا لسياسة أبيه (٣) .

(١ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp.141-42., Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p.57.

٢) لمزيد من التفاصيل انظر :
Acropolitae, pp.152-55., Gregoras, pp.58-61.

(٣ Acropolitae, p. 164., Gregoras, p. 61.

خلف ثيودور الثاني ابنه حنا الرابع Jean IV البالغ من العمر ثماني سنوات تحت وصاية مستشاره الثقة جورج موزالون Georges Muzalon والبطريرك أرسينوس ، على أن موزالون لم يتمتع بهذا المنصب طويلا فما لبث أن قتل في اليوم التاسع لوفاة الامبراطور ثيودور الثاني عند مذبح كاتدرائية ماغنسيا Magnesia اثناء الصلاة الجنائزية على روح الامبراطور المتوفى (١) . وقد ناقش مؤرخو نيقية مدى صلة ميخائيل باليولوجوس بهذه الاساءة — وعلى رأسهم أكروبوليتا الذي تصور أن مدبر هذه الدسيسة انما هم النبلاء الذين لم تكن لهم حظوة في ظل حكم ثيودور الثاني . ولكن سرعان ما كشفت له الايام أن المدبر الحقيقي لهذه الجريمة هو ميخائيل باليولوجوس (٢) .

وظهر ميخائيل باليولوجوس في صورة الرجل الذي يمكنه أن يدافع عن الامبراطورية أكثر من غيره ، فقد كان ميخائيل من الطبقة الارستقراطية ، وكان يمكنه اقامة الدعوى على صلاته بعائلات دوكاس وانجيلوس وكومنين ، كان محبوبا من الجيش بل وتمتع بثقته وبصفة خاصة المرتزقة اللاتين الذين جردهم ثيودور الثاني من رواتبهم ، وكان ذا شخصية قوية ، وله مؤيدون في كافة الاوساط والدوائر كان يجيد الحديث ويحبه الكثير من الناس (٣) . ولهذا كله رأى الجميع انه من الضروري أن يغضوا النظر عن اعمال ميخائيل باليولوجوس السابقة مع ثيودور الثاني وغيره وعينوه وصيا على الامبراطور القاصر حنا الرابع ، ثم حصل ميخائيل على لقب الدوق الكبير (Grand duke – Magni ducis) ولم يلبث أن انتقل من هذا المنصب الى منصب الديسبوت Despot ، وأرتدى الزى الخاص بهذا المنصب ، الذي يعد أول درجات السلطة المدنية والعسكرية (٤)

---

١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الحادث انظر :

Pachymeres, Michael et Andronic Paleaologis , Vol.I, in C.S.H.B., pp.56-60., Acropolitae, in C.S.H.B., pp. 166-69., Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., I, pp.64-66.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 166.

٣) Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., pp.68-69.

٤) Pachymeres, op. cit., in C.S.H.B., pp.66-69., 78-79. Acropolitae, p. 169., Gregoras, pp.70-71.

اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٨

وعلى هذا فقد كان يوم مقتل موزالون نقلة تحول خطيرة في مصير ميخائيل باليولوجوس الذى قفز قفزة واحدة من منصب الكندسطبل الى منصب الديسبوت بل والى أبعد من ذلك فقد طالب اثاره بأن يتوج سيدهم ميخائيل شريكا في التاج مع الامبراطور الطفل حنا الرابع ، واستجاب الرأى العام لهذا المطلب وكان أن تلقى ميخائيل باليولوجوس التاج من ايدى البطريرك أرسينوس الذى قام بحفل التتويج المزدوج لميخائيل باليولوجوس وحنا الرابع لاسكاريس نهاية ديسمبر عام ١٢٥٨م (١) .

الحق ان ميخائيل باليولوجوس يدين بسرعة وصوله الى العرش ، الى الوضع الخارجى الحرج الذى كانت تعانيه امبراطورية نيقية فى ذلك الوقت ، وكان هذا الوضع يحتاج الى علاج سريع ، فاعداء الامبراطورية كثيرون وعلى رأسهم ميخائيل امير ابيروس ، الذى استغل وفاة ثيودور الثانى لاسكاريس وعدم استقرار الاحوال فى نيقيه ، واخرج حامية نيقية من فوديتا وتابع تقدمه حتى وادى الفردار فى وقت باكر من عام ١٢٥٨ م ، وكان ميخائيل هذا يدرك تماما أن باليولوجوس غير واسع الحيلة ، وسيعمل للاخذ بالثأر اذا ما استقر سلطانه ، ولهذا تطلع ميخائيل الثانى امير ابيروس الى محاولة سحق باليولوجوس وذلك بالتحالف مع خصوم امبراطورية نيقية ، وقد وجد ضالته المنشودة فى حكام صقلية وامراء آخايا (المورة) (٢) .

وأمل ميخائيل الثانى بهذا التحالف أن ينفذ مشروعاته ضد مدينتى القسطنطينية وسالونيك ، وتشير الى ذلك فى وضوح عبارة باخيمير Pachymeres "كانت خطة الديسبوت أن يجمع قدر الاستطاعة قوات تمكنه من الاستيلاء على القسطنطينية ، وبعده يعلن نفسه امبراطورا للرومان (البيزنطيين) (٣) ويعود باخيمير يؤكد ذلك بقوله : "خطط ميخائيل بعد أن جمع ما استطاع من رجاله ومن رجال حلفائه لمهاجمة قادة نيقية أولا ، ثم مهاجمة سالونيك ، وبعد هذا

١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 170.,
Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H.B., p.81.,
Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., pp. 78-79.
اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٣٨

٢) Nicol, The despotate of Epiros., p. 170.

٣) Pachymeres, op. cit., in C.S.H.B., I, 82.,
Geankapols, " Greco- Latin relations on the ave of the byzantin restoration", in Dumbarton Oaks Papers, Vol. 7. (1953), p.105.

تجرى محاولـــة غزو القسطنطينية ذاتها " (١) .

وهذا يعنى أن ميخائيل الثانى كان فى حاجة الى مساعدة عسكرية ، فقوة جيش ابيروس كانت كافية [illegible] لان تبارى مبارزة بالبلوبونيز ، وقد تبين عـــدم كفايتها لمواجهة محاربين كبارا كبنا يضع موارد امبراطورية نيقية تحت تصرفه . ومن ثم كان امير ابيروس فى حاجة الى جنرال أو قائد على قدر كبير من الخـــبرة بالمعارك يستطيع أن يضع استراتيجية تبارى استراتيجية بالبلوبونيز ، وقد وجـد ميخائيل الثانى ضالته المنشودة فى وليم فيلهاردوا William Villehardouin امير آخايا (المورة) فهو استراتيجى قدير كانت امارة ابيروس بحاجة الـــى استراتيجى مثله (٢) .

كما قصد ميخائيل الثانى امير ابيروس بتحالفه مع مانفرد ملك صقلية ان يفوت الفرصة على بالبلوبونيز فى بعث الرابطة بين نيقية وبين الهوهنشتاوفن مـــن جديد ، ودعم ميخائيل الثانى تحالفه مع أمير آخايا وملك صقلية بأن زوج الاول من ابنته أنا Anna ، وزوج الثانى من ابنته هيلينا Helena (٣) . أما مانفرد ملك صقلية ، فشأنه شأن اسلافه ، كانت له اطماع خاصة فـــى القسطنطينية فغزو الامبراطورية البيزنطية كان هدفا نورماندیا تقليديا على مـدى قرن من الزمان ، وربما كانت اهداف مانفرد ترمى الى الحصول على عــــون ومساعدة من ميخائيل الثانى فى الاستيلاء على القسطنطينية أو ربما حتى احتلال مشترك لتلك المدينة ، وربما لامر علم أن يعلق أى اعتبار لدوافع مانفرد لدخول هذا الائتلاف بأهدافه الاساسية والدائمة وهى اعتراف البابوية بوراثته لصقليــة وسيادة الهوهنشتاوفن على كل ايطاليا . وفى هذا الشأن قد يمكن لسياســـة بيزنطية ناجحـــة من جانبه ان يكون لها تأثير كبير على الشئون الايطاليـة وخاصة على البابوية الحامية الحقيقية للدول اللاتينية فى اليونان (٤) .

(١) Pachymeres, op. cit., in C.S.H.B., I, p.82., Geanakapols, Greco-Latin relations on the ave of the byzantin restoration, p.106.

(٢) Nicol, The despotate, p. 172.

(٣) Acropolitas, op. cit., I, in C.S.H.B., p.168., Gregoras, op. cit., I, p. 71., Chronique de Morée, p.53.

(٤) Geanakapols, Greco-Latin relations, pp.108-109.

كان لمانفرد أيضا من الدوافع الشخصية التى حملته على تأييد امارة ابيروس ضد امبراطورية نيقية ومن بينها أن أخته غير الشقيقة وهى كونستانس التى تزوجت من الامبراطور حنا فاتاتزيس (١٢٢٢ — ١٢٥٤م) قد ظلت أسيرة فى حوزة الامبراطور ثيودور الثانى لاسكاريس فى نيقية . وقد رفض الاخير جميع الطلبات المقدمة لاجل فك أسرها . ثم هى مالبثت أن وجدت نفسها مضطرة الى مقاومة المحاولات من جانب باليولوجوس لان يجعل منها سيدة قلبه . بينما تدخل البطريرك لمنع زواجه بها — كما أن هيلينا التى وعد مانفرد بزواجها كانت ذات جمال نادر (١) .

أما الطرف الثالث فى الحلف وهو وليم فيلهاردوان امير اخايا . فقد كان دخوله فى معركة ضد نيقية يعنى بالنسبة له الدفاع عن قضية الامبراطورية اللاتينية الضائعة . وقد برهن "تاريخ المورة" على ذلك . فقد جاء فيه أن ميخائيل الثانى طلب مساعدة وليم ضد ميخائيل باليولوجوس . وانهما سوف يحققان النصر بفضل الله . ويعيدا فتح بلغاريا وسالونيك . وان الاولى لميخائيل والثانية لوليم . وان الامير وليم رحب بذلك على أمل أن يعيد ما فقدته امبراطورية القسطنطينية (٢) .

يتضح مما سبق أن اطماع اطراف التحالف الثلاثة كانت تختلف من البداية بشكل حاد . وانه من الصعب ان يوفق بينها . والى جانب ذلك كانت هناك فروق ذات أهمية بينهم : فالحكام الثلاثة يختلف كل منهم عن الاخر فى العقيدة والجنس والدين . كان ميخائيل بيزنطيا يحسب حساب الامور ويقدرها وكان وليم مثالا للشهامة الفرنسية والشجاعة المنقولة الى التربة البيزنطية ، وكان مانفرد نتاج ملكة صقلية خليط من الثقافات المختلفة . وقد أصاب جريجوراس فى ملاحظته هذه الفروق والاختلافات حين كتب " ليس من الصعب أن تزرع الفرقة والخلاف بين الحلفاء الثلاثة اذ كان وليم ومانفرد مختلفين جنسيا عن ميخائيل انجيلوس " (٣) . ولا شك أنه كان لهذه الاختلافات فى الجنس والعقيدة والشخصية مع الاختلاف فى المقاصد والاهداف ما يؤكد بشكل أكثر حدة

---

(١) Nicol, The despotate, p. 171.
(٢) Chronique de Morée., p. 56.
(٣) Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 74.

مدى ماسيكون عليه هذا الائتلاف من ضعف ووهن ، وانه مقدر له الاخفاق ، ويحكم عليه بالفشل من البداية .

ولم يكن ميخائيل باليولوجوس ليخاطر بعرشه فى ساحة المعركة مع هـذا التحالف البيزنطى ـ اللاتينى لذلك فانه فور تتويجه (٢٥ ديسمبر ١٢٥٨م) قام بمحاولة محسوبة ، فأرسل سفارة لكل طرف من أطراف هذا الائتلاف ، يعرض عليهم تنازلات ، وربما يلعب على أحداقهم المتعارضة ، فأرسل أولا سفارة الى ابيروس ، يرأسها ثيودور فيليس Theodore Philes ليكسب صداقـة ميخائيل الثانى ، وليتفاوض على اطلاق سراح السجين أكروبوليتا ومن معه ، على حساب بعض الاقاليم المتنازع عليها فى مقدونيا . غير أن امير ابيروس ميخائيل الثانى رفض مقابلة السفراء ، فكان فى هذا اهانة واستخفاف بكرامة نيقية ، ولهـذا أنذر فيليس سفير نيقية الديسبوت ميخائيل بالقضاء الوشيك الوقوع ، وبندم يأتى متأخرا (١) .

واذ رأى باليولوجوس أنه لاسبيل للوصول الى تفاهم مع ابيروس أرسـل الى مانفرد ملك صقلية سفيره نيقفوروس الياتس Nikephoros Alyattas الذى اقترح على مانفرد تجديد التحالف القديم بين نيقية وصقلية ، وربما عرض لقاء ذلك اطلاق سراح كونستانس اخت مانفرد ولكن مانفرد كما يقال "أغراه وهم الكسب الاكبر" ، ورفض العروض والقى بمبعوث باليولوجوس فى السجن (٢) .

كذلك اخفقت سفارة باليولوجوس الى وليم فيلهاردوان امير آخايا ، فقـد كان يحدوه الامل بدوره فى الكسب الاقليمى ، الذى يمكن أن يتحقق من وراء انضمامه فى معركة ضد امبراطور نيقية (٣) .

وهكذا فشل ميخائيل باليولوجوس فى حل الحلف دبلوماسيا ، الا أن هذا لم يثبط من عزمه ، فقد أصبح واضحا أن الائتلاف من الممكن أن تفضه القوة وحدها

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B, pp.174-75. , Nicol, The despotate, p. 175.

(٢) Acropolitae, p. 176., Gennakapols, Greoc-latin relations, p. 118.

(٣) Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 72.

تصمم على القيام بهجوم عسكرى ليسحق ميخائيل أمير ابيروس قبل أن يجيء حلفاؤه النجدة له ، وأرسل للتوجه الى الغرب تحت قيادة أخيه حنا ومعه الكسيوس استراتيجوبولوس Alexius Strategopulus ، وقسطنطين تورنيكيوس Constantine Tornicius ، وأمرهم بالهولوجوس بالسير على عجل حتى يتمكنوا من الالتقاء بجيش الديسبوت على غرة وقد أصاب حنا بالبولوجوس نجاحا غير متوقعا بمفاجأة ميخائيل الثانى حاكم ابيروس وجيشه فى منطقة كاستوريا فتحل بهم الارتباك ، وخاصة بعد أن ترددت اشاعة مفادها أن الجيش الامبراطورى سيهاجمهم بأكمله ، فتفرقوا عبر الجبال فى ظلمات الليل فلقى الكثير منهم حتفهم عبر ممرات الجبال الوعرة وانسحب قائدهم ميخائيل الثانى ، وعسكر قرب افلونا Avlona على الساحل الالبانى ، ومن هناك بعث فى طلب العون من حليفيه أمير اخايا وملك صقلية ، هذا فى الوقت الذى استولى فيه حنا باليولوجوس على أوخريدا Ochrida ثم مضى يستولى على مدن أخرى بالتتابع فى مقدونيا وابيروس ، وبذلك فقد ميخائيل أمير ابيروس الجزء الاكبر من أراضيه (١) .

وسرعان ما جاء العون لميخائيل الثانى من حلفائه ، فأرسل له مانفرد ملك صقلية أربعمائة من الفرسان الالمان مسلحين تسليحا تاما ، على جياد رائعة ، وقد اختير هؤلاء الفرسان من اسر نبيلة ، ومن بين الفرسان الشجعان البواسل ويعلق ديندياس Dendias على قول اكروبوليتا هذا بقوله : " من المحتمل أن اكروبوليتا قصد بذلك أن يرفع من شأن الانتصار الذى أحرزه البيزنطيون فيما بعد " (٢) . هذا ويبالغ باخيمير فى عدد الفرسان الالمان فيذكر أن " الملك مانفرد أمد فرقة من ثلاثة آلاف من الفرسان الالمان وجميعهم جنود شجعان " (٣) .

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 176-78., Chronique de Morée, pp.55-56., Gregoras, op. cit.,I, in C.S.H.B., pp.72-73., Geanakopolos, Greco-Latin relations, p. 171., Nicol, The despotate, pp.176-77.

(٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p.79., Dendias, " Le roi Manfred de sicile et la bataille de Pelagonie" dans Mélanges Ch. Diehl, Vol.I(1930), p.56.

(٣) Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H.B., pp.82-83.

ولمحاولة التوفيق بين الرقمين ، أى الرقم الذى ذكره اكروبوليتا والرقم الذى ذكره باخيمر ، ربما يفترض أن الثلاثة آلاف فارس ، لايوجد منهم سوى أربعمائة من الفرسان والباقى من الرماة أو المشاة . (١)

وعلى غير ماتصل ماتفرد الذى اكتفى بارسال فرسانه وحسب لمساعدته ، حميه — جاء وليم فيلهاردوان امير آخايا شخصيا لمساعدة ميخائيل الثانى بجيش كبير ، وفى أرتا انضم فيلهاردوان بقواته الى ميخائيل الثانى الذى هرول بفرقة نحو الجنوب ، وتقرر الا يجرى تقدم مباشر الى سالونيك ولكن تجرى محاولة لهزيمة جيش نيقية فى معركة مكشوفة . (٢)

واذا سلمنا بكثرة جيوش ميخائيل امير ابيروس وحلفائه اللاتين فلا يجب الا ننسى أن جيش ابيروس وصقلية وآخايا لم يكن تحت قيادة واحدة ، فكان ميخائيل يقود جيشه من البيزنطيين ويساعده فى القيادة ابنه نقفور ، وكان ابنه غير الشرعى حنا دوقاس يقود فرقة من الفلاز والثساليين ، وكان الخيالة الالمان وفرقة فيلهاردوان من اللاتين تؤلف فرقتين مستقلتين ، ولم يكن لدى ميخائيل الثانى وفيلهاردوان خطة استراتيجية موسعة ولا غرض واحد سوى الاعتمار بقوة العدد وحدها . وكانت علاقتهم قد ابتلتها روح عدم الثقة وسوء التفاهم الذى كان يقوم بين البيزنطيين واللاتين عادة . أما جيش نيقيه فقد كان موحدا تحت قيادة رجل واحد ، ويقوده جنرالات كبار اكفاء ، ولم يكن ولائهم لاموس أو لهدف امبراطورهم موضع نزاع بحال (٣) .

وفيما يتعلق ببداية المعركة تذكر المصادر المعاصرة أن ميخائيل باليولوجوس قد نصح أخاه حنا بأن يتجنب الصدام مع العدو ، وان يحاول بالمناوشات المتكررة غير المتوقعة من جانب خصمه أن يحتفل افتقاده الى الوحدة ، ومن ثم فان حنا وهو يقترب من قوات العدو فى مقدمتها الغربية ، وزع قواته بمهارة ، فعهد الى قواته المسلحة تسليحا ثقيلا بمهمة احتلال المواقع الجبلية القوية ، بينما

(١ Dendias, Le roi Manfred de Sicile, p.56.

(٢ Chronique de Morée, p. 56., Nicol, The Despotate, p.179

(٣ Nicol, op. cit., pp. 179-80.

تشر قواته خفيفة السلاح من الكومان والاتراك والرماة البيزنطيين للتضييق على العدو فى السهول وذلك بالهجمات المفاجئة . والانسحاب الفجائى كذلك (١) .

تقابلت طلائع الجيشين عند بيلاجونيا Pelagonia وطبقاً للخطة طوردت قوات نيقيه خفيفة السلاح قوات التحالف باستمرار . ولم تدع لها فرصة للراحة ليل نهار . وكانت خيالة التحالف تهاجم على أرض لم تألفها من قبل فكانت تفنى تدريجيا . وتقل امداداتها . وفى النهاية فقد جيش ميخائيل الثانى روحه المعنوية . واذا به يهرب من الميدان . ووصل فى النهاية الى مدينة بريلب Prilep — وعندما تحقق اللاتين التابعين لمانفرد وليم — من فرار ميخائيل الثانى . سعوا كذلك الى الفرار . ولكن أنقض عليهم جيش نيقية فجأة . فقتل معظم اللاتين . وأسر الباقين اللهم الا قلة ولت هاربة (٢)

وقام حنا باليولوجوس بالاستعدادات اللازمة لمتابعة انتصاره الى قلب املاك ميخائيل الثانى اميرا ابيروس حتى يذهب بكل فرصة تحسن لاستعادتها . فقسم جيشه فريقين . الاول على رأسه الكسيوس استراتيجوبولوس وحنا راؤول Jean Raoul . واتجه هذا الفريق جنوبا نحو أرتا عاصمة امير ابيروس واستولى عليها دون مقاومة تذكر . ونجح فى فك أسر مؤرخ نيقيه اكروبوليتا الذى كان أسيرا هناك قرابة عامين . أما الفريق الثانى وعلى رأسه حنا باليولوجوس نفسه . فقد اصطحب معه حنا دوقاس ابن ميخائيل غير الشرعى الى تساليا . ثم غزا الاقاليم التابعة للاتين حتى وصل الى طيبة ولكن أقبل الشتاء. فعاد حنا باليولوجوس مع من معه الى لامبساكوس Lampsacus على شاطئ بحر مرمرة . حيث معسكر الامبراطور ميخائيل باليولوجوس الذى استقبل المنتصرين بحفاوة بالغة (٣) .

١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 180.,
Pachymeres, op. cit., in C.S.H.B., pp.85-86.
Gregoras, op. cit., in C.S.H.B., p. 74.
Geankapols, Greco-Latin Relations, p. 127.

٢) Acropolitae, op. cit., pp. 180-81.,
Gregoras, op. cit., I, p. 74.,
Geanakapols, Greco- Latin relations, p. 127.

٣) لمزيد من التفاصيل انظر :
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 182-85.

وكان لانتصار نيقيه فى معركة بيلاجونيا (١٢٥٩ م) (١) نتائج بعيدة المدى ، فقد دل هذا الانتصار على بداية انهيار السيادة اللاتينية ، اذ أعطى نيقيه موضع قدم فى الدورة ، ثم ان هذه المعركة اتت بابيروس الى حافة الخراب وابيروس غريمة نيقيه فى الزعامة على البيزنطيين ، ومن ثم فقد حظيت نيقية بالسيادة على القسطنطينية دون منازع . ولعل هذا ما دفع اكروبوليتا — وان كان مبالغا — الى القول بأن : "هذا الانتصار لم تشهد الشمس مثله من قبل" . (٢) .

وهكذا مهدت معركة بيلاجونيا الطريق أمام امبراطورية نيقية لاسترداد القسطنطينية ، اذ ازاحت منافسها الوحيد أى امارة ابيروس ، والمدافع الكفء عن المدينة أى امير آخايا من طريقها وبهذا هيأ انتصار بيلاجونيا لميخائيل باليولوجوس الامور للقيام بالهجوم النهائى الحاسم على القسطنطينية وفى بداية عام ١٢٦٠م قام ميخائيل بمحاولته الاولى لاستعادة القسطنطينية بدون حصار عن طريق الاتفاق مع نبيل لاتينى كان من بين أسراء فى معركة بيلاجونيا وهو انسوتوس Anseau Toucy (Aselus) اذ كان منزله بالقرب من أسوار القسطنطينية وعد بأن يسمح بدخول جيوش ميخائيل المدينة عن طريق منزله ، فى مقابل بعض الوعود والهدايا والمنح والاموال يقدمها له ميخائيل ، وبدت هذه الخطة ذات جدوى تماما . وفى ربيع عام ١٢٦٠م سار ميخائيل باليولوجوس من لامبساكوس وعبر البسفور ، وتقدم نحو القسطنطينية واستولى على مدينة سليمبريا على بعد ٦٠ ك٠م من القسطنطينية ، ثم حاصر جالاتا Galata (على الشاطئ الشمالى للقرن الذهبى) على امل أن يرى انسوتوس ليفتح له بوابات القسطنطينية ، ولكن هذا الفرنسى الذى تربى وسط البيزنطيين اكتسب منهم صفة المراوغة ، فبعد أن استفاد من الامتيازات التى اعطاها له باليولوجوس بدأ يماطل ويتوانى تحت حجة المصاعب الطارئة المفاجئة ، على أن باليولوجوس فهم لعبته وتخلى عن مشروعه وانسحب ، وعلى

---

١) انظر :

Nicol, The date of the battle of Pelagonia" in Byzantinishe Zeitshriet, Vol.49 (1956) , pp. 68-71.

٢) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 182.

هكذا النحو قدر للامبراطورية اللاتينية أن تعيش اشهر قليلة أخرى (١) .

أما بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية فقد كان قلقا من ميخائيل باليولوجوس . ويعتقد اكروبوليتا ان مرد هذا القلق يرجع الى أن باليولوجوس استقبل رسل بلدوين الثاني — عندما اتوا اليه فور احتلاله المورة يطلبون فى سذاجة البلاد من سالونيك وحتى القسطنطينية — بسخرية واستهزاء . بل وقال للسفراء انه اذا كان اللاتين يرغبون فى السلام فعليهم أن يدفعوا نصف الرسوم الجمركية ونصف دخل دار الضرب فى القسطنطينية . والا فستكون الحرب (٢) .

ولعل هذا ما دفع الامبراطور بلدوين الثانى الى أن يوقع مع ميخائيل باليولوجوس هدنة لمدة عام (سبتمبر ١٢٦٠م) . وفى الحقيقة أنه لم يكن هناك مايدعو باليولوجوس الى الخوف من جانب بلدوين الثانى فقد كان فى أشد حالات الفقر والفاقة . ولكن كان الخوف من هم وراء بلدوين الثانى . ونقصد بهم البنادقة . فقد حاول هؤلاء حماية الامبراطورية اللاتينية والحفاظ عليها مدة أطول . لدرجة أن طلب دوج البندقية رينير زينو Renier Zeno ومجلسه من بارونات المورة . وحكام اثينا . ونجروبونت . وكريت و دوقية الارخبيل وغيرهم ان يتحدوا مما يضمن اقامة حامية منظمة فى القسطنطينية تتألف من عشرة آلاف رجل . وستدفع البندقية راتب هؤلاء من حصتها . وان تضمن الحصول على ضمانات من شركائها الاخرين من حصصهم أيضا (٣) ومع أن التقارب الفعلى لمشكلة الدفاع الاساسية عن العاصمة جاء متأخرا . الا أن ميخائيل كان مدركا تماما ضرورة الحصول على مساعدة بحرية حتى يتسنى له مواجهة اسطول البندقية الرابض أمام البسفور بصد أى غزو على الامبراطورية اللاتينية

---

١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H. B, pp. 185-86., Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p.80-81. , Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H.B.pp. 110-11, 118,122., Longnon, op. cit., p. 226., Nicol, op. cit., p. 186.

٢) لمزيد من التفاصيل عن حديث السفراء مع باليولوجوس انظر :
Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., pp. 172-74.

٣) Setton, op. cit., 2, pp. 229-30., Hazlitt, op. cit., I, p. 380.

ولهذا اهتم ميخائيل بأن يضمن حليفا من ناحية البحر لمواجهة البنادقة نظرا لان القوة البحرية غير متاحة له (١) .

وكان أن وقع ميخائيل باليولوجوس فى ١٣ مارس عام ١٢٦١م فى مدينة نيمفايم Nymphaeum بآسيا الصغرى معاهدة مع الجنوية أعداء البنادقة الالداء ، وبمقتضى هذه المعاهدة ضمن ميخائيل باليولوجوس التأييد البحرى (٢) .

على أنه قبل أن يأتى الاسطول الجنوى الى الشرق ، وحتى قبل أن يتم التصديق على المعاهدة فى جنوه ، استولت جيوش ميخائيل على القسطنطينية وجاءت نهاية الامبراطورية اللاتينية وتم استرداد القسطنطينية بسهولة مذهلة وبالصدفة تقريبا ، حتى بدا وأن هذا العمل وكأنه تصريف من تصاريف القدر . فبينما ينتظر ميخائيل باليولوجوس انتهاء مدة الهدنة مع بلدوين فى سبتمبر عام ١٢٦١م ، أرسل قائده الكسيوس استراتيجوبولوس بجيش صغير الى تراقيا ، لرصد تحركات البلغار ومراقبة الحدود البلغارية ، وعهد اليه بأن يقوم بمناورة عسكرية عند عبوره امام القسطنطينية ، وهذا ليس بغرض الاستيلاء عليها ولكن من أجل اشاعة الارهاب والخوف بين اللاتين (٣) .

وكان ساعد استراتيجوبولوس الايمن فى استعادة القسطنطينية سكان المناطق المحيطة بالقسطنطينية وضواحيها بين بحر مرمرة والبحر الاسود ، وكان هؤلاء بالطبع فلاحين وصيادين بيزنطيين اعتمدت عليهم القسطنطينية فى الحصول على الطعام ويسميهم المؤرخ باخيمير " المتطوعين Voluntarios " (٤) . وتظاهر هؤلاء بالتمسك بنوع من الحياد فى الحرب بين البيزنطيين واللاتين غير أن عواطفهم ومشاعرهم نحو قوميتهم وأهلهم من البيزنطيين ، جعلتهم عملاء مفيدين لالكسيوس استراتيجوبولوس ، فقد علم منهم — وكان قد وصل

---

(١) Ahrweiler, Byzance et la mer, p.329.

(٢) انظر ما سبق بالفصل الرابع ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 190 , Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B.p.83., Longnon, op. cit., p. 226.

(٤) Pachymeres, op. cit.I, in C.S.H.B., p. 138.

الى سليمبريا — ان معظم الحامية اللاتينية غائبة فى تلك اللحظة عن المدينة اذ كان البودستا البندقى الجديد ماركو جرادنيجو Marco Gradenigo قد اقنع الامبراطور بلدوين الثانى بان يسمح له بأخذ الحامية على ظهر السفن لمهاجمة جزيرة دافنوسيا Daphnousia فى البحر الاسود . وقد جرد هذا العمل القسطنطينية من المدافعين عنها من اللاتين . ولم يبق منهم سوى النساء والاطفال . ومن الممكن أن يكون ميخائيل باليولوجوس قد رتب لذلك من أجل أن يجعل دافنوسيا كطعم وبالتالى تصبح القسطنطينية بلا دفاع (١) .

كما أخبر (المتطوعين) القائد البيزنطى استراتيجوبولوس بأن هناك ممر ضيق فى السور القريب من ميناء سليمبريا . وهذا الممر يكفى اتساعه بالمساح لرجل واحد مسلح أن يعبره . ولم يضيع القيصر هذه الفرصة . فاصطحب رجاله واتجه صوب هذا الممر ودخله من تلك الفتحة الصغيرة جندى وراء الاخر حتى اكتمل عددهم خمسون جنديا . وفى سكون الليل فاجأوا الحراس اللاتين وقبضوا على أمرهم . ثم فتحوا بوابة سليمبريا من الداخل . وسمحوا لبقيتهم بالدخول وفى الحال تقدم استراتيجوبولوس بجنوده الى داخل المدينة . حيث طافوا بالشوارع الضيقة . دون أن يعرفوا شيئا عن مدى استعدادات اللاتين للدفاع . وفى لحظة خوف . عزم الكيسوس على أن يتصرف بحذر وان ينتظر يوما . ولكن المتطوعين حثوه على المضى فى القتال ووعدوه بأنهم سيتحملون الصدمة بشجاعة . وسوف يهاجمون الفرنسيين ويشتتون شملهم (٢) .

وفى صباح يوم ٢٥ يوليو عام ١٢٦١م تجددت فى القسطنطينية مشاهد الرعب والفزع التى سبق أن شاهدتها من قبل يوم ١٣ أبريل عام ١٢٠٤م . تنظرا لاحتمال عودة الاسطول البندقى من دافنوسيا . اشعل استراتيجوبولوس النيران فى منازل اللاتين واحيائهم . وخاصة فى الحى المجاور للقرن الذهبى . حيث يقطن البنادقة . فقر السكان مذعورين من منازلهم المشتعلة فاقدين حياة آمنة .

(١ Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 191., Gregoras, op. cit., I, p. 84., Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H. B. pp.138-39., Setton, op. cit., 2, p. 231.

(٢ Pachymeres, op. cit., I, p. 140., Acropolitae, op. cit., pp. 191-92.

فاندفع بعضهم فى مشقة الى الاديرة آملين ارتداء زى الرهبنة حتى لا يقتلهم أحد ، هذا فى حين اندفع البعض الاخر نحو الميناء (١) .

أما الامبراطور اللاتينى بلدوين الثانى فقد اتجه على الفور الى القصر الكبير ، حيث كان من السهل عليه أن يبحر من ميناء بوكليون Bucoléon (فم الاسد) على بحر مرمرة ، واستقل بالفعل سفينة بندقية كانت راسية فى الميناء ، وفر هاربا الى جزيرة ايوبيا (نيجروبونت) تاركا خلفه تاجه الامبراطورى (٢) .

وفى تلك اللحظة عاد الاسطول من دافنوسيا فاشلا ، ورأى رجاله اللهب يتصاعد من القسطنطينية ، وما لبثوا أن أدركوا الكارثة على حقيقتها عندما وجدوا بيوتهم وممتلكاتهم تلتهمها النيران ، وعائلاتهم تزدحم بها أرصفة الميناء ، وكان كل ما استطاعوا أن يفعلوه هو انقاذ ما بقى وأبحروا بهم متجهين نحو ايوبيا ، ولكن نظرا لقلة مواد التموين وعدم كفايتها مات عدد كبير من هؤلاء من الجوع والعطش قبل أن يبلغوا شاطىء الامان (٣) .

على هذا النحو ترك اللاتين مدينة القسطنطينية بعد أن اقاموا فيها سبعة وخمسين عاما ودخلها الكسيوس استراتيجوبولوس ورجاله فى سهولة ويسر ، ومن هول المفاجأة لم يصدق ميخائيل باليولوجوس حين علم بالخبر ، ولكن زال شكه حينما وصل اليه رسول من استراتيجوبولوس ومعه شارات أو شعارات الامبراطور اللاتينى المهزوم . وفى ١٥ أغسطس عام ١٢٦١ م عبر ميخائيل باليولوجوس بحر مرمرة ودخل مدينة قسطنطين العظيم من البوابة الذهبية فى موكب مهيب ، تتقدمه ايقونة السيدة العذراء "الهودجتريا Hodegetria" ثم يتبعها هو ورجاله سيرا على الاقدام على طول طريق القصر حتى كاتدرائية القديسة صوفيا (٤) .

---

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 192.

(٢) Ibid, Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B, p.86., Chronique de Morée, p.21.

(٣) Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 145, Acropolitae, op. cit., pp. 192-93., Gregoras, op. cit., I, p.86., Longnon, op. cit., p.228.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر :

Pachymeres, op. cit., I, in C.S.H.B., pp.149-50., Acropolitae, op. cit., pp. 195-97., Gregoras, op. cit., I, p. 87.

وقام البطريرك أرسينوس بتتويج ميخائيل باليولوجوس وزوجته ثيودورا مـــــرة ثانية فى سبتمبر من نفس العام (١٢٦١م) . ويرمز هذا العمل المهيـــب الى اعادة ميلاد الامبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية والتى أعدت مـــــن الان لحياة جديدة . أما الامبراطور الصبى حنا الرابع لاسكاريس فقد ترك مهمـــلا منسيا فى نيقية . وخلال العام ذاته سملت عيناه ، وأودع فى قلعة علـــــى البحر الاسود (١) .

وقد شبه جريجوراس استرداد البيزنطيين لعاصمتهم بأرض جرداء لا حيـــاة فيها ولا ماء ، ثم اخضرت وأينعت ، كمن أمسى قويا ، وكفقير بات ثريـــا وكصغير صار شابا (٢) .

* * *

(١) Acropolitae, op. cit., in C.S.H.B., p. 198.,
Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 89.,

(٢) Gregoras, op. cit., I, in C.S.H.B., p. 87.

الخاتمة

يتضح من فصول الرسالة أن أحوال الدولة البيزنطية السيئة فى عهد أسرة انجيلوس ساعدت الى حد كبير فى انحراف الحملة الصليبية الرابعة وتحولها عن مصر الى القسطنطينية ، ونتج عن هذا التحول سقوط العاصمة البيزنطية عام ١٢٠٤م فى أيدى الصليبيين ، وعن قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وحدوث تغيير جوهرى فى نظم الامبراطورية البيزنطية وفى حياتها ، فحل محل الامبراطور البيزنطى امبراطور لاتينى ، وقامت على انقاض بيزنطة امارات لاتينية عديدة ، أهمها امارة المورة ودوقية أثينا وغيرهما ، وعاشت هذه الامارات طويلا حتى بعد استرداد البيزنطيين لعاصمتهم عام ١٢٦١م .

وأوضحت الدراسة ان سقوط القسطنطينية على أيدى اللاتين عام ١٢٠٤م لم يثبط من عزيمة البيزنطيين ، بل فجر الوعى القومى فى نفوسهم ، فهبوا يدافعون عن بلادهم ويقاومون اللاتين ، فتزعمهم امبراطورية نيقية فى آسيا الصغرى وامارة ابيروس فى شمال غرب اليونان ، وامبراطورية طرابيزون على الشاطئ الجنوبى الشرقى للبحر الاسود ، وكان بامكانهم أن يقضوا على الامبراطورية اللاتينية وهى لاتزال تحبو ، غير أن تفتت وحدتهم ، وتناحرهم على اللقب الامبراطورى أتاح الفرصة للامبراطورية اللاتينية لان تعيش مايقرب من سبعة وخمسين عاما . حقيقة أن امبراطورية طرابيزون تخلت عن فكرة استرداد العاصمة البيزنطية نظرا لبعدها عنها ، الا أن امبراطورية نيقيه وامارة ابيروس رغم ما دار بينهما من نزاع قد أرقتا مضاجع اللاتين فى القسطنطينية ، ولم يهدأ لهما بال حتى نجحت احداهما وهى نيقيه فى اعادة القسطنطينية للبيزنطيين .

وأوضح البحث كذلك تحول موقف البابوية الى مساند ومؤيد قوى للامبراطورية اللاتينية وذلك على أمل أن تحقق من ورائها هدفين : أولهما استرداد الاراضى المقدسة فى فلسطين ، وثانيهما اعادة الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية ولكن فشلت البابوية فى تحقيق كلا الهدفين فشلا ذريعا ، فمن ناحية لم يتابع اللاتين زحفهم نحو مصر بعد استقرارهم فى القسطنطينية ، ومن ناحية أخرى كان الفشل حليف جميع المحاولات التى بذلتها البابوية لتحقيق الوحدة بين الكنائس ، رغم دور بعض فرق الفرسان الرهبان وعلى رأسهم المسترشيان

والفرنسيسكان في العمل على انجاح هذه المحاولات . ولهذا تخلت البابوية في النهاية عن الامبراطورية اللاتينية من أجل أن تحقق هدفها .

وتبين من الدراسة أيضا مدى ماجنته البندقية من مكاسب اقتصادية ومزايا تجارية من وراء قيام الامبراطورية اللاتينية . وذلك باحكام سيطرتها على بعض الجزر الهامة ومن بينها جزر البحر الايوني وجزر بحر ايجه والبحر المتوسط وخاصة جزيرة كريت . وبلغ من اهتمام البندقية بالامبراطورية اللاتينية ان فكر بعض دوجات البندقية في نقل مركز الجمهورية الى مدينة القسطنطينية نفسها . وتبين كذلك أن البندقية لم تنعم بما حصلت عليه من مكاسب ومزايا طويلا بعد الاباطرة اللاتين في القسطنطينية فقد آل ذلك جميعه الى غريمتها ومنافستها الجنوية الذين تحالفوا مع امبراطور نيقيه ميخائيل باليولوجوس . وعقدوا معه اتفاق نيمفايوم عام ١٢٦١ م . وبمقتضاه آلت سائر الامتيازات التي تمتع بها البنادقة الى الجنوية على أثر استرداد البيزنطيين القسطنطينية في هذا العام .

وبرهن البحث على وجود ثمة علاقات بين الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وبين بعض ملوك أوربا وعلى رأسهم الامبراطور الالماني فردريك الثاني . ولويس التاسع ملك فرنسا . والفونسو العاشر امبراطور أسبانيا . وكشف الستار عن طبيعة هذه العلاقات . وكيف أنها كانت تنبع احيانا أو في كثير من الاحيان من مطامع وأهداف معينة كانت تدور بخلد كل منهم .

وتبين من الدراسة كذلك أن سقوط الامبراطورية اللاتينية كان حتميا لامحالة فيه . فهي دولة أسست على أرض أجنبية غريبة . ووسط عداوة البيزنطيين الذين سرعان ما قام قادتهم بلم شعثهم . هذا فضلا عن أنها اعتمدت على سيل من الاموال والرجال الذين تدفقوا اليها من الغرب . والذين كان من الممكن أن ينقطع حضورهم في أي وقت . كذلك لم يكن بامكان اللاتين الاحتفاظ بكيانهم القلق داخل الامبراطورية وهيكلها المنهار الا ببذل الجهد الجهيد . والسبب في ذلك كثرة انقساماتهم ونزاعاتهم بعضهم البعض . فضلا عن الضغط الشديد الواقع عليهم من البلغار ومن البيزنطيين في نيقية .

حقيقة عاد البيزنطيون الى عاصمتهم عام ١٢٦١ م . بعد مايقرب من نصف قرن أو يزيد . ولكن عادوا اليها ليجدوها موحشة خربة . تنوح فيها

الاطلال فقد دمرت احياء بهتها وخربت القصور الامبراطورية حتى كادت لاتصلح للسكنى ، وأصبح جمال المدينة جمال أعمود على حد تعبير جريجوراس . حقيقة كان يمكن اصلاح التلف الذى حل بالمدينة ، ولكن التلف الذى حل بالامبراطورية البيزنطية كان لاسبيل الى اصلاحه فحين وجه الاتراك العثمانيون قوتهم الكبيرة ضد بيزنطة فى السنوات التالية كانت الامبراطورية منقسمة على نفسها بحيث عجزت عن القيام بوظيفتها التقليدية الا وهى الدفاع عن حائط المسيحية الشرقى .

* * *

قائمة بالملاحق

- **الملحق الأول :**

خطاب الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر (١٣ يناير ١٢١٢م) .

- **الملحق الثاني :**

خطاب البابا هونريوس الثالث الى جميع رجال الدين في القسطنطينية (٢٢ مارس ١٢١٨م) .

- **الملحق الثالث :**

خطاب البابا هونريوس الثالث الى الامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناى (٢٨ سبتمبر ١٢٢٢م) .

- **الملحق الرابع :**

خطاب البابا جريجورى التاسع الى حنا فاتاتزيس أمبراطور نيقيه .

- **الملحق الخامس :**

قوائم بأسماء أباطرة القسطنطينية اللاتين ، وأباطرة نيقيه ، وأمراء ابيروس ، وقياصرة بلغاريا ، وبودستات البندقية في القسطنطينية .

* * *

*

الملحق الاول

خطاب الامبراطور اللاتيني هنري فلاندر (١٣ يناير ١٢١٢ م)[(١)]

من الامبراطور هنري – المخلص الامين بنعمة الله والمسيح، الذي جعل الله له تاج رومانيا . الحاكم الظافر بلا انقطاع – سلام من رب الارباب لجميع الاصدقاء الذين سيطالعهم نص هذه الرسالة .

بما أن محبتكم تطمعون في معرفة احوالنا وبما أننا لانشك أن حسن توفيقنا مما يسعدكم، لهذا السبب نبلغكم بحالتنا هذه بحق ما صنعه الله معنا لاجله . عليكم ان تعلموا أنه مازال في امبراطوريتنا أربعة أعداء لدودين جبابرة ونحن مازلنا قائمين تحت رحمتهم ومتحملين اعداءاتهم وشتائمهم المستمرة : أما أول هؤلاء الاربعة واخطرهم فهو لاسكاريوس[(٢)] الذي استولى على البلاد كلها الواقعة وراء لسان القديس جرجس حتى آسيا الصغرى متصرفا فيها كامبراطور متبجحا علينا بشتى الطرق . ومن الناحية الاخرى يقاوم بوريللوس[(٣)] الذي فرض نفسه على البلغار بالمتعسفا غاصبا لقب الامبراطور وشعاره وهو مازال يثقل كاهلنا بهجماته المتصلة . أما من الناحية الثالثة يهاجمنا في مملكة سالونيك ميخائيل[(٤)] الخائن العظيم وستراسيوس حفيد جوانيسيوس[(٥)] – آفة البلاد اليونانية ومخربها من قبل – فهؤلاء رغم مبايعتهم لنا ومعاهدتهم معنا وبذلا كل الجهود في تلك الاقطار لهلاكنا . ولذلك فاننا توجهنا الى ناحية سالونيك بمشورة من أمرائنا تاركين القسطنطينية لمدة اثنى عشر يوما وذلك لكسر شوكتهما وتذليل عزيمتهما المتحجرة وربما بلغكم ذلك منذ وقت قريب . وبعد أن خوضنا معاك مع العدوين المذكورين معركة طويلة الامد اضطررناهما أخيرا بعونه تعالى الى الا يسببا لنا أو لغيرنا أية متاعب كما أن حيلهم ودسائسهم المحبوكة والتي كثيرا ما حاكوها ضدنا لم تحقق لهم نفعا . فقد أبرم ميخائيل معنا عهد الامانة أربع مرات وستراسيوس ثلاث مرات ولكنهما لم يتورعا عن نكث عهدهما في كل مرة . غير أننا أنزلنا بهما عقوبات جسيمة

---

(١) Prinzing, " Der brief kaiser Heinrichs von Konstantinople von 13 Januar 1212 ueberlie ferunmageschichte neuedition und kommentar"in Byzantion, T.XLIII (1973) pp. 411-18.

(٢) ثيودور لاسكاريس امبراطور نيقية (١٢٠٤ – ١٢٢٢ م) .

(٣) بوريل قيصر البلغار (١٢٠٧ – ١٢١٨ م) .

(٤) ميخائيل دوقاس امبرابيروس (١٢٠٤ – ١٢١٥ م) .

(٥) جوانيتزا (كالوجان) قيصر البلغار (١١٩٧ – ١٢٠٧ م)

بحيث تدنا على تكتهم المتكرر ماعدا الذنوب الاخرى التى اقترفاها ٠ والواقـــع أننــــا جردناهمـــــا من معظم الاقطار التى كانت فى حوزتهما ، ولولا مهـام خطيرة أخرى اضطرتنا الى العودة الى القسطنطينية،لما أبقينا لهما ولو على كـرسى واحد فى امبراطوريتنا ٠ أما عدوا امبراطوريتنا الاخران واعنى بهما بوريللـوس ولاسكاروس فكانت وطأتهما ثقيلة على مدينة القسطنطينية،سواء من ناحية الــبر أم من ناحية البحر ٠ وكان قد سبق للاسكاروس ان اسر واحدا من أعظم رجالنـا وهو السيد بطرس من براسيلو ، كما جهز عددا ضخما من السفن لحصـــــــار القسطنطينية فدب الذعر فى المدينة ، واضطربت اضطرابا حتى فكر الكثـيرون من رجالنا فى الفرار بحرا بعد أن يئسوا من عودتنا ، كما انضم آخرون الــــى جانب لاسكاروس نفسه ، وعقدوا بمبايعته ومؤازرته ضدنا ولهذا السبب عدنـــــا مسرعين ، فوصلنا يوم عيد الفصح الى احدى مدننا وتسمى روسا ، وفى اليــوم التالى انطلقنا باكرا ، وبعد أن ابتعدنا قليلا عن المدينة علمنا من مصـــدر ثقة أن بوريللوس هناك على مقربة منا ، وانه يترصد وصولنا مع جيش حاشـد من الكومان والبلغار ، ثم انه اعترض الطريق الذى كنا على وشك العبور منـه ، وكان طريقا ضيقا وعرا محاطا بالجبال من الجانبين ، وكان بوريللوس يهدف مـن وراء ذلك الى الايقاع بنا فى الهضاب المستعصية، ولو لم يكشف الله خديعتـه لكان من السهل عليه القضاء على عددنا القليل،فى ذلك الممر الضيق اذ لـم يكن فى حوزتنا أكثر من ٦٠ رجلا، غير أننا بعد أن تأكدنا من صحة الخبر عـن طريق عيون وستطلعين يتقدمهم فى المنطقة حدنا عن ذلك الطريق ، وتابعنـا مسيرتنا فى طريق آخر ممتد على شاطىء البحر ، ومررنا ببعض الحصون الـتى نمتلكها هناك حيث انضم الينا من رجالنا فيها من مسلحين ٠ ونحن فـــى مسيرتنا هذه ، قابلنا الكثير من رجالنا مشاة واستقبلونا على بعد مسافة ثلاثـة أيام من القسطنطينية (حوالى ١٢٠ ك ٠ م تقريبا) ٠ وعندما تأكدنا مـن ازدياد عددنا غيرنا اتجاهنا ، لتعقب بوريللوس قاصدين محاربته حيثما وجدنـاه ، غير أنه شعر بقدومنا فلاذ بالفرار ٠ وبعد أن لاحقناه لمدة يومين لم نتمكن مـن العثور عليه ، ولا من ادراكه لسرعته فى الهروب ، وعندئذ عدنا الــى القسطنطينية حيث استقبلنا بمبالغ السرور والاحتفال،اذ كان الشعب ينتظرنـا

بشوق عظيم . وفي نفس الوقت وفي أثناء مكوثنا في المدينة حوالي شهر يوليو
بلغتنا أخبار عدة من مصادر مختلفة .

لقد ذكرنا الامراء الذين تركناهم على حدود مملكة سالونيك لحمايتها
وهم بيير توليدوس وأخوته يوستاشيوس وآخرون ، ان العدو ستراسيوس الذى سبق
وتركناه فاقدا كل قواه قد جمعها بمعونة بوريللوس الذى بعث لنجدته
باثنين وخمسين وحدة مما سبب لنا خسائر جسيمة . غير أن الامراء المذكورين
حشدوا قواتهم وانضموا لميخائيل الذى كان في ذلك الحين حليفا لهم
وتصدوا لستراسيوس في سهل بلاجونيا حيث حاربوه وهزموه ، فترك معظم
رجاله قتلى بحد السيف في ذلك السهل .

وعلمنا من ناحية أخرى أن سلطان قونيه[1] الذى كان قد أبرم معنا معاهدة
صداقة وتعهد بمساعدتنا على لاسكاريوس قد دخل أرض هذا الاخير بجيش
ضخم من الاتراك (السلاجقة) ، غير أن لاسكاريوس قابله بحشد عظيم من اليونانيين
(البيزنطيين) واللاتين أيضا الذين انضموا اليه رغم حرم البابا[2] لهم ، فاستطاع
لاسكاريوس بمؤازرتهم محاربة السلطان والانتصار عليه بل قبض على السلطان
نفسه وقتله مع عدد كبير من الاتراك . لهذا السبب ازداد لاسكاريوس حقدا
وعجرفة وبعث برسائل لجميع المدن اليونانية يحدثهم فيها عن عظمة نصره
وغنائمه ، معلنا لهم أنهم لو قبلوا ان يؤازروه لسرعان ما حرر بلاد اليونان
باسرها من اللاتين الكلاب . ولذلك بدأ الجميع يتقمصون مثله ويمدونه بتأييده
لو جاء الى القسطنطينية لمحاربتها . أما نحن فنعطى ذلك بعد استشارة
المقربين الينا هرقلة لسان القديس جرجس لما جمعه مقاتلون الزحف عليه على
انتظار زحفه على القسطنطينية . وحالما عبرنا اللسان وقبل أن يعبره
جميع رجالنا هرع لاسكاريوس لمواجهتنا بجيش حاشد أمام مدينة سيبجاس[3] التى لم
يكن لنا غيرها في تلك المنطقة ، أما نحن فمع قلة عددنا وعدتنا وكثرة قوتنا
وبسالتنا خرجنا الى ظاهر المدينة لمحاربته ، غير أنه سرعان ما لاذ بالفرار الى
أحد الجبال المجاورة حيث اختبأ لثقته بالمأوى فيها . غير أنه لم يتمكن من
الهرب بالسرعة المنشودة فطاردناه عن كثب وحملناه خسائر فادحة في مؤخرة

---

١) غياث الدين كيخسرو ١٢٠٤ — ١٢١٠ م) (٢) البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦ م)

٣) هى مدينة بيجى بآسيا الصغرى .

جيشه التى تصلنا معظمها واحتجزنا عددا ضخما من الخيل والفرسان . ثم حشدنا قواتنا ورحنا نتجول بخيولنا طلقة فى المنطقة من غير أن يجرؤ على التصدي لنا فى السهل، بل اعتصم هو وجيشه فى الجبال، وراح يتحرش بالدوريات التى كنا نرسلها لنقل المؤن. وأخيرا لما رأينا أهل المنطقة تتجول كما شئنا اجتمعوا / بلاسكاريس وأعلنوا له بصوت واحد قائلين أنهم لايريدون ولايستطيعون الاستمرار الى أجل غير مسمى على تلك الوضع . فاما ان يحاربنا والا استسلموا لنا فى الحال . فلما سمع لاسكاريس هذا الكلام جمع عددا غفيرا من الناس مشاة وفرسانا حتى كون منهم ٩٠ وحدة أو فرقة . ثمان منها من اللاتين أيدوه ضدنا رغم حرم البابا لهم وغير مبالين بمخافة الله أو الناس . ثم قابلنا لاسكاريس بتسهلنا الجم الغفير فى اليوم الخامس عشر من أكتوبر بالقرب من نهر لوبارس حيث كنا معسكرين . غير أنه لم يدفع بجيشه الى السهل بل توارى فى أحد الجبال، وأرسل وحدتين فقط أمام معسكرنا فلما رآهما بعض رجالنا طاردوهما وشاهدوا جماعته محتشدة على مقربة منا .

ولما علمنا بذلك أمرنا بحمل السلاح فى الحال . وما ان وصلنا الى المكان حتى اعترانا العجب والذهول ازاء جم غفير مقسم الى وحدات منتظمة . وبالفعل فان وحدة لاسكاريس وحدها كانت تضم أكثر من ألف وخمسمائة من المسلحين بالدروع أى أكثر من جيشنا بأسره اذ لم يكن لدينا سوى خمس عشرة وحدة صغيرة . ظلت واحدة منها فى المعسكر لحمايته . وكل وحدة لاتضم سوى خمسة عشر جنديا ساعدنا وحدتنا التى انخرط فيها خمسون . غير أننا لما تحققنا أننا لانستطيع التنصل من المعركة بسلام، وضعنا كل آمالنا فى الله وحده وفى صليبه المقدس المرفوع أمامنا، وأصدرنا الاوامر لاثنتى عشرة وحدة بالانقضاض معا خشية أن يبتلعها العدو بكثرته لو كانت أقل عددا . اما رجالنا فعلى عكس توقعنا هرعوا بهتافات عالية وأبواق مدوية يعدون الخيل بالخيل والعنف بالسيوف متحملين الصدمة الاولى ببسالة عظيمة . على أن مصير المعركة لم يمكث فى الغموض الا لمدة وجيزة، لان الاعداء بعد الاصابات الاولى سرعان ما بدأوا يهربون كاشفين بهروبهم ظهورهم لطعنات سيوفنا . عندئذ هرعنا لملاحقتهم بمزيد من العنف

والجرأة ومازلنا نبطش بهم من الساعة الاولى من النهار والذى ثبتت فيه المعركة حتى غروب الشمس ، واشتبكنا بهم بحيث لم يميزوا رجالنا عن رجالهم ولذلك فلا داعى للشك فى أن كثيرين سقطوا فى ذلك اليوم بحد السيف ، أما مايذهل جميع السامع والانظار فهو أنه لم يعثر ولو على رجل واحد فى جيشنا قتل أو أصيب اصابة جسيمة بينما سقط الكثيرون من اللاتين فى جانب لاسكاريوس وآخرون قبض عليهم أحياء واحتجزوا ، وغيرهم نجوا بحياتهم وجاءوا فى الليلة التالية مستعطفين . ومنذ ذلك اليوم انهارت قوى لاسكاريوس انهيارا ، ولم يجرؤ على مواجهتنا قط ، كما بدأت البلاد تستسلم لنا منذ ذلك الحين ، وجاء الجميع من الحدود التركية ومايليها يخضعون لسلطاتنا ماعدا بعض القلاع التى سنرغمها بقوته تعالى على الخضوع فى الصيف المقبل . وفى نفس الوقت ونحن منشغلون فى تلك الناحية بلغنا انباؤنا فى مملكة سالونيك ، وأعنى بهم الامير بيرتولد واخانا يوستاشيوس وآخرين كلفناهم بحماية الحدود — ان بوريللوس قدم عليهم بجيش عظيم متزلا بنا ضررا جسيما / فاجتمع الامراء وتحالفوا مع مكلانوس صبرنا ، وتصدوا له فخاف منهم وغادر البلاد هاربا وتاركا خلفه ٢٤ وحدة من المشاة ووحدتين من الفرسان أعملنا رجالنا على آخرها بعد مطاردتها ، ولم ينج منها رجل واحد . أعلموا أننا منتصرون بعونه تعالى فى كل مكان وأننا قهرنا الاعداء الاربعة المذكورين أعنى بوريللوس ولاسكاريوس وميخائيل وستراسيوس وحطمنا قواهم . وأعلموا أنه لاينقصنا للنصر النهائى لتوطيد أركان الامبراطورية الاجمهور من اللاتين نوزع عليه البلاد التى نفتحها بل التى فتحناها لان الحصول على الشئ ليس مهما ان لم يكن هناك من يحافظ عليه .

صدر عن بيرجامون فى اليوم الثامن بعد الفطاس سنة ١٢١٢ للتجسد الـــرب .

1. Henricus Dei gratia fidelissimus in Christo
imperator a Deo coronatus Romanie moderator et semper
augustus, universis amicis suis, ad quos tenor
presentium litterarum pervenerit, salutem in Domino
dominorum.

5. Quoniam dilectio vestra de statu nostro certificari
desiderat et de prosperitate nostra, sicut confidimus,
habitura est letitiam, idcirco quedam etsi non singula,
que circa nos fecit Dominus, presenti kartula
nunciamus. Intelligatis nos hactenus in nostro
habuisse imperio quatuor inimicos principales et
potentissimos,
10. in medio quorum positi et expositi, illorum incursus
assiduos sustinuimus undique et insultus. Horum quide(m)
primus et maximus fuit Lascarus //, qui totam
terram ultra brachium sancti georgii usque in Turkiam
tenuit et , ibidem pro imperatore se gerens, nos ex illa
parte multipliciter aggravavit. Ex alia vero
15. parte Burillus institit nobis, qui similiter inter
gentem Bulgarorum, quibus se per violentiam preposuit,
imperiale sibi nomen cum signis imperialibus usurpaverat
et inde nos diu et multis incursibus fatigaverat. In
altera vero parte, videlicet in regno Thessalonice,
erant Michaelicius, traditor potentissimus, et
20. Stracius, nepos Johannicii, magni olim populatoris
Grecie, qui licet duo nobis fidelitatis iuramenta
prestitissent, totis tamen viribus in partibus illis

nostro exitio imminebant. Unde primo pro illis
debilitandis et deiciendo eorum élata potentia, de
consilio baronum nostrorum ad partes Thessalonice
25.descendimus XII dietis a Constantinopoli, sicut iam
dudum ad vos credimus pervenisse. Illuc vero cum
prefatis hostibus longo luctamine habito, tandem
auxilio Dei illos ad hoc adduximus, quod nichil aut parum
nos vel quemquam alium poterunt aggravare, nec profuerunt
illis subtiles et excogitate proditiones, quibus contra
30.nos usi sunt sepius. Quater enim Michaelicius et ter
Stracius iuramenta nobis prestiterunt, quod neuter
illorum totiens infringere dubitavit. Sed nos ita
castigatos illos sup(er) hoc dimisimus, quod coacti sunt
penitere fidem nobis fregisse totiens, pre aliis peccatis
omnibus que fecerunt. Nos enim de optima terra quam
35.tenebant , maiorem partem eis abstulimus, et nisi maiora
negocia nos Constantinopolim revocarent, non eis sola
domuncula in nostro imperio remanisset. Sed alii duo
nostri hostes imperii, Burillus videlicet et Lascarus,
nimis graviter opprimebant Constantinopolim, unus per
terram, alius per mare , et iam lascarus unum de
40.maioribus nostris hominibus ceperat, dominum Petrum
videlicet de Bracello, et maximum galiarum numerum
coadunaverat, ut Constantinopolim expugnaret. Qua de
causa civitas in magna desolatione posita trepidabat,
ita quod plurimi nostrorum de nostro reditu desperantes

per mare proponebant fugere, plures vero ad ipsum
45.Lascarum iam transfugerant, ei contra nos promittentes
auxilium et iurantes. Ob hoc igitur cum festinatione
redeuntes, die Pasche ad quandam civitatem nostram
que Rossa dicitur pervenimus, et in die sequenti
exeuntes diluculo et parum a civitate elongati, didicimus
per nuncium fidelem, quod Burillus ibidem prope ante nos
comanorum
50.erat cum maximo x et Blascorum et Bulgarorum exercitu et
nostro insidians adventui; viam ; qua transituri eramus,
que strictissima erat et difficilis utrobique montibus
clausa, occupaverat, volens nos intra montium diff-
iculates deprehendere fraudulenter. Et nisi Dominus
fraudem eius et occultum detexisset laqueum, ,
55.comprehendi leviter potuisset nostra parvitas in illo
transitu, quia non plures quam LX milites habebamus. Sed
cum per nuncios et speculatores quos ibi misimus, hoc
verum esse probassemus, ab illa via declinantes per aliam
viam, que circa mare protenditur, oblungavimus iter
60.nostrum et per quedam castella, que illuc habebamus,
transitum facientes armatos, qui erant ibi, nobis
adiunximus et sic ulterius procedentes obviavimus
multis nostrorum, qui de Constantinopoli tribus dietis
procul nobis occurrerant; et tunc videntes numerum
nostrum augmentatum, statim ad insequendum Burillum
65.iter nostrum reflectimus proponentes pugnare cum illo,
si possemus alicubi invenire. Sed ipse adventum

nostrum presentiens fugam arripuit, et nos illum
duobus diebus insequentes nequaquam invenire
potuimus vel consequi celeriter fugientem. Tunc vero
Constantinopoli revertentes ibi cum gaudio et
sollemnitate maxima recepti sumus, velut qui longo
70. tempore a populo expectati cum desiderio fueramus.
Interim autem, dum ibi usque ad mensem iulii moram
faceremus, diversos rumores de diversis partibus recepimus.
Significaverunt enim nobis barones nostri, quos in
marchia Thessalonice regni servanda reliqueramus,
75. comes Bertoldus videlicet et frater noster Eustachius
et quidam alii, quod inimicus Stracius, quem omnino
reliqueramus destitutum viribus, vires resumpserat
per Burillum, qui ei miserat in auxilium LII acies et
iam plurima nobis damna intulerat; sed prefati
barones collectis viribus suis et associati Michaelitio,
80. qui tunc cum eis concordiam inierat, eidem Stracio in
plano Pelagonie occurrerant, ubi cum illo pugnates
optinuerunt victoriam, ita quod maiorem partem sui
exercitus dimisit stracius in eadem planicie
gladiatam .
Ex alia vero parte nobis innotuit, quod soldanus
Yconii, qui nobiscum amiciciam iuramento firmaverat et
85. auxilium contra ipsum Lascarum pepigerat, ingressus
erat terram Lascari cum maximo Turcorum exercitu; sed
Lascarus ei cum maxima Grecorum multitudine occurrerat

et etiam Latinorum , qui sub excommunicatione summi
pontificis ei adhaeserant, quorum auxilio optinuit
contra soldanum Lascarus in prelio victoriam, ita
90. quod ipse soldanus retentus fuit et occisus cum maxima
parte Turcorum. Qua de causa Lascarus acrior et
elatior factus misit lit(te)ras ad omnes Grecorum
provincias, continentes honorem et lucrumque
victorie, significans etiam, quod si eum vellent
adiuvare, cito Greciam totam // de latinis canibus
95. liberaret; ob hoc omnes submurmurare contra nos
incipientes, ei promittebant auxilium, si veniret
Constantinopoli pugnaturus. Nos vero hoc intelligentes
de fidelium nostrorum consilio ad eum invadendum
brachium sancti Georgii transivimus, magis volentes
eum invadere quam eius invasionem Constantinopolim
100. expectare. Cumque iam brachium transivissemus nec tamen
adhuc omnes milites nostri transivissent , occurrit
nobis statim Lascarus cum gravi multitudine ante
civitatem Spigacii, quam illuc solam habe-bamus. Et nos,
licet adhuc paucissimi numero multi tamen virtute et
animo essemus, ei extra civitatem ad pugnam nos obtul-
105. imus, sed ipse statim fugam arripiens in quibusdam
montibus vicinis, de quorum vicinitate confidebat, se
recepit; non tamen tam velociter fugere potuit,
quin nos, qui eum de prope sequebamur, grave dampnum
sibi inferremus, in cauda exercitus sui, cujus partem

magnem detruncavimus, equos plurimos cum equitantibus
110. retinentes. Postea vero collecto nostro exercitu,
equitare palam per terram cepimus, nec ipse nobis
audebat in planis occurrere, sed cum exercitu suo
montes tenens insidiabatur nostris cursoribus, qui
pro victualibus mittebantur. Sed tandem videns terre
populus, quod nos ad libitum nostrum per terram
115. equitaremus, congregatus est ad Lascarum dicens ei
com(mu)niter, quod hoc diutius sustinere nolebant vel
poterant, sed aut ipse nobiscum pugnaret aut ipsi nobis
se reddere non different. Quod audiens Lascarus
congregavit infinitum populum tam peditum tam peditum
quam equitum , ita quod habuit XC acies, quarum octo
erant ex Latinis, qui ei contra nos faciebant
120. auxilium sub excommunicatione domini pape, timorem Dei
et hominum relinquentes. Cum hac igitur multitudine
nobis occurrit Lascarus quinta decima die octobris
iuxta fluvium Luparci; ubi nostra tentoria fixeramus.
Non autem exercitum suum traxit in planiciem, sed iuxta
125. montem quendam latens duas acies ante nostra misit tentoria,
quas cum quidam nostrorum viderent et insequerentur,
invenerunt ibi prope nos eius multitudienem con-
gregatam. Quod cum nobis renunciassent, arma statim
sumi iussimus et illuc accedentes percussi fuimus
admiratione et extasi, videntes ibi tantum populum
130. ordinatum per acies et divisum. In sola enim acie
Lascari erant mille dcc homines loricati, plures

videlicet quam in toto nostro exercitu. Nos enim
parvas et solas XV acies habebamus, ex quibus una ad
servanda tentoria remanserat, et in unaquaque nonnisi
XV erant milites excepta nostra sola, in qua misimus
135.L. Videntes tamen, quod salubriter bellum subterfugere
non poteramus, in solo Deo et eius sanctissima cruce,
que ante nos ferebatur, spem nostram omnino posuimus,
et sic XII simul ex nostris aciebus currere precepimus
timentes, quod si pauciores currerent ab hostili
multitudine involverentur. Illi vero ex adverso cum
140.magnis clamoribus et tubarum sonitibus occurrerunt
equos equis et gladios gladiis opponentes et con-
flictum primum satis viriliter sustinentes. Non tamen
eventus belli nisi per brevem horam duravit dubius.
Statim enim post receptionem primorum ictuum adversa
pars incepit fugere et fugiens terga nostrorum gladiis
obtulit ferienda.
145.Nos vero tunc acrius et audacius instantes eos sequi et
sternere non cessavimus ab hora diei prima qua prelium
incepit usque ad solis occubitum, ita illis immixti,
quod vix sous ab aliis dinoscebant. Unde non oportet nos
dubitare multos illa die gladio corruisse. Quod
tamen mirabile est in oculis omnium audientium, nullus
de Quod tamen mirabile est in oculis omnium audient-
150.ium , nullus de toto nostro exercitu perisse vel mortale
vulnus recepisse inventus est, et multi Latinorum ex parte

Lascari ceciderunt in prelio; quidam vero vivi capti
sunt et retenti et alii, qui vivi potuerunt evadere,
ad nostram misericordiam sequenti nocte redierunt. Ab
illo vero die Lascarus penitus destitutus fuit viribus
155.nec susus fuit nobis alicubi apparere, sed ex tunc terra
se nobis cepit reddere et omnes usque ad marchiam
Turkie nostro venerun (t) inclinare imperio, exceptis
castellis aliquibus, que in instanti estate bene
confidimus, auxilio Dei, Dei, compellere ad reddendum.
Eodem quoque tempore, dum taliter ageremus in illis
160.partibus, nunciatum fuit nobis a nostris baronibus
regni Thessalonice comite Bertoldo videlicet et
fratre nostro Eustachio et aliis, quibus marchiam
servandam commiseramus, quod Burillus illuc super-
venisset // cum magno exercitu damna nobis plurima
inferendo; sed ipsi barones insimul collecti et
associati Sclavo , genero nostro,
165.ei occurrerent, sed ipse eos metuens terram fugiendo
exiverat, relictis post se XXIIII aciebus peditum et
duabus equitum, qui omnes a nostris sequentibus
occisi sunt nullo penitus evadente. Sic igitur intell-
igatis undique nos divino auxilio optinuisse victo-
riam et quatuor prenominatos hostes, Burillum videlicet
170.et Lascarum, Michaelicium et Stracium, humiliatos
penitus et viribus destitutos.

Nichil autem nobis deesse sciatis ad habendam plenam

victoriam et possidendum imperium, nisi Latinorum copiam, quibus possimus dare terram, quam acquirimus,
175. immo quam iam acquisivimus, cum sicut scitis parum sit acquirere, nisi fuerint qui conservent.
Datum Pergamis in octavis Epyphanie anno dominice incarnationis MCCXI.

***

الملحـــق الثانـــي

خطاب البابا هونريوس الثالث الى جميع رجال الدين في القسطنطينية (٢٢ مـارس ١٢١٨ م) (١)

لقد بلغنا من طرفكم توسل ملح بالتفضل بالتأييد الرسولي للمرســـوم الذي أصدره سلفنا الطيب الذكر اينوسنتيوس (٢) الذى قضى بقرار حكم هـــو أن يجتمع كل رؤساء الكنائس الديرية المجاورة للقسطنطينية في كنيسة القديسة صوفيا مع كهنتها لينظروا في شأن الانتخاب كلما شغر كرسي كنيسة القسطنطينية وينتخبوا شرعيا شخصا مناسبا بالتزكية الجماعية أو بالاكثرية الغالبة على مايرضي الله تعالى : اننا نبادر الى تلبية طلبكم العادل هذا وصون نقر بسلطتنا الرسولية المرسوم نفسه الذى أمرنا بتحرير نصه حرفيا ضمن هذه الرسالة كمـــا تثبت الرسالة نفسها بتأييدنا . أما نص المرسوم المذكور فهو كما يلي :

من اينوسنتيوس الاسقـــف المسلمـــين اخيه الاجل بطريرك القسطنطينية وجميع رجال الدين الذين فيها ـ السلام والبركة الرسولية ـ رغم كون الكرسي الرسولي وهو الكنيسة الام والمعلمة للكنائس كلها لايمس الى احد لــــدى ممارسته حقوقه . ولا يجوز للكنائس الادنى منه مكانة ان تمس أى شيء يمـــس الهيكل لان كل تصرف فيها انما ينبع من سلطته السماوية لانه يدعو الكنائس الاخرى الى الاسهام في الرعاية محتفظا لنفسه بملء السلطة في كل شيء ـ رغــــم هذا كله ـ رغم هذا كله ـ فاننا نريد الان تدبير شأن الكنيسة في القسطنطينية ونأبى أن نسلبك أيها الاخ البطريرك حرية الانتخاب الشرعي بعد أن انتخبنـــاك ونصبناك ثم قدمناك للسيامة . كما لانريد المساس بهذه الحرية بأى مبادرة من طرفنا بطريقة لايجوز مسها ولايمكن اتمام (الانتخاب) شرعيا انما ماعـــــر

(١) Wolff, "Politics in the Latin Patriarchate of Constantinople 1204-1261 in Du-mbarton Ocks papers T.8. (1954) p.297, appendix II.

٢) انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م)

(الكرسي) في المستقبل ، وعليه فاننا نمنحك هذه الرسالة من باب الاحتياط ثم لما كانت لهذه الكنيسة المكانة الاولى بعد كنيسة روما ، ولما كان رئيسها هو الثاني بعد بابا روما ولهذا السبب ، ولما كان انتخابه يجب أن يتم بعد المزيد من البحث والجهد من التداول والمشورة على قدر مكانته السامية في كنيسة الله فاننا نقرر بهذا المرسوم أنه اذا ما شغر هذا الكرسي فعلى جميع مطارنة كنائس الاديرة المجاورة للقسطنطينية ان يجتمعوا في كنيسة القديسة صوفيا مع جميع كهنتها للنظر في أمر الانتخاب ، وليتم الانتخاب بالتزكية الجماعية أو بالاكثرية الغالبة على ما يرضي الله تعالى ٠

Pressutti 1174, Reg. Vat. XI, Book 2, letter 960, folio 234, March 22, 1218. To all the clergy of Constantinople:

Cum a nobis petitur et cetera usque effectum. Ex parte siquidem vestra fuit nobis humiliter supplicatum ut cum felicis recordationis I (nnocentius) predecessor noster provida deliberatione statueret ut, cum ecclesiam contigerit Constantinopolis vacare, universi prelati conventualium ecclesiarum apud Constantinopolim positarum in ecclesia Sancte Sophie una cum canonicis eius ad tractandum super electione conveniant, et de unanimi consensu omnium vel maioris aut sanioris partis eorum electio secundum deum de persona idonea canonice celebretur, constitutionem ipsius super hoc editam apostolico dignaremur munimine roborare. Nos igitur vestris iustis postulationibus grato concurrentes assensu, statutum ipsum cuius tenorem de verbo ad verbum presentibus iussimus litteris annotari, auctoritate apostolica confirmamus et presens scriptum patrocinio communimus. Tenor autem eiusdem constitutionis est talis: Innocentius episcopus servus servourm dei, venerabili fratri Patriarche et universo clero Constantinopolitano salutem et apostolicam benedictionem. Licet apostolica sedes, que mater est ecclesiarum omnium et magistra, nulli prorsus iniuriam faciat cum utitur iure suo, necminores ecclesie in suum debeant preiudicium allegare cum quicquam in eis ex collata sibi celitus

potestate disponitur, utpote que sic vocavit alias in partem sollicitudinis ut sibi reservaret in omnibus plenitudinem potestatis, Constantinopolitane tamen ecclesie nuper providere volentes, nolumus ex eo quod te frater Patriarcha eligere ac confirmare curavimus et tandem duximus consecrandum auferre ipsi electionis canonice libertatem, aut per factum nostrum eidem preiudicare in posterum quominus cum eam vacare contigeret, deberet et posset canonice ordinari. Unde super hoc litteras tibi concessimus ad cautelam. Ceterum cum eadem ecclesia primum locum obtineat post Romanam et antistes ipsius a a Romano Pontifice sit secundus, ideoque quanto maiorem obtinet in ecclesia dei locum, tanto cum maiori deliberatione ac maturiori et pleniori sit consilio eligendus, presentium auctoritate statuimus, ut cum eandem ecclesiam vacare contigerit, universi prelati conventualium ecclesiarum apud constantinopolim positarum in ecclesia Sancte Sophie una cum canonicis eius ad tractandum super electione conveniant, et de unanimi consensu omnium vel maioris et sanioris partis eorum electio secundum deum de persona idonea canonice celebretur. Nulli ergo et cetera nostre constitutionis infringere, vel ei et cetera usque contraire. Siquis autem et cetera usque incursurum Decernamus ergo et cetera nostre confirmationis infringere vel ei et cetera usque contraire. Siquis auten et Cetera.

الملحق الثالث

خطاب البابا هونوريوس الثالث الى الامبراطور اللاتيني روبرت الكورتناى (٢٨ سبتمبر ١٢٢٢ م) (١) .

أننا نهتم راضين وكما يليق بكل ماتعلم أنه يسهم في رفع شأن امبراطوريتكم واكرام شخصكم الذى نقدسه بامتياز خاص من المحبة والود . فنتصدى لكل محاولة للنيل من شخصكم أو امبراطوريتكم . كما ولابد لنا من النظر في كل ماقد ناله (من مكروه) . ان الطيب الذكر بطرس مطران كنيسة القديس مارسيلوس الكاهن الكردينال . في أثناء قيامه بمهمة المندوب البابوى في الامبراطورية اللاتينية قسم المدينة الملكية (القسطنطينية) الى اثنتين وثلاثين رعية كان يرشح لها الرعاة سابقا اباطرة القسطنطينية . غير أن طيب الذكر بنديكتوس الكاهن الكاردينال مطران كنيسة القديسة سوزانا في أثناء قيامه بدور المندوب في تلك المنطقة وقع ضحية حيلة دبرها له آخرون كما يقال فخفض عدد الرعايا الى سبع من غير موافقة امبراطور القسطنطينية . وكان السبب الرئيس انها كانت على مايبدو في غاية الفقر والضعف . وقد أقر تصرفه هذا بمرسوم رسولى مما سبب اهانة ظاهرة للامبراطورية ثم ان البابا اينوسنتيوس سلفنا قرر بأمر حكيم أن يتمتع رؤساء كنائس الاديرة الكائنة داخل المدينة بالتصويت لدى اجراء انتخاب البطريرك وقد أقر امره هذا بسلطته الرسولية . ولهذا السبب أرسلت من يطلب متوسلا الا تحرم لا أنت ولا من يخلفك من ترشيح الرعاة لها لان ابننا الحبيب يوحنا الكاهن الكردينال مطران كنيسة القديسة براكسيديس الذى كان مندوبنا في تلك البلاد مندوبا رسوليا كاد أن يصلح باهتمامه وبجهوده الشخصية شئون الاثنتين والثلاثين كنيسة جميعها . التى قسمت عليها الرعايا وزودها بما يناسبها من سلطات .

(١) Wolff, " Politics in the Latin Patriarchate of Constantinople 1204-1261 " in Dumbarton Oaks papers, 8 (1954) p. 301, appendix V.

وعليه فاننا تلبية لطلبك وبعد اضطلاعنا على الامر فقهيا وبطريقة وافية من يوحنا المذكور الكاهن الكردينال مطران كنيسة القديسة بواكسيدس ، وصرف النظر عما جرى على يد بندكتوس المذكور آنفا الكاهن الكردينال مطران كنيسة القديسة سوزانه نؤكد لك بسلطتنا الرسولية حق الترشيح للاثنتين والثلاثين رهبة الآنفة الذكر ما جرت عليه عادة اسلافك ونقر ذلك بموجب كتابنا هذا فلا يجوز لاحد الخ تأييدنا هذا وانا خالف أحد الخ ٠

Pressutti 4123, Reg. Vat. XII, Book 7, letter 16, folio 4, September 28, 1222.

To the Emperor Robert:

Hiis que ad exaltationem imperii et honorem persone tue quam speciali prerogativa dilectionis et gratie amplexamur pertinere noscuntur libenter prout convenit intendentes sicut attemptandis in tuum vel imperii preiudicium ausibus occurrere obviando sic et attemptatis nos decet succerrere providendo. Sane cum bone memorie p (etrus) tituli Sancti Marcelli presbyter Cardinalis legationis officio fungens tunc in partibus Romanie triginaduas preposituras in civitate regia provide ordinasset quarum presentationem Imperatores Constantinopolis qui prefuerunt pro tempore habuerunt; postmodum bone memorie B (enedictus) tituli Sancte Susanne presbyter Cardinalis in eisdem partibus fungens legationis officium (sic) , aliena sicut creditur astutia circumventus, ad septenarium numerum preter Imperatoris Constantinopolis convenientiam preposituras redegit easdem, ea occasione precipue quia nimis videbantur pauperes et exiles; idque fuit apostolicis roboratum in imperii preiudicium manifestum. Felicis vero memorie Innocentius papa predecessor noster post hec provide statuit ut prelati ecclesiarum conventualium inter urben vocem haberent in patriarcharum electionibus celebrandis, et suum statutum auctoritate apostolica

confirmavit. Unde nobis fecisti humiliter supplicari ut, cum dilectus filius noster I (ohannis) tituli Sancte Praxedis presbyter Cardinalis, tunc in eisdem partibus apostolice sedis legatus, fere omnes trigintaduas illas ecclesias in quibus prepositure fuerant ordinate suo studio et diligentia reformarit quia easdem congruis facultatibus stabilivit, tibi tuisque successoribus nullatenus subtraheretur presentatio earundem . Nos itaque tuis precibus annuentes, et eiusdem Iohannis tituli Sancte Praxedis presbyteris Cardinalis super hoc viva voce sufficienter instructi, eo nequaquam obstante quod per supradictum B (enedictum) tituli Sancte Sussanne presbyterum Cardinalem actum constitit, presentandi ius in predictis trigintaduabus preposituris sicut illud predecessores tui habuisse noscuntur auctoritate tibi apostolica confirmamus et presens scriptum patrocinio communimus. Nulli ergo et cetera nostre confirmationis. Siquis autem et cetera.

***

الملحق الرابع

خطاب من البابا جريجوري التاسع الى حنا فاتاتزيس امبراطور نيقيــة (١) .

الى السيد الفاضل فاتاسيوس(٢) مع النصيحة بالمزيد من التروي . لمــا كانت الحكمة تبسط ملكها — كما هو معروف — فيما بين اليونانيين . ومــن ينبوعهم تتدفق انهار المعرفة فيما بين المتباعدين عنهم . فاننا لانشك فى أن لديكم من حسن النظر ونضوج الرأى وحسن التدبير، ما يجعلكم تتبصرون فى كــل شئ بحيث لايفوتكم ما للكرسى الرسولى من سلطان ، لم ترس أسسه وتشد، على صخرة الايمان قوة بشرية ، بل (المسيح) وحده هو الذى سلم بطرس حامل مفاتيح الحياة الابدية، سلطة الملك فى الارض والسماء معا . فعليكم أن تعترفوا به كأب لكم وتحرصوا على العلاقات الطيبة معه . فيما عاد عليكــم ذلك بعظيم الفوائد ان لم تقفوا فى وجهه العراقيل .

والان بعد أن أصدرنا أوامرنا باعلان الدعوة لحرب صليبية فى العالــم بأسره لانقاذ الاراضى المقدسة . وبعد أن ارتفع صوت بوق الخلاص مدويــا وداعيا على لسان الوعاظ ، بوحى من النعمة الالهية الى جهاد الجيوش المسيحية وبعد أن رفع راية الصليب جم غفير من الفضلاء والاتقياء، والمحاربون البواســل الذين لاحصر لهم . والذين ستتمكن عن قريب بفضلهم وفضل المؤمنين الاخرين — الذين لايحصى عددهم — وبعونه تعالى من اغاثة امبراطورية رومانيــا بعهد قريــب محدودة، فتنكسر شوكة العدو وتنعم الامبراطورية بالسلام المنشود . وقد رأينا أن نلفت نظر سيادتكم ونتبهكم وننصحكم ونأمركم، أن تنظروا فى مصلحتكم وتحتاطوا لما قد يمس سيادتكم فى المستقبل ، كما ندعوكم بصفة خاصــة وتنظروا لما تؤدى اليه لاسمح الله كوارث الحروب من ازهاق فى الارواح، وتنكيــل

---

(١) Grumel V., " L'authenticité de la lettre de Jean Vatatzes empereur de Nicée au pape Grégoire IX" dans Échos d'Orient (1930) pp. 455-56.

(٢) حنا : فاتاتزيس امبراطور نيقيــة (١٢٢٢ — ١٢٥٤ م)

بسالاجسام وتمزق في الاوطان واهدار للاموال — الا فاعتمدوا على الامبراطورية المذكورة ولاتسببوا لابنتنا الحبيب في المسيح حنا امبراطور القسطنطينيـــــة المعظم ولذويه أي ازعاج أو أية مضايقة • بل ابذلوا له العون والنصح والتأييد متشبثوا بالايمان وبالاعمال الظاهرة انكم ابن محب لكنيسة روما • ونحن ستعتبر ولا شك أن من واجبنا افاضتكم بالبركات الجزيلة وصلاة الشكر •

وأخيرا فقد تشكون من هذا الانذار لكونه مرفقا بتوعد أبوي • لكن الغرض منه أن تتجنبوا ذلك المأزق الخطير الذي لن تخرجوا منه بسهولة لو وقعتـــم فيه في حالة عدم اتخاذكم الاحتياطات اللازمة ضد ما يحيق بكم من مخاطر •

Lettre de Grégoire IX à Vatatses

Nobili Viro Vatacio spiritum consilu sanioris.

Cum in grecis sapienlia regnare credatur a quibus abolim velut de fonte ad longe posilos scientie rivuli manaverunt, illa te credimus discrelione vigere, aaque uti maturitale consilii et providentia singula providere (: ut attendens sedis apostolice principalum, quam non lerrena potentia sed ille solus fundavil et super petram fidei mox nascentis erexit qui beato petro eterne vite clavigero terreni simul et celestis imperii iura commisit, ipsam matrem debeas recognoscere et lenere, ac ipsius tibi conservare favorem, que tibi esse poterit si per le non steterit plurimun fructuosa. Cum igitur pro subsidio lerre sancte per universum mundum predicari mandaverimus verbum crucis, et postquam clamor tube insonuit salutaris per ora predicatorum clangentis et invitantis ad pugnam militie christiane divina gratia inspirante tot nobiles et potentes ac tot strenui bellatores assumpserint signum crucis quod pene illorum est innumerabilis multitudo, per quos et alios christifideles quorum fere infinitus est numerus sic poterit Imperio Romanie in potenti manu et extento brachio auctore domino in proximo subveniri, quod omnis conatus adversantium destruetur et optata pace idem Imperium respirabil: Nobilitatem luam monendam duximus attente et hortandam, mandantes quatenus utilitati tue prudenter

consulens et saluti, ac indempnitati provide precavens in futurum, presertim propter animarum pericula strages corporum locorum exzidia et rerum dispendia que ob cladem bellorum quod avertat dominus sequerentur, nichil periculi, nichil dispendii contra dictum imperium machineris , nullamque karissimo in christo filio nostro I ohanni Imperatori Constantinopolitano illustri et suis , moleslias inferas vel gravamen, sed potius impendas auxilium consilium et favorem , ila quod te Romane ecclesie filium et devotum tam fide quam operum exhibilione demonstres, nosque in benedictionibus dulcedinis et gratiarum actionibus te prosqui merito debeamus. Alioquin libi habes quod imputes si te monitio non sine paterna comminatione premunit, ut proprii periculi non provisor illum articulum difficultatis evites de quo si in eum incideris non poteris facile liberari.

الملحـــــق الخامـــــس

قوائم بأسماء أباطرة القسطنطينية اللاتين ، وأباطرة نيقية وأمراء أبيروس ، وقياصرة بلغاريا ، وبوديـــــستات البندقيـــة في القسطنطينيـــة

(١٢٠٤ ـ ١٢٦١م)

أولا : الاباطرة اللاتين :

بلدوين الاول من فلاندرز	Baldwin I of Flanders	(١٢٠٤ـ١٢٠٥م)
هنرى من فلاندرز	Henri of Flanders	(١٢٠٦ـ١٢١٦م)
بطرس الكورتناى	Peter Courtenay	(١٢١٦ـ١٢١٧م)
يولاند	Yolande	(١٢١٧ـ١٢١٩م)
روبرت الكورتناى	Robert Courtenay	(١٢٢١ـ١٢٢٨م)
بلدوين الثانى	Baldwin II	(١٢٢٨ـ١٢٦١م)
حنا من برين	John of Brienne	(١٢٣١ـ١٢٣٧م)[١]

بالاشتراك مع بلدوين الثانى

ثانيا : أباطرة نيقيـــه :

ثيودور الاول لاسكاريس	Theodore I Lascaris	(١٢٠٤ـ١٢٢٢م)
حنا الثالث دوقاس فاتاتزيس	Jean III Ducas Vatatzes	(١٢٢٢ـ١٢٥٤م)
ثيودور الثانى لاسكاريس	Theodore II Lascaris	(١٢٥٤ـ١٢٥٨م)
حنا الرابع لاسكاريس	Jean IV Lascaris	(١٢٥٨ـ١٢٦١م)[٢]

---

١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٨٥١ـ٨٥٢

٢) Longnon, L'empire Latin de constantinople, Acropolitas, Annales, in C.S.H.B.

ثالثا : أمراء ابيروس :

ميخائيل الأول دوقاس	Michael I Ducas	(١٢٠٤ـ١٢١٥م)
ثيودور انجيلوس	Theodore Angelos	(١٢١٥ـ١٢٣٠م)
مانويل انجيلوس	Manuel Angelos	(١٢٣٠ـ١٢٣٧م)
حنا	John	(١٢٣٧ـ١٢٤٤م)
ديمتريوس	Demetrios	(١٢٤٤ـ١٢٤٦م)
ميخائيل الثانى	Michael II	(١٢٣١ـ١٢٧١م) (١)

رابعا : قياصرة بلغاريا :

كالويان	Kalojan	(١١٩٧ـ١٢٠٧م)
بوريل	Boril	(١٢٠٧ـ١٢١٨م)
حنا آسن الثانى	John Asen II	(١٢١٨ـ١٢٤١م)
كاليمانوس الأول	Kalimanus I	(١٢٤١ـ١٢٤٦م)
ميخائيل آسن	Michael Asen	(١٢٤٦ـ١٢٥٧م)
كاليمانوس الثانى	Kalimanus II	(١٢٥٧ـ) (٢)
قسطنطين تيخومير	Constantine Tichomir	(١٢٥٧ـ١٢٧٧م)

خامسا : بودستات البندقية فى القسطنطينية (١٢٠٤ـ١٢٦١م) :

مارينو زينو	Marino Zeno	(١٢٠٥ـ١٢٠٧م)
اوحافيانو كويرينو	Ohaviano Quirino	(١٢٠٧ـ١٢٠٩م)
مارينو داندولو	Marino Dandolo	(فى الفترة مابين ترلى كويرينو وتيبولو)
جاكوبو تيبولو	Jacopo Tiepolo	(١٢١٩ـ١٢٢١م)

---

(١) Nicol, The despotate of Epiros.

(٢) Ibid.

مارينو ميخائيل	Marino Michiel	(١٢٢١ـ١٢٢٢م)
مارينو ستورلاتو	Marino Storlato	(١٢٢٢ـ١٢٢٣م)
جاكوبو تيبولو	Jacopo Tiepolo	(بودستا للمرة الثانية ١٢٢٤ـ١٢٢٧م)
تيوفيلو زينو	Teofilo Zeno	(١٢٢٧ـ١٢٢٨م)
جيوفاني كويرينو	Giovanni Quirine	(١٢٢٨ـ١٢٢٩م)
ر. كويرينو	R. Quirino	(١٢٢٩مـ)
تيوفيلو زينو	Teofilo Zeno	(بودستا للمرة الثانية ١٢٣٥ـ١٢٣٨م)
جيوفاني ميخائيل	Giovanni Michiel	(١٢٤٠ـ١٢٤١م)
اجيديو كويرينو	Egidio Quirino	(١٢٤٧ـ)
جاكوبو دولفين	Jacopo Dolphin	(١٢٥٦ـ١٢٥٨م (؟))
ماركو جرادينجو	Marco Gradenigo	(١٢٥٩ـ١٢٦١م)

(١) Wolff, "Anew document from the period of the latin empire of constantinople" dans Mélanges Henri Grégoire (1953) p. 559.

أولا : المصادر الأجنبية :

Acropolitas-Georgius , Annales, in Corpus Scriptorum Historia Byzantina (C.S.H.B.) , Bonna 1836.

Chronique de Morée au XIII et XIV siécle, Publiée par Fation A.M., Geneve 1885.

Delile (éd) , "Lettres indites d'Innocent III, dans Bibliothéque de l'École des chartes, Vol. 39 (1873).

Eracles, L'Estoire de Eracles empereur. dans Recueil Historiens des croisades (R.H.C) Paris 1859.

Gill, Joseph (éd), " An Lettre un-published of Germanous, Patriarch of Constantinople (1222-1240), in Byzantion, T.XLIV (1974).

Gregoras, Nicephorus, Byzantina Historia , in C.S.H.B. Bonnae 1829.

Houtsma, M.T., Histoire des Seldjoucides d'Asie Mineure d'aprés Ibn Bibi , Texte Turc et Persan Leiden 1902.

Lauer, M (éd) " Une lettre in-édite d'Heuri ler d'Angre empereur de Constantinople, aux Prélats Italiens (1213?)", dans Mélanges M.G. Schlumberger Paris 1924 .

Nicetas Choniates, Historia,
in C.S.H.B
Bonnae 1835.

Pachymeres, Georgius, Michael et Andronico Palaeologis,
Volumen Prius in C.S.H.B.
Bonnae 1835.

Papadopoulos, (éd) , " Documents Grecs pour sérvir à
L'histoire de la 4me croisade", dans Revue de
l'Orient Latin, T.I (1893).

Patrologia Latina, In Patrologia Cursus Compeletus
T.214 (Gesta Innocent III),
T. 215 (Opera Omnia)
editorem, J.P. Migne,
Paris 1855.

Prinzing G., " Der brief Kaiser Heinrichs von Konstantinople
von 13 Januar 1212 Ueberlieferun Geeschichte
neudition und Kommentar", in Byzantion (1973).

Valenciennes, Histoire de l'empereur Henri, (éd) Wailly,
Paris 1882. et (éd) Longnon, Paris 1948.

Van Den Gheyn. S.J, " Lettre de Grégoire IX concernant
l' empire Latin de Constantinople (perouse,
13 decembre 1229), dans Revue de l'Orient
Latin , T.IX (1902).

Villehardouin, La Conquête de Constantinople, (éd) Wailly,
Paris (1882).

Voynov and Panayolov (éditors), Documents and materiales on The history of the Bulgarian People, Sofia 1969.

Wolff, R.L (éd) , " A new document from The period of The Latin Empire of Constantinople : The Oath of The Venetian Podestà ", dans Mélanges H.Grégoire Bruxelles 1953.

...

ثانيا : المراجع الاوربية :

• Ahrweiler. H, Byzance et la mer.
Paris 1966.

• Ashour & Rabie, Fifty documents in mediaeval history
Cairo 1971.

• Belin. M.D., Histoire de la Latinite de Constantinople
Paris 1894.

• Bon. A, La Morée Franque (1205-1430)
2 Tomes, Paris 1969.

• Brand. ch, " The byzantines and Saladin in 1185-1192
Opponents of the third crusade", in
Speculum (1962), pp. 167-181.
- "Byzantine plan for the Fourth crusade",
in speculum (1968) pp.462-475.

• Bratianu. G.I., Recherches sur le commerce Génois
dans la mer Noire au XIII^e siécle.
Paris 1929.
- "L'hyper-pére byzantin et la monnaie d'or
des republiques Italiennes au XIII^e Siecle",
dans Mélanges charles Diehl, Vol. I
Paris 1930.

• Bréhier. L, Le monde Byzantin
vie et Mort de Byzance , Vol. I
Paris 1948.
- L'Eglise et L'Orient au moyen age .
Les Croisades. Paris 1907.

- "Jean de Brienne"
dans dictionnaire de l'histoire et
Geographie Ecclesiastiques
T.VI Paris 1932.

. Brown. A.R, " The Cisterciens in the Latin Empire of
Constantinople and Greece 1204-1276",
in Tradito , Vol XIV (1958).

. Brown. H, " The Venetians and the venetian quarter
in Constantinople to the close of the
twelfth century in Journal of Hellenic
studies, Vol. XL (1920) pp. 69-88.

. Dendias. M, " Le roi Manfred de Sicile et la bataille
de Pelagonie", dans Mélanges .
charles Diehl . Vol. I Paris (1930)
pp. 55-60.

. Diehl . ch, " The fourth crusade and the Latin
Empire" in Cambridge Medieval History
vol. 4 (1936).

- Figures Byzantines.
deuxiéme série, Paris 1908.

- Dans L'Orient Byzantine
Paris 1917.

- Histoire de l'empire Byzantine
Paris 1920.

. Dinic. M, " The Balkans 1018-1499"
in Cambridge Medieval History
Vol. 4, Part. I (1966).

. Dufournet. J, Les écrivains de la IV^e croisade
villehardouin et clari
2 Vols - Paris 1973.

. Faral. E , " Geoffroy Villehardouin . La Question
de sa sincérite", dans Revue Historique
(1936).

. Finlay. G, History of Greece
Vols. III , IV
Oxford 1867.

. Fliche. A, Histoire de L'eglise.
T. 10, Paris 1950.

. Frances. E, " Sur la conquête de Constantinople
par les Latins" dans Byzantio - Slavica,
T.XV (1959) pp. 21-26.

. Frolow.A, " La déviation de la 4^e croisade vers
constantinople" dans Revue de L'histoire
des Religions T.CXLV-CXLVI (1954).

. Geanakoplos. D.J, " Greco - Latin relations on the
eve of the byzantine restoration : The
battle of Pelagonia (1259)", in
Dumbarton Oaks papers, Vol. 7 (1953).

- Grecu. V, " Nicetas choniates . A.t-il connu l'histoire de Jean Cinnamos ?", dans Revue des Études Byzantines T.VII (1949).
- Grousset. R, L'empire du Levant Histoire de la question d'Orient Paris 1949.
  - Histoire des Croisades 3 Tomes, Paris 1943-46.
- Grumel . V, " L'euthenticité de la lettre de Jean Vatatzés empereur de Nicée au pape Grégoire IX" , dans Échos d'Orient (1930).
- Guilland . V.R., " Études sur L'histoire adminstrative de l'empire Byzantin - Despot", dans Revue des Études Byzantines, Vol. XVII (1959).
- Halphen. L, " Le rôle des latins dans L'histoire interieur de Constantinople à la fin du XII^e siécle dans Mélanges ch. Diehl, Vol. I Paris 1930.
- Hanotaux, " Les venitiens ont-ils trahi La Chretienté en 1202? " dans Revue Historiques (1887).
- Hazlitt. W.C, The Venetian Republic Its Rise, its Growth and its Fall. 2 Vols, New York 1966.

. Hendrickx, B, " Les chartes de Baudouin de Flandre Comme source pour L'histoire de Byzance", dans Byzantina. T.I.(1969).

- " Recherches sur les documents diplomatiques non conservés, Concernant la quatrième croisade et L'empire latin de constantinople pendant les premiéres années de son existence 1200-1206", dans Byzantina, T.2 (1970).

- Les institutions de L'empire latin de constantinople 1204-1261 . Le pouvoire impérial". dans Byzantina, T. 6 (1974).

- Les institutions de L'empire latin de constantinople 1204-1261 - La cour et les dignitaires " dans Byzantina, T. 9 (1977). Thessalonica.

. Henri Grégoire, " The question of diversion of the Fourth crusade", in Byzantion, Vol. 15 (1940-41).

. Heyd. W, Histoire du commerce du levant au moyen age Vol. I - Paris 1967. Publiée par Furcy Raynaud.

. Iorga .N, " France de Constantinople et de Morée" I- Deviation de la quatrième Croisade. Participation de L'element Francais.

11- Les Francais à Constantinople, dans
Revue Historique sud-Est Européen
Avril - Août (1935).

Ishak Ebeid, " Was pope Innocent III an accomplice
in the diversion of the Fourth
crusade ", in Egyptian Historical
review, Vol. 15 (1969).

Janin , R, " Au Lendemain de la conquête de
Constantinople - Les tentatives, d'union
des eglises (1204-1208) ", dans Échos
d'Orient, T.XXXII (1933) pp. 5-21.
- "Les Tentatives d'union des Eglises
(1208-1214) dans Échos d'Orient (1933)
pp. 194-202.
- "Les Sanctuaires de Byzance sous
la domination latine (1204-1261)" dans
Études Byzantines T.II (1944).

Kantorowicz, Frederick the second (1194-1250)
London 1931.

Lavisse. E & Rambaud. A, Histoire Génerale
T.II, L'Europe Féodale. Les croisades
(1095-1270).
Paris 1893.

Lebeau , Histoire du Bas - Empire , Vol. XVII
Paris (1834).

- Loenertz, R.J, " Aux origiens du despotat d'Épire et de la principauté d'Achaie"
dans Byzantion, T.XLIII (1973).
- Longnon.J, L'Empire latin de constantinople
Paris 1949.
- Recherches sur la vie de Geoffroy de Villehardouin, Paris 1939.
- "Le chroniqueur Henri de Valenciennes", dans Journal des savants (1945) pp. 134-150.
- "L'arrivée de la couronne des épines en France", dans Revue des deux mondes (1939).
-"Le Patriar-cat Latin de constantinople" dans Journal des savants (1941).
- "L'empereur Baudouin II et L'ordre de saint Jacques",
dans Byzantion, T.XXII (1952).
- Mas Latrie.L.de, " Patrarches Latins de constantingple" dans Revue de L'Orient Latin T.III (1895).
- Michaud.B, Histoire des croisades
Vol. 3, Paris 1819-20.
et (éd) Robert Laffont
Paris 1970.
- Miller .W, The Latins in Levant
London (1908)

- Essays on the latin Orient
Cambridge 1921.
- Trebizond
The Last Greek Empire
London 1926.
- " The Empire of Nicaea and the recovery
of constantinople" in Cambridge
Medieval History Vol. 4 (1936).
- "The rise and Fall of the first
Bulgarian empire"
in cambridge Medieval History Vol.4
(1936).

١١. Nicol. D.M, The Despotate of epiros
Oxford 1957.
-"The Fourth crusade and Greek and latin
Empires 1204-1261",
in Cambridge Medieval History Vol. 4,
Part.I (1966).
- "The date of the battle of pelagonia",
in Byzantinishe Zeitshriet, Vol. 49
(1956).

٤ Ostrogorsky, G, History of the byzantine state
Trans. by Hussey.
Oxford 1956.

. Queller. D. Campton. T. and Campbelle,
" The Fourth crusade: The neglected majority", in speculum (1974).

. Ramsay.W.M., The Historical Geography of Asia Min-or Amsterdam 1962.

. Riant . P. , " Le changement de direction de la quatriéme croisade", dans revue des questions Historiques, Vol. XXII (1878).
-"Innocent III, philippe de sauabe et Boniface Montferrat", dans Revue des questions Historiques, Vol. XVII (1875) , Vol. XXIII (1876).

. Roncanglia.M., Les Preres Mineurs et L'eglise Grecque Orthodoxe au XIII^e siécle (1231-1274) Caire 1954.

. Schlumberger . G, Byzance et croisades Paris 1927.
- "Sceaux et bulles des empereurs latins de constantinople", dans Mélanges d'Archeologie Byzantine, Premiére Série , Paris 1895.
- Numismatique de L'Orient Latin 2 Vols, Austria 1954.

. Setton . M.K, A History of the Crusades Vol.2 - London 1969.

. Stiernon. L, " Les Origines du despotat d'epire" dans Revue des Études Byzantines T.17 (1959).

. Thiriet. F, Histoire de Venise
Paris 1961 .
- La Romanie Ventienne au moyen age.
Paris 1959.

. Tout. T.E, The empire and the papacy
London 1924.

. Vasiliev, Histoire de L'empire Byzantine
T.2 Paris 1932.
- "On the question of Byzantine Feudalism",
in Byzantion, T;.8 (1933).
- "The Foundation of the empire of Trebizonde"
in speculum, Vol. XI (1936).

. Wolff.R.L, " The Latin empire of constantinople and
the Franciscans", in traditio, Vol. II (1944).
- "Baldwin of Flanders and Hainaut, First
latin emperor of constantinople : His life,
death, and resurrection 1172-1225", in
speculum, Vol. XXVII (1952).
- "Mortgage and redemption of an emperor's
son: castile and latin empire of constant-
inople" in speculum , Vol. XXV (1954).
- "The organization of the latin patriarchate
of constantinople 1204-1261", in
Traditio , Vol. VI (1948).

- " Romania : The latin Empire of constantinople", in speculum, Vol. XXIII (1948).
-" The second Bulgarian empire: its origin and History to 1204." in speculum , Vol. XXIV (1949).
-"Politics in the latin patriarchate of constantinople 1204-1261", in Dumbarton Oaks papers, T.8 (1954).

* * *
*

ثالثا : المصادر العربية والمعربة :

ـ ابن الأثير : " عز الدين أبو الحسن على " توفى ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٢م :
الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزء ، القاهرة ١٣٠٤هـ .
ـ ابن أيبك الدوادارى : " أبو بكر بن عبد الله " ت ٧٠٤هـ ـ ١٣٠٦م :
كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السابع : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٢ .
ـ ابن حوقل : " أبو القاسم النصيبى " ت أواخر القرن الرابع الهجرى :
كتاب صورة الأرض
ليدن ١٩٦٧ .
ـ ابن خلدون : " ولى الدين عبد الرحمن بن محمد " ت ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م :
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
الجزء الخامس .
ـ ابن الساعى الخازن : " أبو طالب على بن أنجب تاج الدين " ت ٦٧٤هـ ـ ١٢٧٥م "
الجامع المختصر
الجزء التاسع ، تحقيق مصطفى جواد
بغداد ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م .
ـ ابن شداد : " بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع " ت ٦٣٢هـ ١٢٣٩م :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٦٤م .
ـ ابن العبرى : " أبو الفرج بن هارون " ت ١٢٩٦م :
تاريخ مختصر الدول
بيروت ١٨٩٠ .

- ابن الفرات : " ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم " ت ٨٠٧/١٤٠٤م :
  تاريخ ابن الفرات
  المجلد الخامس ، تحقيق حسن محمد الشماع
  البصرة ١٩٧٠م .
- ابن كثير : " أبو الفداء الحافظ " ت ٧٧٤هـ — ١٣٧٢م :
  البداية والنهاية ، جـ ١٣
  بيروت — الرياض ١٩٦٦م .
- ابن واصل : " جمال الدين محمد بن سالم " ت ٦٩٧هـ — ١٢٩٨م :
  مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
  أجزاء ٢—٣ تحقيق جمال الدين الشيال
  الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٦٠م .
- أبو شامة : " شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل " ت ٦٦٥هـ — ١٢٦٧م :
  — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين .
  — الذيل على الروضتين " تراجم رجال القرنين السادس والسابع "
  نشره السيد عزت العطار الحسينى
  القاهرة ١٣٦٦هـ — ١٩٤٧م
  ١٢٨٧هـ .
- أبو الفداء : " عماد الدين إسماعيل بن على " ت ٧٣٢هـ — ١٣٣١م :
  المختصر فى أخبار البشر
  الجزء الثالث
- جوانفيل : القديس لويس :
  حياته وحملاته على مصر والشام
  ترجمة حسن حبشى
  القاهرة ١٩٦٨م .
- روبرت كلارى : فتح القسطنطينية :
  ترجمة حسن حبشى
  القاهرة ١٩٦٤م .

ـ زيني بن دحلان : " السيد أحمد بن السيد "
الفتوحات الاسلامية
الجزء الأول
ـ سبط ابن الجوزي : " شمس الدين أبي المظفر يوسف " ت ٦٥٤هـ :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان
الجزء الثامن
حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .
ـ الاصطخري : " أبو اسحاق ابراهيم بن محمد " :
كتاب مسالك الممالك
ليدن ١٩٦٧م .
ـ القلقشندي : " أبو العباس أحمد بن علي " ت ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م :
صبح الأعشى في صناعة الانشا
الجزء الخامس
القاهرة ١٣٣٣ ـ ١٩١٥م .
ـ المقريزي : " تقي الدين أحمد بن علي " ت ٨٤٥هـ ـ ١٤٤١م :
السلوك لمعرفة دول الملوك
الأجزاء من ١ ـ ٣ تحقيق مصطفى زيادة
القاهرة ١٩٣٤م .
ـ الهروي : " أبو الحسن علي بن أبي بكر " ت ٦١١هـ ـ ١٢١٤م :
كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات
تحقيق جانين سورديل ـ طومين
دمشق ١٩٥٣م .

* * *

رابعا : المراجع العربية والمعربة :

- ارنست باركر : الحروب الصليبية
ترجمة السيد الباز العريني
القاهرة ١٩٦٠م

- اسحق عبيد : روما وبيزنطه
القاهرة ١٩٧٠م
- الدول البيزنطية في عهد ميخائيل باليولوجوس
بيروت لبنان - منشورات جامعة بنغازي

- اسد رستم : الروم
جزءان ، بيروت ١٩٥٦م .

- اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها
جدة ١٩٧٨م .

- السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية
القاهرة ١٩٦٥م
- الاقطاع الحربي عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس في القرنين ١٢ - ١٣م ، القاهرة بدون تاريخ .

- بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية
ترجمة حسين مؤنس ويوسف زايد
القاهرة ١٩٥٠م .

- جيبون (ادوارد) : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها
ترجمة محمد سليم سالم
٣ أجزاء

- جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط (١٢٥٠ - ١٢٥٤م)
الاسكندرية ١٩٥٩م .

- حامد زيان : الامبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ،
القاهرة ١٩٧٧م .

ـ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية
ترجمة السيد الباز العريني
٣ أجزاء ـ بيروت ـ لبنان ١٩٦٧م
ـ الحضارة البيزنطية
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد
القاهرة ١٩٦١م ٠
ـ سعيد عاشور : ـ الحركة الصليبية
جزءان ـ القاهرة ١٩٦٣م ٠
ـ أوربا العصور الوسطى
جزءان ـ القاهرة ١٩٧٢م
ـ قبرص والحروب الصليبية
القاهرة ١٩٥٧م ٠
ـ شارل ديل : الامبراطورية البيزنطية
ترجمة مصطفى طه بدر
القاهرة ١٩٥٣م
ـ شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية
ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر
القاهرة ١٩٤٨
ـ عادل سليمان زيتون : ـ العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة في القرن
الثاني عشر رسالة ماجستير غير منشورة ـ آداب القاهرة ١٩٧٥م ٠
ـ النشاط التجاري للمدن الايطالية في الحوض الشرقي للبحر
المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ـ رسالة
دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ١٩٧٨م ٠

- عبد الحفيظ أحمد علي : الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ آداب القاهرة ١٩٧٥م .
- عبد القادر أحمد اليوسف : الامبراطورية البيزنطية : صيدا ـ بيروت ١٩٦٦م .
- عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر .
  رسالة دكتوراة غير منشورة ـ آداب القاهرة ١٩٧٧م .
- عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية
  الاسكندرية ١٩٦٢م .
- فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى
  ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العريني
  الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٩م .
- نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطيــة
  دمشق ١٩٣٩ م .
- هسي : العالم البيزنطــي
  ترجمة رأفت عبد الحميد
  القاهرة ١٩٧٧ م .

* * *